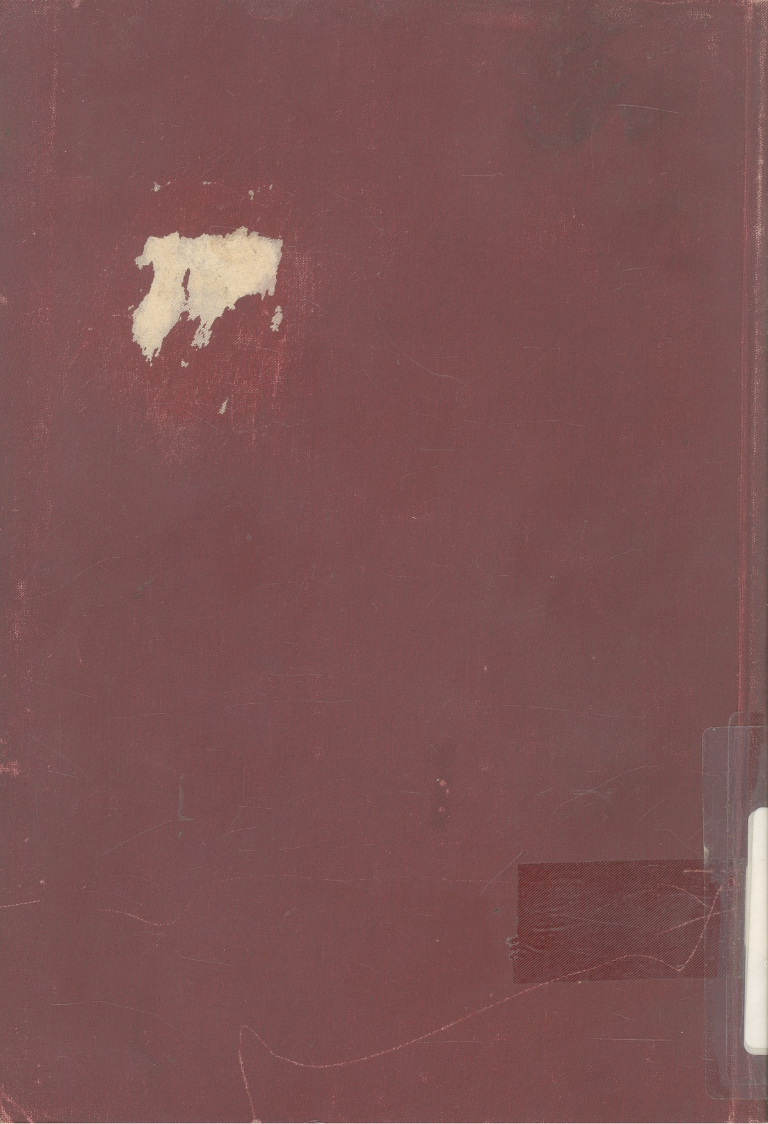




تاريخ التمدن الاسلامي

وهو يبحث في نشوء الدولة الاسلامية
وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والجندية وبيان ثروتها
وتاريخ العلم والادب والسياسة والتجارة فيها ونظام
الهيأة الاجتماعية وآدابها وحضارة المملكة
وابهة الدولة الخ

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

الجزء الرابع

في سياسة الدولة وتنازع رجالها على السيادة

ويشمل النظر في دول الخلفاء من عهد الراشدين فالامويين فالعباسيين فالاندلسيين فالفاطميين وسياسة كل منها في تاييد سلطانها ومعاملة رعاياها وخصوصاً الخلافة العباسية مع علاقتها بما عاصرها من الامارات والسلطنات غير العربية على اختلاف العصور

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر

سنة ١٩٠٥

المقدمة

أخذنا في تأليف هذا الكتاب ونحن نعلم اهمية موضوعه ونشعر بافتقار اللغة العربية الى مثله . ولكننا لم نكن نتوقع ما لاقاه من حفاوة أهل اللغات الأُخرى في العالم الاسلامي بامرهِ ولا اعجاب كبار العلماء المستشرقين في اوربا بموضوعه الى مثل ما رأيناه منهم على اثر صدور الاجزاء الثلاثة الماضية . لانهم فضلاً عما كتبوه الينا من عبارات الاستحسان والتنشيط وما نشروه من التقاريظ في المجلات والجرائد التي تصدر في بلادهم قد اخذوا يشتغلون بنقله الى السنتهم ونشره بين مواطنيهم ونحن لم نفرغ بعدُ من تأليفه . وبعض هذه الترجماتِ قد طبع ونشر ولا يزال البعض الآخر تحت الطبع والآخر تحت الترجمة — فقد صدر الجزء الاول من الترجمة الاوردية (الهندستانية) مطبوعاً على الحجر في امرتسار (الهند) بقلم الشيخ محمد غلام منشىء جريدة وكيل الهندية الشهيرة . وسيصدر الجزء الاول من الترجمة الفارسية قريباً بقلم ميرزا ذكاء الملك صاحب جريدة تربيت الفارسية . وكتب الينا المستشرق الكبير الاستاذ مرجليوث المشتغل بنقله الى الانكليزية في جامعة أوكسفورد أنه سيفرغ من ترجمته ويبدأ بنشرهِ في اواخر هذا الصيف . وبعث الينا الاستاذ دانيلوف المستشرق الروسي في موسكو انه أتمَّ نقل الجزء الأُول الى اللغة الروسية ويليه الثاني . وقد خابرنا بعض المستشرقين بشأن نقله الى اللغة الفرنساوية وغيرها

فنشطنا ذلك في المثابرة على التنقيب والبحث لاستطلاع دخائل التمدن الاسلامي وكشف اسراره بما يبلغ اليه الامكان على اسلوب لم يطرقه كتاب العرب نتوخى فيه ارجاع الحوادث الى اسبابها وبيان ارتباطها بعضها ببعض مع تطبيقها على احكام العقل ونواميس العمران . فنطالع كتب التاريخ والادب وغيرها على سذاجة اسلوبها في سرد الحوادث وايراد الوقائع ونتدبر ما نقرأه ثم نستخرج منه فلسفة ذلك التمدن العجيب كما يستخرج السكر من الخروب . لان مؤرخي الاسلام مع ما بذلوه من الجهد في تحقيق الحوادث وتمحيص اسانيدها ومصادرها قلما نظروا في علاقاتها أو عللوا

اسبابها وانما نقلوها على علاتها وخصوصاً ما يتعلق منها بسياسة الدولة وكيفية انتقال الملك من عائلة الى عائلة أو امة الى امة أو طائفة الى طائفة . لان تعليل تلك الحوادث يبعث أحياناً على الطعن في اقوال بعض الخلفاء أو تخطئة بعض المذاهب وهم يتحاشون ذلك احتراماً للدين ورجاله . ولذلك كان موضوع هذا الجزء أوعر مسلكاً من مواضيع سائر الاجزاء الماضية وادعى الى اعمال الفكرة واستنباط الاقيسة وتطبيق النتائج على المقدمات لانه عبارة عن فلسفة تاريخ الاسلام في عهد ذلك التمدن

موضوع هذا الجزء

بسطنا الكلام في الجزء الاول من هذا الكتاب عن نشوء الدولة الاسلامية وسعة مملكتها وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والمالية والجند والقضاء وغيرها . وخصصنا الجزء الثاني لبيان ثروة الدولة الاسلامية ورجالها واسباب تكوُّن تلك الثروة واسباب انحطاطها . وجعلنا الجزء الثالث خاصاً بالعلم والادب فبحثنا في ما كان منها عند العرب في الجاهلية وما احدثه الاسلام من التغيير في القرائح والعقول وما نقل عن اللغات الاجنبية من العلوم وما كان من تأثير التمدن الاسلامي في كل ذلك

فبعد أن نظرنا في التمدن المذكور من حيث نظام الدولة وثروتها وعلومها عمدنا الى البحث في سياستها فخصصنا لهـا هذا الجزء برمته ولعله اهم أجزاء الكتاب واوعرها مسلكاً لما يحول بيننا وبين اسباب الوقائع السياسية من العقبات والشكوك ولاسيما انتقال الخلافة من دولة الى دولة وما يعترض ذلك من تنازع أهل الدولة على الاستئثار بالسلطة وتأثير الاختلاف الجنسي أو المذهبي في ذلك ممـا لا يتيسر العثور عليه في كتب القوم لما قدمناه من تحاشي المؤرخين الخوض في مثله . على اننا لم نعدم بصيصاً من خلال تلك الظلمة تلمسنا به سبيلنا في البحث عن الاسباب والعلل فتوفقنا الى كشف اسباب اكثر الحوادث فبسطناها بما يقتضيه ذلك من النظر الفلسفي والحكم العقلي والقياس التمثيلي وتحرينا الحقيقة جهد طاقتنا

ولما عمدنا الى تقسيم الموضوع وتبويبه اعترضتنا عقبة اخرى لا تقلُّ وعورة عن تلك لاختلاط الحوادث وتقاطع اسبابها واشتراك نتائجها وتلون مظاهرها وتعدد اوجهها

من حيث الدين أو الجنس أو المكان أو الزمان فرأينا بعد امعان النظر أن تقسم الموضوع باعتبار العناصر التي سادت في الاسلام وما كان من تنازعها على تلك السيادة مع ملاحظة اطوار التمدن الاسلامي باختلاف تلك العناصر . فقسمنا تاريخ الاسلام الى دورين كبيرين : الاول دور التمدن الذي نحن في صدده يبتدئ بظهور الاسلام و ينتهي بذهاب الدولة العباسية من العراق وانحطاط المملكة الاسلامية وتسلط المغول عليها . والدور الثاني هو النهضة السياسية التي حدثت بعد ذلك الانحطاط بتغلب الدولة العثمانية واحياء الخلافة الاسلامية بجمع شتات المسلمين السنيين في ظلها وظهور الدولة الصفوية الفارسية وجمع شتات الشيعة تحت رايتها

وقسمنا الدور الاول الى خمسة اعصر باعتبار تغلب أحد العناصر الاسلامية على سائرها . ولا يتيسر وضع حدّ فاصل بين هذه الاعصر لاسباب لا تخفى على المطالع فيغلب أن تختلط أواخر كل عصر باوائل العصر الذي يليه واليك هي :

١ العصر العربي الاول : من ظهور الاسلام الى انقضاء الدولة الاموية سنة ١٣٢ هـ
٢ العصر الفارسي الاول : من قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ الى خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ هـ
٣ العصر التركي الاول : من خلافة المتوكل الى تسلط الديلم سنة ٣٣٤ هـ
٤ العصر العربي الثاني : من قيام الدولة الفاطمية الى انقضائها
٥ العصر المغولي : من ظهور جنكيز خان الى وفاة تيمور لنك

أما العصر التركي الثاني فهو عصر الدولة العثمانيــة والعصر الفارسي الثاني عصر الدولة الصفوية ومن خلفها على بلاد فارس و يتألف منها الدور الاسلامي الثاني وهو خارج عن دائرة بحثنا في هذا الكتاب

وقسمنا كلاً من الاعصر الخمسة الى فصول وابواب على ما يقتضيه المقام . فقدمنا الكلام بتمهيد في العرب قبل الاسلام من حيث نظام الاجتماع فوصفنا البدو والحضر وانساب العرب وقبائلهم و بطونهم واستفحال عصبية النسب عندهم ومنها الامومة والخؤولة ثم ذكرنا توابع تلك العصبية كالحلف والاستلحاق والخلع ثم العبيد والموالي في الجاهلية وأنواعهم وأحكامهم والنزالة الاجانب في جزيرة العرب قبل الاسلام

وخصوصاً الابناء الفرس . وختمنا التمهيد بفصل في سياسة الدولة ومناقب العرب

ثم تقدمنا الى العصر العربي الأول فقسمناه الى ايام الراشدين وايام بني أمية . فبيّنا أولاً ان الاسلام قام بالجامعة الاسلامية التي جمعت كلمة العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم تحت راية الاسلام . فتساووا في الفضل من حيث انسابهم وتفاضلوا من حيث سبقهم الى الدين أو جهادهم في سبيله فتولدت طبقات اسلامية جديدة كالمهاجرين والانصار وأهل بدر وأهل القادسية مما لم يكن من قبل . ثم وصفنا سياسة الخلفاء الراشدين وانها مبنية على التقوى والحق والعدل وذكرنا مزايا كل خليفة منهم وان سياسة عمر بن الخطاب كانت في أول خلافته تدعو الى حصر المسلمين في جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق وانهُ اضطر بطبيعة العمران أن يأذن لقواده وامرائه في الانسياح بالارض فانتشر العرب بالفتح او المهاجرة وتكاثروا بالتناسل الكثير . وختمنا العصر الأول بفصل في العبيد والموالي واحكامهم في الاسلام

ثم انتقلنا الى القسم الثاني من العصر العربي الأول وهو أيام الامويين فذكرنا أولاً الاسباب التي ساعدت على انتقال الخلافة اليهم وما كان بين هاشم وأمية من المنافسة قبل الاسلام وكيف شقَّ على الامويين ان يعظم امر بني هاشم بالنبوة وهم أقل منهم عدداً وقوة . فما زالوا حتى غلبوهم على الدولة فاخذها معاوية بن أبي سفيان من علي بن ابي طالب بالدهاء والاطماع . وفصلنا سياسة الامويين في تأييد سلطتهم وبينا ان محور هذه السياسة طلب التغلب بأية وسيلة كانت والامويون يعلمون ان الهاشميين أحق منهم بالخلافة فعمدوا الى الاستقواء بالعصبية كما كانت في الجاهلية وكان العرب المسلمون قد نسوا دهشة النبوة فعادوا الى عصبية النسب أولاً بين قريش وسائر العرب ثم بين اليمنية والمضرية . وبالغ الامويون في التعصب على غير العرب فاحتقروا الموالي الفرس وغيرهم وضيقوا عليهم . وتحضر العرب في عصر الامويين وألفوا السكنى في المدن فحدثت العصبية الوطنية أي تعصب البلاد بعضها على بعض كالبصرة والكوفة والشام وغيرها . واضطر الامويون في التغلب على بني هاشم الى اصطناع القبائل والرجال ببذل المال فحملهم ذلك على الاستكثار من الاموال وجرهم

الاستكثار منها الى ابتزازها بحق أوغير حق فضيقوا على الرعية من المسلمين وأهل الذمة حتى ملّ الناس أيامهم وخصوصاً بعد ما ظهر من استخفافهم بأحكام الشريعة وتهتكهم وفتكهم واحتقارهم الموالي وتضييقهم على أهل الذمة . و يلي ذلك فصل طويل في أحكام اهل الذمة من زمن عمر بن الخطاب الى آخر أيام الامويين

ثم تقدمنا الى العصر الفارسي الأول فصدرناهُ بفصل في انتقال الخلافة الى العباسيين بنصرة الموالي الناقمين على بني أمية . وكيف نصروا بني العباس وهم في الاصل من شيعة علي وكانوا يظنون بيعتهم مشتركة بين العلويين والعباسيين لان العباسيين كانوا قد بايعوا العلويين على ذلك فسكتوا فنقل أبو مسلم الخراساني المملكة الاسلامية من الامويين وسلمها الى العباسيين . فلما قبض العباسيون على أزمة الدولة نكثوا البيعة وغدروا بمن كانوا يخافونهُ على سلطانهم من العلويين وغيرهم حتى فتكوا بجماعة من اكبر دعاتهم ونصرائهم وفيهم أبو مسلم نفسه . وقسمنا سياسة العباسيين الى سياستين : الاولى سياستهم في تأييد سلطتهم وكانت مبنية على الغدر والفتك فخافهم الفرس الذين ساعدوهم على قيام دولتهم وكظموا غيظهم لئلا يصيبهم ماأصاب ابا مسلم واصحابه فاستخدمهم العباسيون في مصالح دولتهم وسلموا اليهم مقاليد الحكومة وجعلوهم وزراءهم وأشهرهم البرامكة . فلما اشتد ساعد البرامكة ونالوا مانالوه من القوة والسطوة والثروة اخذوا يبذلون الاموال لاكتساب قلوب الناس وقد أضمروا ارجاع البيعة الى العلويين او تسليم الدولة للفرس فشعر الرشيد بذلك فنكبهم . وفصلنا مقدمات هذه النكبة وأسبابها فتضاعفت نقمة الفرس على العباسيين . ولما مات الرشيد اختلف ابناه الامين والمأمون وكان الفرس اخوال المأمون فنصروه وحاربوا معهُ وقتلوا أخاه وأعادوا الخلافة اليه على ان يبايع بعده لعلي الرضا أي ينقل الدولة من العباسيين الى العلويين فأطاعهم حتى ملك مراده منهم ثم غدر بهم

والثانية سياستهم في معاملة الرعية وكانت مؤسسة على العدل والحق والمحاسنة . و يتخلل ذلك فصول في أهل الذمة وأحكامهم وأسباب ما لحقهم من الاضطهاد الى عهد غير بعيد وفصلٌ في حرية الدين واطلاق الافكار وما كان من تنازع العناصر

وكيف ذهبت العصبية العربية بذهاب دولة الامين وما رافق ذلك من اختلاط الانساب حتى ندر الدم العربي الخالص بعد ذهاب القرن الثاني للهجرة الا في البادية

ثم تقدمنا الى العصر التركي الأول وذكرنا الاسباب التي دعت الى تداخل الاتراك في الدولة من أيام المعتصم وكيف جمع الاتراك وجندهم وبنى لهم سامرّا وكيف تدرجوا في مصالح الدولة حتى تغلبوا على الخلفاء وما ترتب على ذلك من احتجاب الخلفاء في دور النساء ومعاشرتهم الخدم ووثوقهم بهم حتى رفعوا الخدم والخصيان الى رتب القيادة وامارة الامراء وغيرها وأطلقوا أيدي النساء في مصالح الدولة فآل ذلك كله الى فساد الاحكام واختلال الاعمال وذهبت هيبة الخلفاء فعمد أصحاب الاطراف الى الاستقلال بولاياتهم فتشعبت الدولة العباسية الى فروع فارسية وتركية وعربية وكردية وكلها تابع للخليفة العباسي . فاستطرقنا بذلك الى البحث في معنى الخلافة ونسبتها الى السلطة من أول الاسلام الى الآن

ثم انتقلنا الى العصر العربي الثاني فذكرنا نقمة العرب على العباسيين منذ اهملوهم وأسقطوهم من الديوان وأضفنا اليها نقمة العلويين والامويين وكيف ظهرت الدولة الاموية في الاندلس والفاطمية في مصر لمقاومة الدولة العباسية وأوشك الفاطميون وهم علويون أن يتغلبوا على العباسيين لولم يقف السلاجقة في سبيلهم . على أن الفاطميين ما لبثوا ان تضعضعوا وغلبهم الاكراد على دولتهم وأولهم صلاح الدين فأعاد البيعة الى العباسيين وانقضى هذا العصر وقد تضعضعت المملكة الاسلامية وانقسمت على نفسها وطمع بها أعداؤها المحيطون بها فجاءها المغول وهي في تلك الحال فاكتسحوها وزادوها ضعفاً واختلالاً وهو العصر المغولي و به ينتهي هذا الجزء

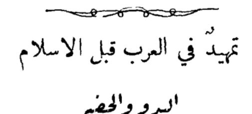
وقد بذلنا الجهد في تمحيص الحقائق وتحقيق الحوادث بالاعتماد على أوثق المصادر وأصح الروايات وتدبرنا ذلك واستخرجنا من علل الحوادث وأسبابها ما نظنه الاقرب الى الصواب ووجهتنا الصدق والاخلاص والانصاف والله حسبنا ونعم الوكيل

وسيكون موضوع الجزء الخامس حضارة المملكة وابهة الدولة وآداب الاجتماع وبه ينتهي هذا الكتاب

العصر العربي الأول

من ظهور الاسلام الى سنة ١٣٢ هـ

نريد بهـذا العصر المدة التي كانت فيها الدولة الاسلامية في ايدي العرب وكانت سياستها عربية وقوادها عرب وعمالها عرب وكانت السيادة فيها للعنصر العربي . والعصر المذكور يبتدئ بالاسلام وينقضي بانقضاء الدولة الاموية . وهو ينقسم الى دولتين دولة الراشدين ودولة الامويين ولكل منهما احكام خصوصية في السياسة وشؤون الحكومة سيأتي بيانها . ولا بد لنا تمهيداً لذلك ان نأتي بفذلكة في حال العرب قبل الاسلام من حيث مايهمنا بيانه في هذا الباب فنقول



تمهيدٌ في العرب قبل الاسلام

البدو والحضر

البدو أهل البادية والحضر اهل المدن والبداوة اقدم من الحضارة لانها اقرب منها الى الفطرة الطبيعية . فالانسان كان في اول ادواره بدوياً يحترف الزراعة والفلاحة او ينتحل القيام على تربية الحيوان من الغنم والبقر والمعز او النحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها مما لا تتسع له المدن من المزارع للغرس والمسارح للمرعى . فالتجأوا الى السهول والبراري وكان همُّهم بلوغ الضروري من القوت والكنّ والدفء بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغــة العيش . فاذا اتسعت أحوالهم وحصل لهم ما وراء ذلك من اسباب الغنى والرفه عمدوا الى السكون والدعة وتأنقوا واترفوا وتمدنوا

فالبداوة تقوم اما على الفلاحة والزرع او على تربية الحيوان . فالبدو اهل الفلاحة مضطرون للاستقرار في مواطنهم ينتظرون الغلة وهم سكان المداشر والقرى والجبال وكانوا قليلين في بادية العرب . وانما يكثر هذا الصنف من البدو في بلاد البربر بشمالي افريقيا وفي ما يجاور المــدن العامرة بمصر وفارس والشام وغيرها . واما البدو الذين يحترفون تربية الحيوان فدأبهم الظعن والارتحال لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم . وهم

صنفان اهل سائمة واهل ابل فأهل السائمة هم القائمون على الشاء والبقر ولا يبعدون في القفر لقلة المسارح الطيبة ويقال لهم الشاوية نسبة الى الشاء • وهؤلاء مثل البربر في شمالي افريقيا والترك واخوانهم التركمان والصقالبة وغيرهم ممن يقطنون بوادي تركستان وخراسان ونحوها

واما اهل الابل فاشهرهم بدو العرب وهم اكثر ظعناً وابعد في القفر مجالاً من اهل السائمة لان مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغني بها الابل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه الملحة والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فراراً من اذى البرد الى دفء هوائه وطلباً لماخض النتاج في رماله لان الابل اصعب الحيوان فصالاً ومخاضاً واحوجها في ذلك الى الدفء • فاضطروا الى ابعاد النجعة والايغال في القفار فهم ينزلون من اهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وقيامهم بالمدافعة عن انفسهم • فهم دائماً يحملون السلاح ويتلفتون في الطرق ويتجافون عن الهجوع الاّ غراراً في المجالس وعلى الرحال وفوق الاقتاب ويتفردون في القفر والبيداء واثقين ببأسهم حتى صار البأس لهم خلقاً ولذلك كان اكثر البدو توغلاً في القفر أشدّهم بأساً واصبرهم على المشاق

فسكان جزيرة العرب معظمهم من البدو الرحل ولذلك كانت المدن قليلة في تلك الجزيرة ولا سيما في اواسطها • واشهر المدن العربية قبل الاسلام مكة والمدينة والطائف في الحجاز ومأرب وصنعاء في اليمن • وسكانها اخلاط من العرب والفرس واليهود وغيرهم يرتزقون بالبيع والشراء على من يفد عليهم من اهل البادية

العصبية العربية قبل الاسلام

قلنا ان العرب جمهورهم من البدو والعصبية ضرورية لاهل البادية • لان الناس مفطورون على المطامع ودأبهم التخاصم والتنازع فأهل المدن يدفع عدوانهم الحكام واهل الدولة من ان يظلم بعضهم بعضاً وهي أيضاً تدفع غارات الاعداء بما تقيمه من الاسوار وتعده من الجند والسلاح • واما البدو فيحكم بينهم مشائخهم وكبراؤهم بما وقر في نفوس اهل القبيلة أو الحي من الوقار لهم — واكرام السن من سنن البدو • واذا

سطا عليهم عدوٌّ في منازلهم قام في الدفاع عنها فتيانهم وشجعانهم وهؤلاء لا يصدق دفاعهم الاَّ اذا كانوا عصبية تشتد بها شوكتهم ويخشى جانبهم

واهل البلد الواحد او المصلحة الواحدة لابد لهم من جامعة تجمع بين افرادهم . والجامعة تختلف في الامم باختلاف احوالهم فبعض الامم يجمعهم الوطن وآخرون يجمعهم الدين وغيرهم يجمعهم النسب او اللغة . وقد رأيت ان البدو لا وطن لهم وكانوا قبل الاسلام لادين لهم فلم يكن لهم ما يجمعهم غير النسب واللغة وهما متلازمتان خصوصاً في البداوة . فعني العرب في حفظ انسابهم وضبطها وتفاخروا بها وبالغوا في استقصائها حتى ردوها الى الآباء الاولين

فاقرب اسباب العصبية عندهم الاخوَّة والوالدية والعمومة ومنها تتألف العائلة اوالاسرة ومن العائلات تتألف الفصيلة كآل ابي طالب وآل العباس مثلاً فان كلاً منهما فصيلة مؤلفة من عائلات وكلاهما من بني هاشم . ومن الفصائل تتألف الفخذ مثل بني هاشم وبني امية وكلاهما من بني عبد مناف . ومن الافخاذ تتألف البطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم وكلاهما من قريش . ومن البطون تتألف العمارة مثل بني قريش وبني كنانة وكلاهما من مضر . ومن العمائر تتألف القبيلة مثل ربيعة ومضر وكلاهما من عدنان . ومن القبائل يتألف الشعب وهو النسب الابعد مثل عدنان وقحطان

انساب العرب

والذي عليه النسابون ان سكان جزيرة العرب قبل الاسلام يرجعون في اصولهم الى قسمين العرب البائدة والعرب الباقية . فالقبائل البائدة هي التي بادت وضاعت اخبارها قبل ظهور الاسلام مثل عاد وثمود وطسم وجديس وعمليق وجرهم وجاسم . وقد بحثنا بحثاً تحليلياً في نسب هذه القبائل واما كنها بمقالة نشرت في الهلال العشرين من السنة الخامسة لامحل لها هنا . واما العرب الباقية فهي القبائل التي ظهر الاسلام وهي حية فقامت به ونشرته وانشأت الدولة الاسلامية . والقبائل الباقية فرقتان ترجع كل منهما الى أب واحد يضمها وطن تنسب اليه : الفرقة الاولى القحطانية وترجع في انسابها الى قحطان وهو يقطان الذي ينتهي نسبه الى ارفكشاد من آباء التوراة ومقرّ القبائل القحطانية في اليمن ولذلك عرفت ايضاً بالقبائل اليمنية او عرب اليمن . والفرقة الثانية العدنانية نسبة الى عدنان من بعض اعقاب اسماعيل بن ابراهيم الخليل وتعرف ايضاً بالاسماعيلية ولما كان مقرّ اكثرها في الحجاز ونجد عرفت بالقبائل الحجازية او بعرب الحجاز ونجد

ولكل من القحطانية والعدنانية فروع من القبائل والعمائر والبطون والافخاذ والفصائل لا يحصيها عدٌّ ولا محل لذكرها ولكننا نأتي بما يهمنا منها في هذا المقام — فالعرب القحطانية اقدم من العدنانية او تمدنت قبلها على الاقل ومنها بنو حمير الذين انشأوا تمدنًا في اليمن ومنهم الملوك التبابعة وآثارهم في حضرموت وخرائب اليمن لا يزال اكثرها مدفونًا في الرمال وعليه نقوش بالقلم المسند . وقد تفقد آثار ذلك التمدن غير واحد من المستشرقين ولكنهم لم يتمكنوا من الاطلاع على شيء كثير لصعوبة السلوك في تلك القفار . على ان بعضهم الف الكتب في هذا الموضوع وذهب الى ان التمدن اليمني اقدم من التمدن المصري وان الفراعنة اخذوا جراثيم تمدنهم عن اولئك العرب القحطانية . والمظنون ان ملكة سبا التي زارت سليمان الحكيم نحو القرن العاشر قبل الميلاد انما هي من ملوك هذه الدولة

وما زال اليمنية في بلاد اليمن وحضرموت حتى كان سيل العرم او انبثاق السد المعروف بسد مأرب . وهو عبارة عن حائط كان موصلاً بين جبلين يحجز الماء الذي يسيل بينهما فيرتفع ويروي السفحين الى اعلاهما . بناه بعض ملوك تلك الدولة بناءً متينًا فصبر على صدمات الماء وتأثير الهواء عدة قرون . فلما دنا القرن الثاني للميلاد (تقريبًا) وكانت الدولة قد شاخت احسوا بقرب سقوط السد فخافوا الطوفان والقحط فنزحوا من ذلك المكان وتفرقوا في البلاد بحسب قبائلهم وبطونهم ومنهم بنو غسان في الشام وبنو لخم في العراق وبنو الاوس والخزرج في المدينة والازد في منا وخزاعة بجوار مكة . ثم انفجر السدّ فهاجر من بقي هناك من القبائل اليمنية . وفي نحو القرن الخامس للميلاد استولى الاحباش على بلاد اليمن ثم جاء الفرس فاخرجوا الاحباش وضموا اليمن الى مملكتهم . وجاء الاسلام واليمن من اعمال مملكة الفرس

فلما ظهر الاسلام كانت دولة العرب القحطانية قد دالت وهم الحضر وسكان المدن . واما البدو القحطانية فكانوا لا يزالون كثيرين غير من بقي من القحطانية الحضر في المدينة وغيرها من مدن الحجاز واليمن . واليك اشهر القبائل القحطانية عند ظهور الاسلام وهي: سبا وحمير وكهلان والازد ومازن وغسان والاوس والخزرج وخزاعة وبجيلة وخثعم وهمدان وطيء ولخم وكندة وقضاعة وكلب وتنوخ ومراد والاشعر وغيرها

واما القبائل العدنانية او عرب الحجاز ونجد فلم يظهروا قبل الاسلام الاّ قليلاً ولم ينشئوا دولة الاّ بعد الاسلام . وهم قبائل عديدة مواطنهم على الغالب في نجد والحجاز والعراق وتهامة وكلها بادية رحالة الاّ قريشًا فقد كانوا حضرًا يقيمون في مكة وبعض اهل

الطائف . واعظم القبائل العدنانية قبيلة « معد » ومنها تسلسلت قبائل عدنان كلها و يقال انه كان معاصرًا لارميا النبي [١] وتفرع من معد اياد ونزار وسكنت اياد العراق وتشعبت الى بطون وافخاذ . واما نزار ففيها العظمة والقوة ولها الفضل الاعظم على العرب لان منها جاءهم النبي . وانقسمت نزار الى قبيلتي ربيعة ومضر فسكنت ربيعة في جزيرة العراق ومن بطونها ضبيعة واسد وعنزة وجديلة والنمر وتغلب وبكر بن وائل وغيرهم . واما مضر بن نزار فهم اهل الكثرة والغلب بالحجاز اكثر من سائر بني عدنان وكانت لهم الرئاسة بمكة . ومن مضر تشعبت عدة عمائر من جملتها قريش وتشعبت قريش الى ٢٥ بطنًا من جملتها بنو عبد مناف ومنهم بنو هاشم رهط النبي و بهِ شرفت مضر بعد الاسلام على سائر العرب قحطانيها وعدنانيها

واشهر القبائل العدنانية غير ما تقدم خزيمة وكنانة والنضر وشيبان وقيس وهوازن وسليم وغطفان وذبيان وثقيف وكلاب وعقيل وتميم وهلال وباهلة ومخزوم وامية وعبد القيس وغيرها و بعضها فروع للبعض الآخر . ولكل قبيلة او عمارة شؤُون خاصة وحكومة خاصة وشارة خاصة . ولكل منها سمة خاصة تمتاز بها عن سائر القبائل تعرف بها رايتها وتسم بها ابلها اي تنقش عليها علامة خاصة بها كيًّا بالنار يقال لها الميسم [٢] وكانت القبيلة تمتاز بشيءٍ تعرف بهِ ويذيع بين القبائل خبره وتفاخر بهِ سواها فكانت مضر مثلاً تفتخر بفصاحتها وربيعة تفتخر بفروسيتها ونجدتها [٣] واشتهر بعض القبائل بالعز والمنعة دون سواها كقبيلة بهدلة من العدنانية فقد ذكروا ان العز والقوة تسلسلا اليها من معد الى نزار فمضر فخندف فتميم فسعد فكعب فعوف فبهدلة

عصبية النسب

وبين القبائل وافخاذها او بطونها او عمائرها عصبية النسب تجمعها بعضها على بعض — الاقرب فالاقرب على الابعد فالابعد . فتجتمع الفصيلتان من الفخذ الواحد على فخذ آخر ولو كانوا جميعًا من بطن واحد وتجتمع البطنان من عمارة واحدة على عمارة اخرى ولو كانوا جميعًا من قبيلة واحدة على حد قول المثل « انا واخي على ابن عمي وانا وابن عمي على الغريب » فالقحطاني يتعصب على العدناني وهذه اوسع العصبيات ثم ان القبائل يتعصب بعضها على بعض . والعمائر من قبيلة واحدة تتعصب بعضها على بعض ويقال نحو ذلك

(١) ابن خلدون ٣٠٠ ج ١ (٢) الاغاني ٤ ج ١٩

(٣) المسعودي ١ : ٢ ج ١

في البطون من عمارة واحدة او الافخاذ من بطن واحدة حتى تصل الى الفصائل والعائلات. فبنو العباس و بنو ابي طالب مثلا تخاصما وكلاهما من بني هاشم. وبنو هاشم و بنو امية تخاصما وكلاهما من بني عبد مناف وقس على ذلك

وكل من القبائل او البطون او الافخاذ يفاخر سواه بحسنات قومه ويذكر مثالب الآخرين. ولهم في ذلك مفاخرات يطول بنا شرحها. على ان اشهر حوادث المنافسة بين العرب انما هو بين القبائل القحطانية (او اليمنية) والقبائل العدنانية وقد يرد ذكر ذلك في التاريخ ولا ينتبه له القارىء لانهم قلما يذكرون انتساب القبائل الى احدى هاتين العصبيتين فيقولون مثلاً «انتشبت الحرب بين قيس وكلب» ولا يذكرون ان قيساً من العدنانية وكلباً من القحطانية لاعتقادهم ان القارىء يعرف ذلك. وقس عليه قولهم تفاخرت قحطان ونزار او معد واليمن او مضر وحمير او هوازن وكهلان او قيس وهمدان او نحو ذلك

العرب والعجم قبل الاسلام

على ان العرب القحطانية والعدنانية يجتمعون على غير العرب من الفرس او الترك ويسمونهم «العجم» ويفاخرونهم بالانساب واللغة ويحتقرونهم وقد شقوا من اسمهم لفظ الاعجم للدلالة على الخرس ان او العجم مشتق من العجمة فالعجمي عندهم غير العربي والاعجم الاخرس [1] والاخزر عندهم الذي في عينه ضيق وهذا وصف العجم وهو عند العرب من النقائص فاذا قيل للعربي يا اخزر عدَّ قوله اهانة لانه اخرجه من العرب. على ان العجمي في الاصل الفارسي والعجم الفرس لان الفرس اقدم من خالط العرب من الامم الغريبة عن لسانهم ثم اطلقوا لفظ العجم على كل اجنبي غير عربي

والمنافسة بين العرب والعجم قديمة فان الفرس في ايام دولتهم كثيرًا ما كانوا يخرجون العرب من بلادهم بالسيف والعرب كانوا يسطون على مدن الفرس حتى في ايام سابور قبل الاسلام بضعة قرون. وكان هذا قد تعمد اذى العرب واخراجهم من بلاده وخصوصاً قبيلة اياد وفيه يقول الشاعر:

على رغم سابور بن سابور اصبحت قباب اياد حولها الخيل والنعم

ولكنه تمكن منهم بالقوة والجند فقتل منهم خلقاً كثيرًا ومن افلت لحق بارض الروم. وفعل نحو ذلك ببني تميم في البحرين. وما زالت الضغائن بين العرب والفرس حتى اضطر عرب اليمن الى استنجاد كسرى على الاحباش في القرن الخامس للميلاد فارسل جنداً اخرجوا

---

(١) العقد الفريد ٢٢٩ ج ٣

الاحباش واحتلوا مكانهم وحكموا العرب الى ان جاء الاسلام وتحول السلطان الى العرب فتسلطوا على العجم فكبر ذلك عليهم وخصوصاً في ايام بني امية لتعصبهم على غير العرب . ونشأت فرقة الشعوبية للطعن في العرب وسياتي بيان ذلك

الامومة والخؤولة

الاصل في العصبية عند العرب الابوّة اوالانتساب الى الاب مثل سائر الامم الراقية على ان الامومة كان لها شأن كبير عندهم وكثيرا ماكانت المزاوجة أو المصاهرة سبباً كبيراً للعصبية ليس ذلك لعلو منزلة المرأة على الاجمال وانما الفضل فيه للامومة فان المرأة كانت لا تزال محتقرة حتى تصير أماً فتعلو منزلتها وتشتد عرى الاتحاد بها • فالرجل منهم يفضل أمه على امرأته لان الام في اعتقاده أبقى له من امرأته • ومن أمثلة ذلك ان صخر بن عمرو بن الشريد أخا الخنساء لما حضر محاربة بني أسد طعنه ربيعة بن ثور الاسدي فادخل بعض حلقات الدرع في جنبه وبقي مدة حول في أشد ما يكون من المرض وامهُ وزوجته سليمى تمرضانه فضجرت زوجته منه فمرت بها امرأة فسألتها عنه فقالت « لا هو حيٌّ فيرجى ولا ميت فينسى » فسمعها صخر فأنشد قصيدة قال منها :

أرى أم صخر لا تملُّ عيادتي ... وملت سليمى مضجعي ومكاني

وأي امرىءٍ ساوى بأمٍّ حليلة ... فلا عاش الا في شقى وهوان[1]

وكانت العرب من أجل ذلك لا يعزون بالمرأة الا ان تكون أماً [2] ولم يكن ذلك خاصاً بحال المرأة عند العرب فقد كان هذا شأنها ايضاً عند اليونان لانهم كانوا يعدون المرأة أمة يحجبونها قبل الزواج وبعده وتشتغل بأشغال البيت من الحياكة والغزل وتمريض المرضى • وكذلك كان يفعل الفرس بنسائهم فاذا صارت المرأة أماً عات منزلتها وصار اليها الامر والنهي في بيتها ولا يزال هذا دأب أهل البادية الى اليوم • ونشأت من ذلك عصبية الخؤولة عند العرب وهي نصرة عشيرة الام لاولادها وبعبارة أخرى لعشيرة زوجها ولو كان الاب من قبيلة يمنية والام من قبيلة عدنانية أو بالعكس

وكان للخؤولة شأن عظيم عند العرب قبل الاسلام وأقرب الشواهد عليها نصرة أهل

(١) ابن خلكان ١٣٢ ج ١ (٢) العقد الفريد ٢٦٤ ج ٢

المدينة للنبي في هجرته اليهم فان الخؤولة كانت من أهم أسباب نصرتهم لان أم النبي من بني النجار من الخزرج وهي قبيلة قحطانية وأبوه من قريش وهي قبيلة مضرية . فلما توفي والده ذهبت به أمه الى المدينة لكي تلتجىء الى أخواله بني النجار وهم كثيرون وكانوا من أقرب أهلها الى التدين وقد ترهب أحدهم في الجاهلية ولبس المسوح وفارق الاوثان واغتسل من الجنابة وهمّ بالنصرانية ثم امسك عنها واتخذ بيته مسجداً . فاقامت عندهم على الرحب والسعة ثم ذهبت به الى أعمامه في مكة وماتت على الطريق . فلما قام بدعوته وقاسى ما قاساه من اضطهاد اعمامه هاجر الى اخواله في المدينة وأهلها يعرفون ذلك فيه لان خؤولة بني النجار جعلت الخزرج كلهم أخواله فلما نزل المدينة رحب به أهلها وكان أول من تابعه منهم أخواله أو من يمت اليهم بقرابة . وكانوا أشد أهل المدينة غيرة عليه ودفاعاً عنه[1] ثم تهافت أهل المدينة الى مبايعته . وكان في أثناء غزواته اذا اشتد القتال جلس تحت راية الانصار[2] وهم يستهلكون في سبيل نصرته ولا سيما آل النجار . وكان أعداء الانصار اذا هجوهم خصوا بني النجار منهم بالذكر لتصدرهم في ذلك أكثر من سائر أهل المدينة . فمن قصيدة قالها عمرو بن العاص يوم أحد وهو لم يسلم بعد :

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا ... مع الصبح في رضوى الحبيك المنطق
تمنت بنو النجار جهلاً لقاءنا ... لدى جنب سلع والاماني تصدق
فما راعهم بالشر الا فجاءة ... كراديس خيل في الازقة تمرق[3]

وظلت الخؤولة مرعية عند العرب بعد الاسلام وكان لها تأثير كبير في العصبية وسياسة الدولة . فلما طلب معاوية الخلافة بحجة المطالبة بدم عثمان بن عفان نصره بنو كلب وهم يمنية لان نائلة امرأة عثمان منهم وقد تلطخت اصابعها بالدم . وكان لنصرتهم دخل كبير في قيامه وتزوج هو واحدة منهم ولدت له ابنه يزيد . ولما افضت الخلافة الى يزيد كان الكلبية من حزبه لانهم اخواله وامثال هذه الشواهد كثيرة في تاريخ الاسلام منها ان المأمون نصره الفرس لان امه منهم وكان اخوه الامين ضده وحزبه عربي لان امه عربية فلجأ المأمون الى خراسان واقام بمرو عند اخواله فاخرجوا الخلافة من يد الامين وسلموها اليه . والمعتصم كانت امه تركية وكان ميله الى الاتراك كثيراً وقد جندهم فنصروه

---

(١) ابن هشام ١٨٩ ج ١ (٢) ابن هشام ٨١ ج ٢
(٣) ابن هشام ١١٠ ج ٢

على الفرس . وقس على ذلك تأثير الأم في الدولة مما سيأتي تفصيله وكان رجال السياسة والتدبير من الملوك والقواد يقوّون احزابهم بالتزوّج من القبائل المختلفة فيكتسبون عصبية قبائل نسائهم

توابع العصبية العربية

الحلف

فعمدة العرب في العصبية جامعة النسب من الأب ثم الام على انهم كانوا يجتمعون باسباب أخرى كالحلف بين القبائل وهو يشبه المحالفات أو المعاهدات الدولية في هذه الايام . واشهر احلاف الجاهلية حلف المطيبين وحلف الفضول . فالحلف يجمع بين القبائل ولو تباعدت انسابها من القحطانية والعدنانية . وقد يكون التحالف بين العرب وغير العرب ممن ينزلون بينهم وهو من قبيل الولاء كاليهود الذين نزلوا المدينة من بني النضير وبني قينقاع وغيرهم ومنهم حلفاء الاوس والخزرج وكان اهل وادي القرى حلفاء بني هاشم وسيأتي ذكرهم في الموالي

وللتحالف او الحلف عندهم شروط واسباب منها ان يكون الحليف اسيرًا لا يستطيع فداء نفسه فيسمونه بسمة تلك القبيلة فيعد حليفاً لها [1] والحليف يرث من القبيلة كما يرث الصريح من ابنائها [2] اما اذا قتل فديته نصف دية الصريح [3]

الاستلحاق

ومن توابع العصبية العربية قبل الاسلام الاستلحاق وهو ان يدعي الرجل رجلاً يلحقه بنسبه وقد يكون عبدًا او اسيرًا او مولى فيسميه مولاه وينسبه اليه . ومن اشهر حوادث الاستلحاق في الجاهلية ان امية جد بني امية كان له عبد اسمه ذكوان استلحقه بنسبه وكناه ابا عمرو فصار اسمه عندهم ابا عمرو بن امية ومن نسله جاء الوليد بن عقبة اخو عثمان بن عفان لامه وكان من جلة الصحابة

واشهر حوادث الاستلحاق في الاسلام استلحاق زياد بن ابيه بابي سفيان والد معاوية داهية العرب وقصة استلحاقه مشهورة في كتب التاريخ . وكان زياد هذا ابن امرأة اسمها سمية وكانت جارية فولدت زيادًا من غلام رومي من موالي ثقيف اسمه عبيد ولم يكن ذلك مشهورًا عند العرب فكانوا يعتبرون زيادًا مجهول الاب فسموه «زياد بن ابيه»

---

(١) الاغاني ١١٠ ج ٧ (٢) تاريخ الوزراء ٢٥١ (٣) الاغاني ١٦٧ ج ٢

فلما طلب معاوية الخلافة واحتاج الى من ينصره قرب اليه جماعة من دهاة العرب ومنهم زياد المذكور واختص زياداً بالاستلحاق فاستشهد خماراً من اهل الطائف اسمه ابو مريم السلولي فشهد ان ابا سفيان جاءه والتمس منه بغياً فاتاه بسمية فحملت منه بزياد وثقات المؤرخين ينكرون ذلك ويعتقدون ان معاوية اختلق هذه القصة ليكتسب نصرة زياد وقد تمّ له ما اراد . فسمي زياد من حينئذ «زياد بن ابي سفيان» بعد ان كان يعرف بزياد بن ابيه او ابن سمية [1] وما زال آل زياد معدودين من قريش حتى ردّهم المهدي سنة ١٦٠ هـ الى نسب عبيد المذكور وصاروا من موالي ثقيف [2] ومثل هؤلاء آل ابي بكرة فقد كانوا من موالي النبي والحقوا بثقيف فردهم المهدي الى اصلهم

وكانوا يسمون المستلحق «دعياً» وقد يكون الرجل دعيّ ادعياء فيكون هو دعياً في رهط ورهطه دعيٌّ في قبيلة مثل ابن هرمة فقد كان دعياً في الخلج والخلج ادعياء في قريش وكثيراً ما كانوا يستلحقون الرهط او العشيرة دفعة واحدة لنزولهم فيهم او لنصرتهم اياهم كما اصاب بني العم من اهل البصرة فانهم نزلوا ببني تميم في ايام عمر بن الخطاب فاسلموا وغزوا مع المسلمين فقالوا لهم «انتم وان لم تكونوا من العرب اخواننا واهلنا وانتم الانصار وبنو العم» فلقبوا بذلك وصاروا من جملة العرب [3]

وكانوا يعدّون الدعي من انفسهم ويورثونه كما يورثون الابن الصريح [4] ويرثونه وكثيراً ما كان العرب يرغبون في استلحاق مواليهم رغبة منهم في ان يرثوهم وقد يأبى المولى ان يلحقوه اذا عرف غرضهم كما اصاب نصيباً المغني المشهور اذ اراد مواليه ان يلحقوه بنسبهم فأبى وقال لهم «والله لأن اكون مولى لائقاً احب اليّ من ان اكون دعياً لاحقاً وقد علمت انكم تريدون مالي» [5]

ومن اسباب العصبية عندهم مما يشبه الحلف «المؤاخاة» وقد تكون بين القبائل او بين الافراد ولا تزال هذه العادة شائعة بين البدو الى الآن فاذا آخيت العربي اخذ بناصرك وحماك ودافع عنك كأنك اخوه

الخلع

وضد الاستلحاق عندهم «الخلع» فكان الرجل اذا ساءه امر من ابنه سواء كان صريحاً او دعياً خلعه اي نفاه عن نفسه فيتخلص من تبعة ما قد يرتكبه الولد من المكروه

---

(١) ابن الاثير ٢٢٥ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٢٠ ج ٦

(٣) الاغاني ٧٦ ج ٣ (٤) الاغاني ٩٤ ج ١٧ (٥) الاغاني ١٣٤ ج ١

وقد تفعل ذلك القبيلة او العشيرة فيذهب جماعة منها الى سوق عكاظ ومعهم المراد خلعه ويشهدون على انفسهم انهم خلعوه ويبعثون منادياً بذلك فلا تحتمل القبيلة جريرة لهُ ولا تطالب بجريرة يجرها احد عليه . كما فعلت خزاعة بقيس بن الحدادية الشاعر الجاهلي[1] وقد يكتبون بالخلع كتاباً

ومن اشهر حوادث الخلع قبل الاسلام خلع عمرو بن العاص من عشيرته وكان قد ذهب الى الحبشة بتجارة في الجاهلية مع عمارة بن الوليد المخزومي واختصما في الطريق فأساء عمارة الى عمرو فاضمر له الشر وعمرو من بني سهم فكتب الى ابيه ان يخلعهُ ويتبرأ من جريرته اذا اذى عمارة ففعل فخلعت كل من العشيرتين صاحبها وأرسلوا بذلك منادياً الى مكة[2]

وكان الخلعاء في البادية كثيرين يجتمعون ويؤلفون عصابات من الصعاليك يقطعون السبل ويتمردون على القبيلة . فلما جاء الاسلام اصبح تمردهم على الحكومة . فقد كان يعلي الاحول من شعراء الدولة الاموية خليعاً يجمع صعاليك الازد وخلعاءها فيغير بهم على احياء العرب ويقطع الطريق على السابلة . وكان في تجار الرقيق من يبتاع الخلعاء ويذهب بهم الى بلاد الروم

العبيد في الجاهلية

الاسترقاق

الاسترقاق قديم مثل قدم الانسان لان الانسان مفطور على الاستبداد والقوي يستعبد الضعيف . وكان الانسان في اول عهد العمران اذا غلب عدوّه وقبض عليه لا يستعبده بل يقتله الاَّ النساء فقد كانوا يستبقونهن للاستمتاع بهن . ثم صاروا يستعبدون الاسرى ويستخدمونهم في حرث الارض ورعاية الماشية او نحو ذلك من الصنائع او يبيعونهم بيع المتاع . ذلك كان شأنهم في عهد التمدن القديم في مصر واشور وبابل . وكان للاسترقاق سوق رائجة في الدولة الرومانية فكانوا يأتون بالاسرى بالمئات والالوف ويبيعونهم بيع الاغنام ويعاملونهم معاملة الحيوانات . ولما انتظم حال تلك الدولة صاروا يتزوجون بالجواري وبعد ان كان الروماني يتصرف بعبده كما يشاء من قتل او جلد

(١) الاغاني ٢ ج ١٣ (٢) الاغاني ٥٢ ج ٨

اصبح قصاصه منوطاً برأي القضاة واذا بالغ السيد في ظلم عبده حكم القضاة عليه

على ان العبيد ما زالوا كثاراً في المملكة الرومانية لا يخلو منهم بيت واكثرهم من الاسرى اوابنائهم يستخدمونهم في المنازل ويعلمونهم الصنائع على اختلاف ضروبها ويبيعونهم في اسواق خاصة بالرقيق • ويختلف ثمن العبد عندهم من عشرين ريالاً رومانياً الى اربعة آلاف ريال ويقال نحو ذلك في سائر الممالك القديمة • فالفرس مثلاً كانوا يستعبدون الاتراك في الحرب ويتهادونهم وقد يتهادون ابناء الامراء منهم • ومما ذكره التاريخ من ذلك ان ابرويز ملك الفرس اهدى الى موريقس ملك الروم مئة غلام من ابناء اراكنة الترك في نهاية الحسن والجمال في اذانهم اقراط الذهب فيها الدر واللؤلؤ في جملة هدايا أخرى • فاهداه ملك الروم هدية فاخرة في جملتها عشرون جارية من بنات ملوك برجان والجلالقة والصقالبة والوشكنس من الاجناس المجاورة لبلاده على رؤوسهن أكاليل الجوهر [١]

العبيد عند العرب

والعرب ايضاً كانوا يستخدمون العبيد من أسرى الحرب او ممن يبتاعونهم من الامم المجاورة لجزيرتهم كالحبشة وما حوالها من الامم المتوحشة • فكان النخاسون يحملون العبيد والاماء من تلك البلاد وغيرها الى جزيرة العرب يبيعونهم في اسواقها بالمواسم وكانت قريش تتجر بالرقيق مثل اتجارها بسائر السلع • ومن اشهر النخاسين في الجاهلية عبد الله بن جدعان التيمي رئيس قريش في حرب الفجار[٢] فاذا اشترى احدهم عبداً وضع في عنقه حبلاً وقاده الى منزله [٣] كما تقاد الدابة • واذا كان العبد اسير حرب جزَّوا ناصيته وجعلوها في كنانتهم حتى يفتدي نفسه • وكانوا يبتاعون الارقاء ويتهادونهم ويتوارثونهم مثل سائر الامتعة الاّ اذا دبر المولى عبده اي قال له « انت حرٌّ بعد موتي » فانه يكون حرًّا • وقد يخرجون العبيد في جملة صداق العرائس وممن أخرج في الصداق بشار بن برد الشاعر الاسلامي الشهير فانهُ كان هو وأمه لرجل من الازد تزوج امرأة من بني عقيل فساق اليها بشاراً وأمه في صداقها [٤]

فيدلُّ ذلك على كثرتهم ولاسيما عند الامراء والملوك حتى يزيدون على المئات والالوف • فقد وفد ذو الكلاع ملك حمير على ابي بكر ومعه الف عبد دون من كان معهُ من عشيرته [٥]

(١) المسعودي ١١٩ ج ١ (٢) المسعودي ٢٨٢ ج ١
(٣) المعارف لابن قتيبة ١١٢ (٤) الاغاني ٢٠ ج ٣ (٥) المسعودي ٢٨٧ ج ١

ولم يكن شريف من اشراف العرب يخلو منزله من عبيد يستعملهم في حاجيات منزله فعبد الله بن ابي ربيعة كان لهُ عبيدٌ من الحبشة يتصرفون في جميع المهن وكان عددهم كثيرًا وفيهم من يخرج للحرب وقلما كانوا يثقون بامانتهم [١] على انهم كانوا يستعينون بهم في القتال وكان لذلك شأن بعد الاسلام . وكانوا يجعلون الحد على العبد نصف ما على الحر [٢] واذا شهد حربًا لا يضرب له بسهم [٣] بل يكون سهمه لسيده

وكان من اصناف العبيد عندهم «القن» وهو العبد الذي يعدل بالارض ويباع معها ويشبه Serf في المملكة الرومانية . ومن العبيد من يدخل الرق بالمقامرة كما اتفق لابي لهب مع العاصي بن هشام فانهما تقامرا على ان من قُمر كان عبدًا لصاحبه فقمره ابو لهب فاسترقَّه واسترعاه ابله [٤] وكانوا يسترقون المديونين ايضاً

وكانت العرب تتزوج الاماء فاذا ولد لهم منهن اولاد استعبدوهم فاذا انجب احدهم الحقوه بانسابهم واعترفوا به والاَّ بقي عبدًا . واشهر حوادث الاستلحاق على هذه الصورة الحاق عنترة العبسي بابيه شداد وهو ابن جاريته زبيبة وكان شداد نفاه فلما انجب الحقه بنسبه [٥] وقصته مشهورة . وكان العرب قبل الاسلام لا يعتقون عبيدهم الاَّ لسبب هام . واذا احبَّ العبد العتق استباع اي طلب البيع فاذا رضي صاحبه باعهُ لسواه . اما بعد الاسلام فكثر الاعتاق لحكمة سياسية دينية سيأتي ذكرها

الموالي في الجاهلية

المولى عند العرب وسط بين العبد والحر والغالب فيه ان يكون عبدًا معتقاً فكل عبد اعتق صار مولى وهو يشبه ما كان في الدولة الرومانية من العبيد المحررين ويسمونهم Libertines وكل عبد او اسير اعتقه صاحبه فهو مولى له وينسب اليه او الى قبيلته او رهطه . فمولى العباس مثلاً هو مولى بني هاشم وهو ايضاً مولى قريش ومولى مضر . وقد ينسب المولى الى بلد معتقه فيقال فلان مولى اهل المدينة او مولى اهل مكة . والمولى عندهم كالقريب ولكنهم يسمون قرابة الاهل صريحة وقرابة المولى غير صريحة . ويطلق المولى

---

(١) الاغاني ٣٢ ج ١ (٢) الاغاني ١٢٤ ج ١٤ (٣) المعارف لابن قتيبة ١١٠
(٤) الاغاني ١٠٠ ج ٣ (٥) الاغاني ١٤٨ ج ٧

على الصاحب والقريب وابن العم والجار والحليف والابن والعم والنزيل والمحب والتابع والصهر وغير ذلك واكثرها يطلق على المولى بسبيل المجاز . واما عند التحقيق فالموالي ثلاثة انواع : مولى عتاقة ومولى عقد ومولى رحم

مولى العتاقة

فمولى العتاقة هو الذي كان اسيرًا أو عبدًا واعتق وكانوا يعتقون الاسير مكافأةً على احسان فيشترط الرجل على عبده مثلاً اذا فعل كذا وكذا فهو حرٌ ويكون مولى لمعتقه وكان لذلك تأثير كبير في صدر الاسلام لان المسلمين كثيرًا ما كانوا يستعينون بالعبيد على اسيادهم بطريق الاعتاق — من أمثلة ذلك ان المسلمين لما حاصروا الطائف في السنة الثامنة للهجرة وكادت تمتنع عليهم امر النبي منادياً فنادى « ايما عبد نزل فهو حرٌ وولاءهُ لله ورسوله » فنزل جماعة كبيرة [1] وقد يكون الاعتاق لسبب آخر

واذا كان العبد من أسرى الحرب وأرادوا اعتاقه جزوا ناصيته وخلوا سبيله فيصير مولى لمالك تلك الناصية ومن قول حسان بن ثابت شاعر النبي بعد واقعة أحد جواباً على قول هبيرة بن ابي وهب :

الا اعتبرتم بخيل الله اذا قتلت اهل القليب ومن القينهُ فيها
كم من اسير فككناه بلا ثمنٍ وجزّ ناصية كنا مواليها [2]

(المكاتبة) وقد يقع العتاق باتفاق بين العبد وصاحبه بالبيع وهو ما يعبرون عنه بالمكاتبة وذلك ان يكتب العبد على نفسه صكاً بثمن اذا سعى وأداه عتق وقد يجعل الدفع انجماً « تقسيطاً » فابو سعيد المقري احد كبار التابعين كان عبداً لرجل من جندع وكاتبه على اربعين الفاً وشاه لكل اضحى فاداها [3]

قلنا ان من اعتق عبداً كان ولاؤه لهُ ومعنى ذلك انه يكون هو صاحب ولائه فينسب اليه واذا مات كان هو وارثه . على انهم كانوا يشترطون احياناً ان لا يكون ولاؤه لمعتقه بل يكون لمن يؤدي ثمن المكاتبة . وقد تكون العتاقة « سائبة » وهي ان يعتق العبد ولا ولاء لهُ . فكان الرجل اذا قال لعبده « انت سائبة » يعتق ولا يكون ولاؤه لمعتقه ويضع مالهُ حيث ساء . ومن اشهر المعتقين سائبة سالم مولى ابي حذيفة بن عتبة وأصلهُ من اصطخر وكان مملوكاً لبثينة امرأة ابي حذيفة فاعتقته سائبة [4]

---

(١) العقد الفريد ٢ ج ٣ (٢) ابن هشام ١٠٥ ج ٢

(٣) المعارف لابن قتيبة ١٥٤ (٤) المعارف ٩٢

على ان الاسلام نهى عن ان يكون الولاء لغير المعتق فبريرة بنت سعود الثقفية دخلت على عائشة ام المؤمنين تستعينها في كتابتها وعليها خمس اواق نجمت عليها في خمس سنين فقالت لها عائشة « أرأيت ان عددت لهم عدة واحدة ايبيعك أهلك فاعتقك فيكون ولاؤك لي » فذهبت بريرة الى اهلها فعرضت ذلك عليهم فقالوا « لا الاَّ ان يكون لنا الولاء » قالت عائشة « فدخلتُ على رسول الله (صلعم) فذكرت ذلك لهُ فقال اشتريها فاعتقيها فانما الولاء لمن اعتق »[1] الاَّ ان يشتري احد ذلك الولاء من صاحبه فيصير الولاء الى المشتري كما أصاب ابا معشر احد اصحاب الحديث فقد كان مكاتباً لامرأة من بني مخزوم فأدى وعتق ثم اشترت ام موسى بنت منصور الحميرية ولاءه[2]

ومن أسباب العتاقة عندهم التدبير وذلك ان يقول الرجل لعبده انت حرٌّ بعد موتي فلا يرثه اهلهُ

مولى العقد

ويقال له ايضاً مولى حلف او اصطناع وذلك ان ينتمي الرجل الى رجل بالخدمة على اختلاف ضروبها او بالمحالفة او المخالطة او الملازمة على ان يتعاقب ذلك اجيالاً . ومن امثلة الموالي بالمحالفة او المخالطة اليهود في يثرب (المدينة) فقد جاءَ الاسلام وهم يعدون من موالي الاوس والخزرج فولاؤهم من قبيل الحلف . ولولاء اليهود في يثرب تاريخ يطول شرحه خلاصته ان اليهود نزلوا فيها قبل الميلاد ببضعة قرون وتوطنوها قبل ان ينتقل اليها الاوس والخزرج من عرب اليمن . فلما جاؤوا اليها رأوا اليهود مستأثرين بالارض والماشية فاقاموا في ضيق حتى اتفق ان امرأً منهم اسمه مالك بن عجلان استشار ملك غسان بالشام في شأنهم وكانه استعانه عليهم فاتفقا على الكيد بهم . فجاءَ المدينة وفعل ذلك فذلَّ اليهود وخافوا وأصبحوا اذا داهمهم أحدٌ من الاوس او الخزرج بشيءٍ يكرهونه لا يمشون بعضهم الى بعض كما كانوا يفعلون من قبل بل يذهب كل منهم الى جيرانه الذين هو بين اظهرهم فيستجير بهم فلجأ كل قوم من اليهود الى بطن من الاوس او الخزرج يتعززون بهم[3] ويحالفونهم على انهم مواليهم وفيهم من ينسب ولاؤهُ الى رهط خاص كموالي بني النجار اخوال النبي أو موالي غيرهم من عرب المدينة

ومن هذا القبيل اكثر موالي العرب بعد الاسلام فقد كان العرب اهل السيادة والشوكة واهل البلاد يلازمونهم بالخدمة او المخالطة او المعاشرة فينسبون اليهم ويسمون ذلك ولاء

(١) البخاري ٦٠ ج ٢ (٢) المعارف ١٧٢ (٣) الاغاني ٩٧ ج ١٩

الموالاة وهي ان يقول شخص لآخر « انت مولاي ترثني اذا متُّ وتعقل عني اذا حييت » وقال الآخر « قبلت » ولكل طبقة من العرب طبقة من الموالي فقد كان البرامكة مثلاً من موالي الرشيد ومن هم دونهم من العجم موالي الامراء وهكذا

وكان المولى في الجاهلية ربما كان نصرانياً او يهودياً او مجوسياً لا فرق في ذلك عندهم فموالي النبي كان احدهم حبشي الاصل والآخر يوناني والآخر قبطي والآخر فارسي [1] وعدس مولى عتبة ابن ابي ربيعة كان من اهالي نينوي وقتل يوم بدر على النصرانية [2] اما بعد ظهور الاسلام فاصبح الولاء خاصاً بالمسلمين لان القرآن نهى عن تولي اليهود والنصارى بالآية « يا ايها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى اولياء » الخ . وصاروا يعدُّون بعد الاسلام من اهل الذمة

مولى الرحم

واما مولى الرحم فيكتسب الولاء بالزواج من موالي بعض القبائل فينسب الى القبيلة التي تزوج من مواليها ومن امثلة ذلك سديف الشاعر فقد كان مولى خزاعة ثم ادعى ولاء بني هاشم لانه تزوج مولاة لآل ابي لهب (من بني هاشم) [3]

وللموالي عند العرب احكام عامة واحكام خاصة فاحكامهم العامة ان المولى احط منزلة من الحر وارفع من العبد فهو حرٌّ لا يباع كالعبد لكنه لا يعامل معاملة الحر في الزواج والميراث . فالمولى لا يتزوج حرة ودية المولى نصف دية الحر [4] كانه عبد . ويعامل نحو ذلك في ما يقع عليه من القصاص فيجلد نصف حدّ الحر

واما احكامهم الخاصة فتختلف باختلاف نوع الولاء واهمها الارث فمولى العتاقة يورث ولا يرث ومولى العقد لا يرث ولا يورث ومولى الرحم يرث و يورث [5] فمن اعتق عبداً كان الولاء له وهو يرثه ولذلك يسمونهُ مولى النعمة . وكان الرومانيون يرثون ثلث ما يملكهُ مواليهم او يكتسبونه بالعمل او غيره واذا لم يكن لهم من يرثهم من نسلهم ورثوا كل اموالهم [6]

وكان للموالي شأن في عصبية العرب قبل الاسلام وقد عظم شأنهم في الاسلام حتى كانوا سبباً في قلب الممالك ونقل السلطة من دولة الى دولة

---

(١) ابن الاثير ١٥١ ج ٢ (٢) المسعودي ٣١ ج ١

(٣) الاغاني ١٦٢ ج ١٤ (٤) الاغاني ١٧٦ ج ٢

(٥) العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢ (٦) Gibbon's Roman Empire II, 197

النزالة الاجانب في الجاهلية

كان معظم سكان جزيرة العرب من القبائل العدنانية والقحطانية ومن يتبعهم من العبيد والموالي والحلفاء ونحوهم وفيها ايضاً جماعة من النزالة نزحوا اليها من الحبشة والشام والعراق ومصر وفارس والهند وفيهم الاحباش واليهود والروم والكلدان والعجم والهنود وغيرهم . وكان بعضهم يتوالدون فيها و يتزوَّجون باهلها فيختلطون بهم وتضيع انسابهم فيهم كالكلدان والسريان وغيرهم . وفيهم من يخالفونهم وينتمون اليهم كاليهود والنصارى ومنهم من يدخلون في جملة عبيدهم ومواليهم كالاحباش والفرس والهنود فتضيع اصولهم . ولذلك كان سكان جزيرة العرب عند ظهور الاسلام عرباً صرفاً الاَّ بعض اليهود كبني قينقاع والنضير وغيرهم وشرذمات من نصارى الروم وطائفة من الفرس الاحرار يعرفون بالابناء

الابناء

هم طائفة من الفرس كانوا يقيمون في بلاد اليمن ويعرفون بابناء الفرس الاحرار أو « الابناء » تمييزًا لهم عن الفرس الموالي . وابناء الفرس الاحرار هم ابناء الجند الفارسي الذي جاء بلاد اليمن لنصرة سيف بن ذي يزن الحميري على الاحباش وكان الاحباش قد فتحوا اليمن واستولوا عليها ففزع سيف المذكور الى كسرى ملك الفرس واستنجده في حديث طويل فسيَّر كسرى معهُ بضعة آلاف من جند الفرس ومعهم قائد اسمهُ وهرز . فلما وصل الجيش الى اليمن جرت الواقعة بينهم وبين الاحباش فاستظهر الفرس عليهم واخرجوهم من البلاد وملك سيف بن ذي يزن ووهرز اربع سنين . وكان سيف قد اتخذ من الاحباش خدماً فخلوا به يوماً وهو في الصيد وقتلوه وهربوا في رؤوس الجبال وطلبهم اصحابه فقتلوهم جميعاً وتضعضع امر اليمن ولم يولوا عليهم احداً من العرب فظلت سيادة الفرس عليها حتى ظهر الاسلام وفيها عاملان من قواد الفرس احدهما اسمهُ فيروز الديلمي والآخر راذويه فأسلما

فالجيش الفارسي لما استوطنوا اليمن تزوَّجوا فيها وتناسلوا ورزقوا الاولاد والاحفاد وعرفوا بالابناء . واشتهر منهم في صدر الاسلام طاوس بن كيسان احد اعلام التابعين ووهب بن منبه صاحب الاخبار والقصص ووضاح اليمن الشاعر وغيرهم

وكان مثل هؤلاء الفرس ايضاً في الشام والعراق والجزيرة واختلفت اسماؤهم باختلاف اما كنهم بعد الاسلام فهم يسمون في اليمن الابناء كما رأيت وفي صنعاء خاصة يسمون بني

الاحرار وفي الكوفة الاحامرة و بالبصرة الاساورة و بالجزيرة الحضارمة و بالشام الجراجمة[1] وكان للابناء شأن عند ظهور الاسلام فتجندوا للمسلمين ونصروهم وظلوا مميزين عن سائر المسلمين غير العرب بانهم غير الموالي

سياسة الدولة في الجاهلية

لم يكن للعرب دولة في جاهليتهم الاّ ما كان في اليمن من دول التبابعة مما لا يدخل في بحثنا . وانما نريد بسياسة الدولة عندهم القواعد التي كانت تدور عليها احكامهم ومعاملاتهم لحفظ علائقهم السياسية وآدابهم الاجتماعية ممـا يقوم مقام القوانين الادارية والسياسة الدولية في الامم المتمدنة

فالرئاسة عندهم أو الامارة انما ينالها اهل العصبية والجاه واذا تساوت العصبية في جماعة قدّموا اكبرهم سنًّا ولذلك كان لفظ «الشيخ» عندهم يدلّ على الشيخوخة والرئاسة معاً واذا اشكل عليهم الانتخاب لاي سبب عمدوا الى الاقتراع . وكذلك اذا اجتمعت عدة قبائل في محالفة على حرب واحتاجوا الى من يرأسهم جميعاً فانهم يقترعون بين اهل الرئاسة فمن خرجت عليه القرعة رأسوه — ذلك هو شأن بدو العرب وهم معظمهم . واما حضرهم في مكة فالرئاسة فيهم لسادن الكعبة وقد تقدم ذكر مصالح الحكومة عندهم في الجزء الاول من هذا الكتاب

وكان في كل قبيلة بالجاهلية بيوتات تشتهر بالرئاسة والشرف فتمتاز عن سائر القبيلة وتكون الرئاسة فيها كبيت هاشم بن عبد مناف من قبيلة قريش وبيت آل حذيفة بن بدر الفزاري من قيس وبيت آل زرارة بن عدي من تميم وبيت آل ذي الجدين بن عبدالله ابن همام من شيبان وبيت بني الريان من بني الحرث بن كعب من اليمن . وقد امتازت هذه البيوتات على قبائلها بالشرف لتوالي ثلاثة آباء منها في الرئاسة على الاقل . ولاهل البيوتات نفوذ على سائر القبيلة . وكان اهل السياسة من رجال المسلمين يلاحظون ذلك في تولية الحكام . ومن هذا القبيل وصية ابن عباس للحسن بن علي «ولِّ اهل البيوتات تستصلح بهم عشائرهم»

والامير البدوي مع سلطته المطلقة قلّما يستبدّ في احكامه و يغلب ان يستشير اهل

(١) الاغاني ٧٦ ج ١٦

بطانته وخاصته على انهُ لم يكن يحتجب عن احد ولا يمتهن احداً . يجالس الناس ويخالطهم رفيعهم ووضيعهم . وهم لا يعرفون ألقاب التفخيم ولا نعوت التمليق فاذا خاطب البدوي اميرهُ ناداه باسمه وطالبه بحقه بعبارات تشف عن عزة النفس وإباء الضيم أو هي انفة البداوة . على انهم كانوا يتكلمون على الاسنان والامير يخاطب رعاياه بألقاب الوقار كالأب والعم والخال والابن أو ابن الاخ على ما تقتضيه الاسنان والانساب . وظلَّ ذلك شأنهم في صدر الاسلام ينادون الخليفة باسمه ويحاجونه في شؤونه حتى اذا تحضروا احتجبوا وتكبروا فاتسع الفاصل بين المحكوم والحاكم

مناقب العرب في الجاهلية

الوفاء

على ان العرب قلما كانوا يحتاجون الى حاكم يفصل في الخصومة بينهم لما فطروا عليه من المناقب الجميلة التي تقوم فيهم مقام الحاكم الصارم وتنزههم عن ارتكاب الدنايا مما يغنيهم عن القضاء . وسيد هذه المناقب « الوفاء » لانه اذا تأصل في امة اغناها عن القضاء — والحكومة انما تقضي بين الذين لايعرفون الوفاء . وكان الوفاء متمكناً في خلق العربي و يزيد تمكناً فيه كلما بعد عن المدن واوغل في الصحراء لان الغدر والنكث لايعيشان الا في القصور الشماء بظل الحدائق الغناء

وترى الوفاء مطبوعاً في اقوال اهل البادية واشعارهم وامثالهم يتجلى في عاداتهم واخلاقهم وفي سائر اعمالهم وهو فيهم سجية وفي سواهم صناعة وتكلف . وحكاية حنظلة الطائي والنعمان بن المنذر تمثل هذه الخلة احسن تمثيل فان حنظلة وعد النعمان بالرجوع بعد عام لاستقبال الموت فطلب النعمان من يضمنه فضمنه شريك بن عدي ولم يقدم شريك على ذلك الا وهو يعتقد صدق البدو لاشتهارهم به . وقد وفى حنظلة فجاء في الوقت المعين لاجند يقوده ولا ضابطة تخفرهُ مما حمل النعمان على العفو عنه وقصته مشهورة [1]

واغرب من ذلك وفاء السموأل (صموئيل) بن عادياء وكان امرؤ القيس الكندي قد استودعه سلاحاً وامتعة تساوي مالاً كثيراً وسافر الى بلاد الروم ومات قبل رجوعه فبعث ملك كندة يطلب الاسلحة والامتعة المودعة عند السموأل فلم يسلمها . ولما الح عليه

(١) المستطرف ١٦١ ج ١

اجابه « لا اغدر بذمتي ولا اخون امانتي ولا اترك الوفاء الواجب عليّ » فجرد الملك عليه جيشاً وحاصره في حصنه فوقع ابن السموأل اسيرًا عند الملك فهدّد السموأل بقتل ابنه ان لم يسلم الوديعة فأبى التسليم وقال « ما كنت لاخفر ذمامي وابطل وفائي فافعل ما شئت » فذبح ولده والسموأل ينظر. فلما امتنع الحصن على ملك كندة عاد خائباً واما السموأل فصبر على ما تحمله من الثكل محافظة على الوفاء ولم يسلم الوديعة الا الى ورثة امرئ القيس

فمن كانت هذه مناقبهم قلّت حاجتهم الى القوانين واستغنوا عن الجند والضابطة وخصوصاً اذا اضفنا اليها علو الهمة وطيب النفس وقلة احتمال الذل والسماحة والكرم والنزاهة عن الدنيئة فهذه كلها من مناقب العرب اهل البادية

الجوار

ومن قبيل الوفاء بالعهد وحفظ الذمام ايضاً « الجوار » فان البدوي يحافظ على جاره محافظته على نفسه. والمقصود بالجوار في الاصل ان يحافظ الرجل على جاره القريب وهو من قبيل التعاون الطبيعي حتى قيل « جارك القريب ولا اخوك البعيد » ولكن العرب توسعوا في ذلك حتى شقوا منه الاجارة والاستجارة والجوار وكلها بمعنى الحماية والحفظ مع ان اصل المادة « جارَ » يفيد ضد ذلك. واستعاروا الجوار للحماية على الاطلاق فاذا خاف احدهم سوءًا جاء الى رجل يحميه ويكفي ان يقول له « اجرني » فيجيره بقدر طاقته وقد يفرط باهله ولا يفرط بجاره

ومن امثلة ذلك ان الاعشى امتدح الاسود العنسي فاعطاه جائزة من الحلل والعنبر فرجع وطريقه على بني عامر فخافهم على ما معه من المال فاتى علقمة بن علاثة فقال له « اجرني » فقال « قد اجرتك » قال « من الجن والانس » قال « نعم » قال « ومن الموت » قال « لا » فتركه واتى عامر بن الطفيل فقال له « اجرني » قال « قد اجرتك » قال « من الانس والجن » قال « نعم » قال « ومن الموت » قال « نعم » قال « وكيف تجيرني من الموت » قال « اذا متّ وانت جاري بعثت الى اهلك الدية » فقال « الآن علمت انك تجيرني » (١)

وقد يجيء بعضهم ليستجير برجل فلا يجده في بيته فيكفي ان يعقد طرف ثوبه الى جانب طنب البيت فاذا فعل ذلك صار جارًا ووجب على المعقود بطنب بيته للمستجير به ان يجيره وان يطلب له بظلامته (٢)

ومن قبيل تعظيم الجوار والمحافظة عليه ان عامر بن الطفيل لما مات نصبت بنو عامر

---

(١) الاغاني ٨٣ ج ٨ (٢) الاغاني ١٨٤ ج ٢

انصاباً ميلاً في ميل على قبره لا ينشر فيه ماشية ولا يرعى ولا يسلكه راكب ولا ماش اشارة الى ما كان عليه من المحافظة على الجوار في حياته (١)

وما زال الجوار مرعياً عند العرب بعد الاسلام الا من خالط الامم الاخرى في البلاد المفتوحة . على ان تايد الدولة اقتضى ضعف الجوار لان اهل الوجاهة اصبحوا من اهل الدولة والرجل يومئذ انما يستجير من حاكم يطلبه فاذا استجار به مظلوم قالوا « انما يجير الرجل على عشيرته واما على سلطانه فلا » خوفاً على مناصبهم كما اصاب ابن مفرغ لما هجا بني زياد واستجار بالاحنف بن قيس على عبيد الله بن زياد وهو يومئذ امير البصرة فابى الاحنف خوف العزل وقال له « اذا شئت ان اجيرك من بني سعد فعلت » فذهب الى غيره من وجهاء العرب فابوا اجارته لنفس هذا السبب (٢)

الاريحية

ومن المناقب التي تغني العرب عن الوازع القهري او القوة الحاكمة « الاريحية » وهي من مقتضيات العصور الجاهلية البدوية او ما يجري مجراها من احوال الفروسية التي يعبر عنها الافرنج بقولهم Chevalerie ومرجع ذلك الى التفاخر بالشجاعة والكرم وحسن الاحدوثة . وكان للاريحية شأن عظيم عند العرب لدقة شعورهم وسرعة تأثرهم لانهم اهل خيال وذوو نفوس حساسة يقيمهم البيت من الشعر ويقعدهم وقد يسمعون الكلمة فتطير لها نفوسهم وربما بذل العربي حياتهُ في سبيل كلمة يقولها او فراراً من كلمة يسمعها ولذلك كثرت عندهم ضروب المفاخرة والمباهلة في المواسم والاندية مما يرغب في الفضائل ويغني عن زجر الحكام

ومناقب العرب كثيرة كالكرم والضيافة وعلو الهمة مما لا دخل له في موضوعنا



(١) الاغاني ١٣٩ ج ١٥ (٢) الاغاني ٥٦ ج ١٧

سياسة الدولة في عصر الراشدين

من سنة ١١ — ٤١ ه

الجامعة الاسلامية

قد رأيت ان العرب انما كانوا يتفاضلون بالعصبية ويتفاخرون بالانساب فلما جاء الاسلام كان في جملة ما بدّله من احوالهم انه جمع كلمتهم وصاروا يداً واحدة على اختلاف انسابهم ومواطنهم . وبعد ان كان اليمني يفاخر الحجازي والمضري يفاخر الحميري ونحو ذلك من مفاخرات القبائل والبطون والافخاذ جاء الاسلام فجمعهم تحت راية واحدة باسم واحد هو « الاسلام » فقال النبي « المسلمون اخوة » وقال من خطبة القاها يوم فتح مكة « يا معشر قريش ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وادم من تراب »[1] وقال من خطبة في حجة الوداع « ايها الناس ان ربكم واحد وان اباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب واكرمكم عند الله اتقاكم ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى »[2]

واقتدى بالنبي خلفاؤه الاولون لاسيا عمر بن الخطاب فان جبلة بن الايهم ملك غسان بعد ان اسلم اتفق وهو يطوف في الكعبة ان فزارياً وطيء ازاره فانحل فرفع جبلة يده وهشم الفزاري فشكاه الى عمر فاراد عمر ان يهشم انف جبلة فقال « وكيف ذلك يا امير المؤمنين وهو سوقة وانا ملك » فاجابه عمر « ان الاسلام جمعك واياه فلست تفضله بشيء الاّ بالتقى والعافية » فلم يحتمل جبلة ذلك فعمد الى الفرار[3]

فيؤخذ من ذلك ان الجامعة الكبرى انما هي الاسلام ولكنهم كانوا يجعلون للعرب مزية على سواهم من الامم لانهم قوام الاسلام . وأوصى عمر بن الخطاب باهل البادية خيراً لانهم أصل العرب ومادة الاسلام[4] وقال « اياكم واخلاق العجم » والاسلام نهضة عربية جمعت العرب على العجم . وعمر اول خليفة فضل العرب وجعل لهم مزية على سواهم ومنع من سبيهم ومن اقواله « قبيح بالعرب ان يملك بعضهم بعضاً وقد وسع الله عزوجل وفتح الاعاجم » وفدى سبايا العرب من الجاهلية والاسلام الى ايامه[5] عملاً بالحديث

---

(١) ابن هشام ٢١٩ ج ٢ (٢) البيان والتبيين للجاحظ ١٦٤ ج ١

(٣) الاغاني ٤ ج ١٤ (٤) ابن الاثير ٢٥ ج ٣ (٥) ابن الاثير ١٨٦ ج ٢

« لا سبأ في الاسلام »

وكان عمر لا يدع احداً من العجم يدخل المدينة [١] وهو الذي قسم خيبر بين المسلمين واخرج اليهود منها وقسم وادي القرى واجلى يهود نجران الى الكوفة [٢] لتخلو جزيرة العرب من غير العرب . وكان كثير العناية بالجامعة العربية يوصي العرب بحفظ انسابهم لئلا تضيع عصبيتهم ومن وصاياه « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل احدكم عن اصله قال من قرية كذا » [٣]

الجامعة العربية

ثم ان عمر مع حرصه على الجامعة العربية واختصاص جزيرة العرب بها قد حرض العرب المسلمين على سكنى العراق والشام فقال « ليست الحجاز لكم بدار الا على النجعة ... سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب ان يورثكموها » [٤] لعلمه ان في العراق والشام عرباً يتحدون معهم وينصرونهم . وكان عرب العراق ناقمين على الفرس من ايام دولتهم لما كانوا يسومونهم اياه من الاضطهاد . وكانت ديانة عرب العراق والشام النصرانية ولكنهم فرحوا بالمسلمين وكانوا ينصرونهم للعصبية العربية وليس للدين . وخصوصاً عرب العراق فانهم حاربوا مع المسلمين ودلوهم على عورات الفرس — فابو زبيد الطائي حارب مع المسلمين في واقعة الجسر حتى قتل وهو نصراني وانما حارب حمية للعرب . وجاء المسلمين يوم واقعة البويب انس بن هلال النمري في جمع عظيم من النمر وهم نصارى وقالوا « نقاتل مع قومنا » [٥] وكذلك فعل جماعة من تغلب وغيرهم حمية للجامعة العربية بقطع النظر عن الدين

وكثيراً ما كان عرب الشام والعراق عوناً للمسلمين في حروبهم يرشدونهم وينصحونهم ويحملون اليهم اخبار اعدائهم . فلما خرج الوليد ابن عقبة غازياً للروم لقيه الروم فقاتلوه فجاءه رجل من العرب نصراني وقال له « اني لست من دينكم ولكنني انصحكم للنسب فالقوم مقاتلوكم الى نصف النهار فان رأوكم ضعفاء افنوكم وان صبرتم هربوا وتركوكم » [٦] وقد نفعته هذه النصيحة

ولم يكن عمر يجهل تلك الرابطة فحرض المسلمين على فتح الشام والعراق . ولما رأى ما كان من نصرة عرب العراق لهم عرف فضلهم فلما هم المسلمون بوضع الجزية على اهل الذمة وفي

---

(١) المسعودي ٢٩ ج ١ (٢) ابن الاثير ٢٨٠ ج ٢ (٣) ابن خلدون ١٠٩ ج ١
(٤) ابن خلدون ١٢٢ ج ١ (٥) ابن الاثير ٣١٥ ج ٢ (٦) الاغاني ١٨٧ ج ٤

جملتهم عرب تغلب واياد والنمر وهم نصاري أبي هؤلاء الجزية وبلغ عمر ذلك فاستشار اصحابه فقال له بعضهم « انهم عرب يأنفون من الجزية وهم قوم لهم نكاية فلا تعن عدوك عليك » فوافق ذلك ما في نفسه ففرض عليهم الصدقة كما تفرض على المسلمين ولكنه شرط عليهم ان لا ينصروا اولادهم [1]

كل ذلك محافظة على الجامعة العربية وكان يعدُّ ذلك حقاً واجباً . فلما سار الوليد بن عقبة لفتح العراق والجزيرة انضمت اليه عربها النصارى الا قبيلة اياد فانهم تحملوا الى بلاد الروم فكتب الوليد الى عمر بذلك فكتب عمر الى ملك الروم « بلغني ان حيًّا من احياء العرب ترك دارنا واتى دارك فوالله لتخرجنه الينا او لنخرجن النصارى اليك » فاخرجهم ملك الروم [2]

الانسياح في الارض

فعمر حرض العرب على فتح الشام والعراق توسيعاً للجامعة العربية وللاستعانة بها على الروم والفرس ولكنه لم يأذن لهم بفتح ما وراءهما الا في السنة السابعة عشرة او الثامنة عشرة وهو مايعبرون عنه بالانسياح في الارض . فكانوا يتطلبون الفتح وقد طابت لهم الغنائم واستلذّوا النصر فاذا استأذنوه في فتح بلد مما وراء ذلك لم يأذن لهم كما وقع لعمرو بن العاص لما أراد فتح مصر وكان قد عرفها من ايام الجاهلية فلما فتحت الشام والعراق جاء الى الخليفة عمر ورغبه في فتحها وقال له « انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم وهي اكثر الارض اموالاً واعجز عن القتال والحرب » فلم يجبه عمر ولما الح عليه اطاعه وهو يتردد وقال له « سر اني مستخير الله في سيرك وسيأتيك كتابي ان شاء الله تعالى فاذا ادركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها او شيئاً من ارضها فانصرف والا ان دخلتها قبل ان يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره » فسار عمرو بجنده مسرعاً خوفاً من ان يأتيه كتاب الخليفة بالرجوع . فوصله كتابه في بلد قرب العريش خارج حدود مصر فلم يفتح الكتاب حتى نزل العريش وهي من مصر ففض الكتاب واذا نصه « بسم الله الرحمن الرحيم من الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته اما بعد فان ادركك كتابي هذا وانت لم تدخل مصر فارجع عنها واما اذا ادركك وقد دخلتها او شيئاً في ارضها فامض واعلم اني ممدُّك » فمضى حتى فتح مصر

ولما فتح المسلمون الاهواز قال عمر « ليت بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون

(١) المعارف ١٩٣ (٢) ابن الاثير ٢٦٢ ج ٣

الينا ولا نصل اليهم » ومن هذا القبيل نهيه المسلمين عن اجتياز البحر • وكان اذا همّ المسلمون بالنزول في بلد او انشاء معسكر في البلاد المفتوحة اوصاهم ان لا يقيموا في مكان يفصل بينه وبين المدينة (مركز الخلافة) ماء حتى اذا أراد ان يأتيهم اتاهم على راحلته مما يدل على رغبته في العصبية العربية على ان يكون مركزها في بلاد العرب • ومع ذلك فلما لم يرَ بدًّا من الانسياح في الارض أذن لقواده بالفتح ولكنه ظل على رأيه في القرشيين على الخصوص فحصرهم في المدينة ومنعهم من الخروج وقال « اخوف ما أخاف على هذه الامة انتشاركم في البلاد » فاذا جاء الرجل منهم يستأذنه في الغزو اجابهُ « قد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك وخير لك من غزوك اليوم ان لا ترى الدنيا ولا تراك » كان يفعل ذلك بالمهاجرين من قريش فقط فلما ولي عثمان خلى عنهم فلحق معظمهم بمعاوية في الشام وانتشروا في البلاد [1]

فسياسة عمر بن الخطاب في أوائل دولته كانت تقضي ببقاء العرب محصورين في جزيرة العرب وما يليها من الشام والعراق وان يختص قريش بالاقامة في المدينة لانها مركز الاسلام وهم أساسه ومنشأه على انه لم يستطع ايقاف تيار الفتح فلم يرَ بدًّا من الاذن في الانسياح

فالعصبية التي قام بها الاسلام الجامعة العربية ولذلك كان اللفظان مترادفين في ذلك الحين وخصوصاً عند الامم التي خضعت لسلطان المسلمين فكانوا اذا قالوا العرب ارادوا المسلمين وبالعكس ولفظ « طيبوتا » عند السريان يدل على العرب والمسلمين على السواء [2] والفرق بين هذه الجامعة قبل الاسلام وبعده ان العرب كانوا في الجاهلية عصبيات عديدة تختلف باختلاف الانساب فاصبحوا بالاسلام عصبية واحدة تجمعها كلمة العرب وتركوا ذكر الاباء والاجداد عملاً بما يقتضيه روح الاسلام • وكانوا في جاهليتهم يتفاضلون بالانساب فاصبحوا في الاسلام يتفاضلون بالتقوى والجهاد في سبيل الدين فنشأت فيهم جامعات اسلامية فرعية لم يكن لها ذكر من قبل

---

(١) ابن الاثير ٩٠ ج ٣ (٢) راجع الهلال الثاني من السنة ١٣

طبقات عربية اسلامية

لما قام النبي بالدعوة الاسلامية احتاج الى من يسمع دعوته وينصره فاجتمع حوله جماعة من قبيلته صدقوه ونصروه وهاجر بعضهم الى الحبشة وهاجر الآخرون الى المدينة معه فعرفوا بالمهاجرين وهم اقدم الطبقات الاسلامية • ولما جاء المدينة وأقام فيها نصره اهلها وآمنوا بدعوته فسماهم « الانصار » وهم طبقة أخرى والطبقتان معاً تسميان « الصحابة » اي الذين صحبوا النبي او عرفوه • وتفرع من الصحابة عصابات تعرف كل منها بجامعة خاصة لاحوال خاصة كان لها تأثير في نصرة الاسلام اونشره • فواقعة بدر كان لها شأن عظيم في تأييد الاسلام فامتاز الصحابة الذين شهدوها عن سائر المسلمين ونسبوا اليها فسموا « البدريين » او « اهل بدر » وكذلك واقعة القادسية التي كانت عنوان فتح العراق وفارس فان الذين شهدوها عرفوا باهل القادسية • وقد جعل المسلمون لكل من هذه الطبقات او الجماعات امتيازات خاصة وفضلوا اهل بدر وأهل القادسية بالعطاء على سائر المسلمين

ويقال نحو ذلك في من شهد فتح مكة او سواها من الوقائع الاخرى التي كان لها شأن في الاحزاب الاسلامية كواقعة الجمل وواقعة صفين فان شيعة علي يفضلون من رجالهم الذين شهدوا واقعة الجمل لانهم انتصروا فيها ويسمونهم « اصحاب الجمل » وشيعة بني امية يفضلون « اصحاب صفين » لمثل هذا السبب وقد زاد معاوية عطاء هؤلاء عن سائر اصحابه

على ان الصحابة يتفاضلون ايضاً في السبق الى الهجرة او الى البيعة ومنهم اصحاب بيعة العقبة واصحاب الغار. والذين لهم صحبة قبل بيعة الرضوان يفرقون عمن صاحب بعدها ونحو ذلك مما يطول شرحه . ناهيك بالمناصب التي اقتضتها الاحوال الدينية او الادارية كالحفاظ والقراء والمؤلفة قلوبهم والعمال والقضاة والتابعين وتابعي التابعين وغيرهم

على ان عصبية النسب لم تذهب بعد الاسلام ذهاباً تاماً ولكنها تحولت الى وجهة دينية فاصبح اشرف الانساب عندهم اقربها الى قبيلة النبي (قريش) . فالنسب القرشي اشرف الانساب وللقرشيين التقدم في المناصب والمراتب والعطاء وخصوصاً بعد اشتهار الحديث « الائمة من قريش » [1] فاعتقدوا الفضل للقرشيين على الناس كافة في كل شيء حتى في احوال الحياة والولادة فقالوا « لا تحمل لستين الا قرشية ولا تحمل لخمسين الا عربية » [2]

---

(١) العقد الفريد ٤٠ ج ٢ (٢) الاغاني ٨٨ ج ١٥

وانه لا تكون بنت امراة قرشية امة [١] وان القرشي لا يتزندق [٢] وانه لا ينبغي للقرشي ان يستغرق في شيء من العلم غير الاخبار [٣] وظلت الرئاسة في قريش لا ينازعهم فيها منازع الى عهد غير بعيد

وكان لكل من طبقات الصحابة المهاجرين والانصار شأن خاص وحزب خاص ولاسيا في ايام بني امية اذ ذهبت دهشة النبوة وعاد الناس الى عصبية الجاهلية فاختصم المهاجرون والانصار وتذكروا ما كان بين العدنانية والقحطانية من التفاخر — والمهاجرون من العدنانية (مضر) والانصار من القحطانية (الاوس والخزرج) فعادوا الى المنافسة وغلب انحياز كل من الطائفتين الى احد الاحزاب التي نشأت في ذلك العهد فكان الانصار مع علي ومعظم المهاجرين مع معاوية وعادوا الى المهاجاة والمفاخرة بالاشعار وغيرها

وكان الانصار اهل المدينة من اشجع الناس وهم اهل الشورى يعقدون الامامة وحكمهم جائز على الامة وهم شيعة علي وسائر اهل البيت . فلما قام معاوية يطلب الخلافة لنفسه كانوا من اقوى مقاوميه فكان رجاله يكرهونهم ويسعون في اذلالهم وكثيراً ما كانوا ينكرون عليهم هذا اللقب — يروى ان بعض الانصار استأذنوا للدخول على معاوية في ابان خلافته فدخل الحاجب وقال « هل تأذن للانصار » وكان عمرو بن العاص حاضراً فقال « ما هذا اللقب يا امير المؤمنين ؟ اردد الناس الى انسابهم »

سياسة الخلفاء الراشدين

لم يكن للاسلام في عصر الراشدين دولة سياسية بل هي خلافة دينية اساس احكامها التقوى والرفق والعدل مما لم يسمع بمثله في عصر من العصور . ورجل هذا العصر بل رجل الاسلام على الاطلاق « عمر بن الخطاب » فان ما يروونهُ من اعماله واحكامه يندر اجتماعه في البشر ومناقبه مدونة في الكتب ومشهورة . واما ابو بكر فلا يقلُّ عظمة عنهُ لولا قصر مدة حكمه ويكفيه من الاثر في الاسلام قتاله اهل الردة اذ رجع الناس عن الاسلام بعد موت النبي نخاف المسلمون ذهاب دولتهم وهي لاتزال في طفوليتها فشمر ابو بكر عن ساعد الجد وقاتل المرتدين وأيد الدين وكذلك يقال عن علي وعثمان

---

(١) الاغاني ١١٠ ج ١٤ (٢) الاغاني ٦٠ ج ١٤

(٣) البيان للجاحظ ١٥١ ج ١

ابو بكر

وعصر الراشدين هو بالحقيقة عصر الاسلام الذهبي ومناقب الخلفاء الراشدين مشهورة بالزهد والتقوى والعدل فقد اسلم ابو بكر وعنده من ماله اربعون الفاً وهي ثروة طائلة يومئذ انفقها كلها في سبيل الاسلام مع ما اكتسبهُ من التجارة · وكان لهُ في خلافته بيت مال ينفق كل ما فيه على المسلمين ولما مات لم يجدوا فيه غير دينار · وكان منزله في السنخ بضواحي المدينة يغدو اليها على رجليه ويندر ان يركب فرسهُ · فاذا جاء المدينة صلى في الناس فاذا جاء العشاء عاد الى السنخ · وكان مع ذلك يغدو كل يوم الى السوق يبيع ويبتاع وكانت لهُ قطعة غنم تروح عليه وربما خرج بنفسه فيها · وكان قبل الخلافة يحلب للحي اغنامهم فلما صار خليفة سمع جارية تقول « الآن لا يحلب لنا منائح دارنا » فقال « بلى لعمري لاحلبنها لكم واني لارجو ان لا يغيّرني ما دخلت فيه » · وبعد خلافته بستة اشهر تحوّل الى المدينة وقال « ما تصلح امور المسلمين مع التجارة وما يصلح الاَّ التفرُّغ لهم والنظر في شؤونهم » فترك التجارة فصار ينفق من مال المسلمين ما فرضوه لهُ ٦,٠٠٠ درهم في السنة فلما حضرته الوفاة أوصى بقطعة ارض كانت لهُ ان تباع ويصرف ثمنها عوض ما اخذهُ من مال المسلمين

عمر بن الخطاب

اما عمر بن الخطاب ففي ايامه فتحت البلاد وكثرت الغنائم وانصبت خزائن كسرى وقيصر بين يدي رجاله ومع ذلك فانه كان من الزهد والتقشف بما ليس بعده غاية حتى قيل انه كان يقف للخطابة وعليه ازار مرقع بجلد · واذا انفق عطاءه واحتاج الى المال اتى صاحب بيت المال فاستقرضه على ان يؤديه من عطائه · وكان شديد الحرص على اموال المسلمين لا ينفقها الا في مصالحهم ويتولى امورهم بنفسه ديناً وسياسية فيسعى في نشر الاسلام ويعلم العرب قواعد الدين فيطوف الاسواق ويقرأ القرآن ويحرض الناس على التقوى واذا حرضهم على شيء بدأ بنفسه · ووضع على من يشرب الخمر ثمانين ضربة وكان يبعث اناساً من القراء يعلمون اهل البادية القرآن ثم يبعث من يمتحنهم فمن لم يقرا شيئاً منه عاقبه بالضرب وربما فرط الضارب حتى يقتل المضروب(1) وكان شديداً على عماله وقواده يحاسبهم ويدقق في استطلاع احوالهم فمن رأى فيه اعوجاجاً قومه لا يبالي من هو حتى خالد بن الوليد القائد الاسلامي الشهير فان عمر نقم عليه لامر يخالف قواعد التقوى

(1) الاغاني ٥٨ ج ١٦

فاستقدمه اليه ووبخه وهدده كأنه غلام وخالد لا يجيبه [1] وقد يضرب عامله بالدرة او يوبخه وليس فيهم من يرد في وجهه او يعترضه وكان شديد العقاب على من يشرب الخمر او يطمع باموال المسلمين . ومع ذلك فقد كان يعامل الناس معاملة الاب لبنيه فيغديهم على موائد يجفن لهم فيها عشرة عشرة واذا اغاب قواده تفقد بيوتهم وتعهد اهلهم بما يحتاجون اليه [2] وكان عادلاً في الناس رفيقاً بغير المسلمين . وكانت الدنيا في ايامه مجمعة على الطاعة والناس يدخلون في الاسلام او يبقون تحت راية المسلمين عن رضى وراحة . كانه كان قابضاً على شؤون الدولة واعنة الحكومة بيد من حديد . فلما قتل تزعزعت اركانها ونقض كثير من اهل الامصار وخصوصاً خراسان وسجستان [3] وغيرهما من الاطراف البعيدة

عثمان بن عفان

وكان عثمان مثل سائر الخلفاء الراشدين لولا ضعفه واستسلامه الى بعض ذوي قرابته من بني امية حتى نقم عليه سائر المسلمين وخصوصاً اهل المدينة لاسباب تقدم بيانها وقتلوه . فاتخذ بنو امية قتله حجة لطلب الخلافة لانفسهم — على ان عثمان اول خليفة اقتنى المال لنفسه فقد ذكروا انه كان عند خازنه يوم مقتله ١٥٠٠٠٠ دينار و١٠٠٠٠٠٠ درهم وله ضياع بوادي القرى وحنين وغيرها قيمتها ١٠٠٠٠٠ دينار. فضلاً عما خلفه من الخيل والابل وفي ايامه اقتنى الصحابة الضياع وابتنوا الدور واختزنوا الاموال [4] وتعودوا الغنى والترف فلما جاءهم علي بعده بما كان عليه عمر من الزهد والتقشف اكبروه وساعدهم على التمنع قيام معاوية واطماعهم بالاموال وسيأتي بيان ذلك

علي بن ابي طالب

اما علي فحكاياته في الزهد والتقوى كثيرة وكان شديد التمسك بالاسلام حر القول والفعل لا يعرف الدهاء ولا يركن الى الحيلة في شأن من الشؤون وانما همه الدين وعمدته في اعماله الصدق والحق . فمن امثلة تقشفه وزهده انه تزوج فاطمة بنت النبي وليس له فراش الا جلد كبش كانا ينامان عليه بالليل و يعلفان عليه ناضحها بالنهار ولم يكن عنده خادم يخدمه . وجاءه مال من اصبهان في ايام خلافته فقسمه على سبعة اسهم فوجد فيه رغيفاً فقسمه على سبعة وكان يلبس قطيفة لا تقيه البرد . ورآه بعضهم يحمل تمراً في ملحفته قد

(١) ابن الاثير ١٧٤ ج ٢ (٢) الجزء الثاني من هذا الكتاب

(٣) ابن الاثير ٦٠ ج ٣ (٤) المسعودي ٣٠١ ج ١

اشتراه بدرهم فقال له يا امير المؤمنين الا نحمله عنك فقال « ابو العيال احق بحمله » ومن اقواله في كيف يجب ان يكون المسلمون قوله « خمص البطون من الطوى يبس الشفاه من الظما عمش العيون من البكاء » [1] ومن امثلة عدله انه رأى درعاً له عند رجل فتقاضيا الى شريح القاضي فوقف علي بجانب خصمه احتراماً للعدل . وكان اذا بعث رجاله في حرب اوصاهم ان يرفقوا بالناس وان يكفوا الاذى عن النساء

وكان شديداً في محاسبة رجاله حرصاً على العدل والحق كما كان يفعل عمر . ولو تولى امور المسلمين في زمن عمر والناس في دهشة النبوة وصدق التدين لكان نصيبه من الحكم اطول ولما بدا في تدبيره ضعف ولكنه تولاها وقد فسدت النيات وطمع العمال في الاحكام واطمعهم وادهاهم معاوية بن ابي سفيان فانه جمع الرجال حوله بالدهاء والحيلة والبذل وعليٌّ يضيع الاحزاب بتدقيقه في محاسبة عماله وقواده والمبالغة في المحافظة على الدين واسباب التقوى ففارقه جلة الصحابة حتى ابن عمه عبدالله بن عباس وكان عاملاً له على البصرة فوشى به ابو الاسود الدؤلي الى علي فكتب عليٌّ الى ابن عباس بذلك ولم يذكر اسم الواشي فاجابه « اما بعد فان الذي بلغك باطل واني لما تحت يدي لضابط وله حافظ فلا تصدق الظنين والسلام » فكتب اليه عليٌّ « اما بعد فاعلمني ما اخذت من الجزية ومن اين اخذت وفيما وضعت » فكتب اليه ابن عباس « اما بعد فقد فهمت تعظيمك مرزاة ما بلغك اني رزئته من اهل هذه البلاد فابعث الى عملك من احببت فاني ظاعن عنه والسلام » واستدعى اخواله من بني هلال بن عامر فاجتمعت معه قيس كلها فحمل مالاً وقال « هذه ارزاقنا اجتمعت » تتبعه اهل البصرة الى مكة [2] ولم ينتفع عليٌّ به ولا باحزابه — فلم يفعل عليٌّ بابن عمه غير ما كان عمر يفعله بعماله ولكن الاحوال كانت قد تغيرت وقام معاوية يبتاع الاحزاب بالعطاء ويجتذب القواد بالدهاء

وزد على ذلك ان رجال عمر كانوا مثله غيرة وحمية وكانت لا تزال فيهم الاريحية والانفة وحرية البداوة والوفاء وجاء الاسلام فكمل الاسباب الباعثة عن الاتحاد والنهضة والقوة

على ان سياسة الراشدين على الاجمال ليست مما يلائم طبيعة العمران او تقتضيه سياسة الملك وانما هي خلافة دينية توفقت الى رجال يندر اجتماعهم في عصر والى احوال يكفي منها الجامعة الاسلامية والحمية الدينية والانفة البدوية والاريحية العربية . فهذه كلها اجتمعت

(١) ابن الاثير ٢٠٤ ج ٣ (٢) ابن الاثير ١٩٦ ج ٣

في عصر واحد وتلاءمت فاتت بالعجائب فانتشر الاسلام وفتح العالم في بضع عشرة سنة كما هو مشهور [١] فاهل العلم بطبائع العمران لا يرون هذه السياسة تصلح لتدبير الممالك في غير ذلك العصر العجيب وان انقلاب تلك الخلافة الدينية الى الملك السياسي لم يكن منه بدٌّ — سنة الله في خلقهِ

انتشار العرب في الارض

قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الاسلام في جمع كلمة العرب وتوثيق عرى الاتحاد بين قبائلهم وتأكيد العلائق بين منازلهم لحرضهم على فتح العراق والشام لعلمه بما هنالك من قبائل العرب فاذا انضموا الى عرب الحجاز واليمن زادوا الاسلام قوة . ولكنه منعهم مما وراء ذلك وامرهم اذا بنوا بلداً في دار الفتح ان لا يبنوه في مكان يحول بينه وبين المدينة ماء خوفاً على الجامعة العربية ان يزداد تباعد اطرافها فتتمزق ورغبة منه في استبقاء مركز الخلافة عند قبر النبي على ان يستبقي البلاد المفتوحة لاستدرار ما فيها من غلة او مال لاهل الحجاز . ولهذا السبب ايضاً نهى المسلمين عن الزرع وشدد في منعهم اعتماداً على الحديث القائل « السكة (المحراث) ما دخلت دار قوم الا دخله الذل » [٢] ولان الاشتغال بالزرع يشغلهم عن الحرب وهو يريد ان يقيمهم حامية لجمع الخراج والجزية واستبقاء السلطة ولم تكن المدن التي بنوها في صدر الاسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط الاَّ حصوناً او معسكرات ينزل فيها جند العرب نزول الحامية او جيش الاحتلال [٣] ولهذا السبب ايضاً أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب عملاً بوصية النبي « ان لا يترك في جزيرة العرب دينان » [٤] وان لا يأتي الحج احد من المشركين [٥] فاخرجهم وتخلص من خطرهم اذ لو بقوا هناك على غير دين الاسلام لاقلقوا الراحة وربما كانوا عوناً لغير المسلمين كما كان نصارى الشام والعراق ينصرون الروم بعد ذلك كما سترى

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب (٢) ابن خلدون ١١٩ ج ١
(٣) الجزء الاول من هذا الكتاب (٤) ابن هشام ١٩٥ ج ٢
(٥) ابن هشام ٥٠ ج ٣

فكانت السياسة في صدر الاسلام ان يبقى المسلمون في بلاد العرب وضواحيها • وكان القواد الذين فتحوا الشام والعراق قد ذاقوا لذة الفتح مع سهولته عليهم فلم يكفوا عن عمر حتى اذن لهم بفتح ما وراء ذلك كما تقدم فكان عمر وهو في المدينة قابضاً على اطراف الدولة يشدها نحوه ورجاله يحاولون الذهاب بها شرقاً وغرباً حتى اضطر اخيراً الى مجاراتهم واذن بانسياحهم في الارض فتفرق العرب وفتحوا مصر وفارس وافريقيا وغيرها ولما تولى عثمان اطلق العنان لقريش ان يخرجوا من المدينة فخرجوا وتفرق العرب في الارض وانتشروا في مصر والشام والعراق وفارس وما وراءها وعددهم يومئذ لا يزيد على ٢٠٠،٠٠٠ نفس [١] وهم جند المسلمين وعليهم حماية مملكتهم الجديدة واستغلالها وسكانها يزيدون على مئة مليون ودولة الروم واقفة لهم بالمرصاد

الاستكثار بالتناسل

كانت العرب في الجاهلية قليلة العدد بالقياس على ما صارت اليه بعد الاسلام • ذكروا ان اكبر جيش اجتمع في الجاهلية لم يزد عدد رجاله على ثمانية آلاف رجل وهو جيش يوم الصفقة [٢] والذين تجندوا للاسلام وقاموا بنصرته كانوا في صدر الاسلام قليلين كما رأيت ومملكتهم الواسعة تحتاج الى رجال فعمدوا الى الاستكثار بالتناسل وهو من قواعد العصبية العربية من ايام الجاهلية • فان عبد المطلب جد النبي لما ظهرت قريش عليه نذر لله اذا رزقه عشرة من الولدان يبلغون ان يمنعوه ويذبوا عنه نحر احدهم قرباناً لله فجاءه عشرة اولاد فاشتد ازرهُ بهم

فالمسلمون لما رأوا قلة عددهم وما وقع في ايديهم من السبايا الروميات والفارسيات والقبطيات استكثروا من امهات الاولاد فضلاً عن الزوجات فكثر نسلهم — والترف يزيد الدولة في اولها قوة بكثرة النسل • وتسابقوا الى احراز الجواري حتى ان بعضهم احصن ثمانين امرأة معاً كالمغيرة بن شعبة فقد جمع في منزله اربع نسوة و ٧٦ أمة [٣] فلا غرابة اذا ولد لاحدهم خمسون ولداً او مئة ولد او اكثر • ذكروا انه وقع للارض من صلب المهلب ٣٠٠ ولد [٤] وخلف عبد الرحمن بن الحكم الاموي ١٥٠ ذكراً و ٥٠ انثى [٥] وخلف تميم بن المعز الفاطمي اكثر من مئة ذكر و ٦٠ انثى [٦] وكان لعمر بن الوليد تسعون

---

(١) ابن خلدون ١٣٦ ج ١ (٢) العقد الفريد ٧٨ ج ٣

(٣) الاغاني ١٤٣ ج ١٤ والمعارف ١٠٠ (٤) ابن خلكان ١٤٧ ج ٢

(٥) نفح الطيب ١٦٤ ج ١ (٦) ابن خلكان ٩٩ ج ١

ولداً منهم ستون يركبون الخيل[1] • وولد لابن سيرين ٣٠ ولداً من امرأة و ١١ بنتاً[2]
وقس على ذلك مما يطول شرحه وفي التاريخ ادلة كثيرة على قيام الدول بعصبية الملك من الاولاد والاخوة والاعمام كالعباسيين والايوبيين وغيرهم

انتشار العرب بالفتح

كان العرب في الجاهلية محصورين في جزيرة العرب وما يجاورها من جزيرة العراق وضواحي الشام • فلما ظهر الاسلام اجتمعت كلمة العرب على نصرته ونهضوا للفتح واوغلوا في البلاد وفتحوا الامصار ولم يكن زجر عمر ليوقف تيارهم فانساحوا في الارض حتى نصبوا اعلامهم على ضفاف الكنج شرقاً وشواطيء البحر الاتلانتيكي غرباً وملأوا الارض فتحاً ونصراً واحتلوا مدائن كسرى وقيصر واقاموا في المدن وركنوا الى الحضارة وتعودوا الترف واختلطت أنسابهم بتوالي الاجيال وضعفت عصبيتهم فضاعت سلطتهم والقبائل التي قامت بنصرة الاسلام ونشره قبائل مضر وانصارها من العدنانية والقحطانية — واليك اسماء القبائل التي مهدت قواعد الدولة الاسلامية ونشرت الدين الاسلامي بالفتح من اول الاسلام:

من العدنانية		من القحطانية	
مضر	ربيعة	كهلان	حمير
قريش	تغلب بن وائل	الاوس والخزرج	قضاعة وبطونها
كنانة	بكر « «	غسان	كلب
خزاعة	شكر	الازد	سليح
اسد	حنيفة	همدان	تنوخ
هذيل	عجل	خثعم	بهراء
تميم	ذهل	بجيلة	عذرة
غطفان	شيبان	مذحج	
سليم	تيم الله	مراد	وغيرها
هوازن	النمر بن قاسط	زبيد والنخع	
ثقيف	وغيرها	الاشعريون	
سعد بن بكر وعامر		لخم وكندة	

(١) العقد الفريد ٢٥٨ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٤٥٣ ج ١

على ان هذه القبائل لم تكن في اوائل الفتح تنزل القرى وتختلط بالناس بل كانت رابطة ثم اختلطوا وتفرقوا في الارض وانفقتهم الدولة الاسلامية العربية فنبا منهم الثغور القصية واكلتهم الاقطار المتباعدة واستلحمتهم الوقائع وضاعت انسابهم بتوالي الاجيال حتى خرجت الدولة من ايديهم

انتشار العرب بالمهاجرة

على ان انتشار العرب في الارض لم يكن بالفتح فقط ولكنهم تفرّقوا ايضاً بالمهاجرة بأهلهم وخيامهم وانعامهم التماساً لسعة العيش في البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة . فقد جلت بطون من خزاعة الى مصر والشام في صدر الاسلام لان ارضهم اجدبت فمشوا يطلبون الغيث والمرعى [1] وكذلك كانت تفعل العرب كلما اصابها جدب حتى كانت لهم اعوام خاصة يجلون بها الى مصر والشام يسمونها اعوام الجلاء [2] وكانوا يفعلون ذلك قبل الاسلام اذا اجدبت ارضهم يمموا العراق وفارس فيعطيهم الفرس التمر والشعير ولكنهم كانوا لا يقيمون هناك بل يرجعون الى بلادهم [3] خوفاً من الذل في سلطان دولة اعجمية . اما بعد الاسلام فكان المقام يطيب لهم في بلاد فتحها آباؤهم او اعمامهم او اخوالهم وغرسوا فيها اعلامهم وجعلوها فيئاً لهم

على ان الغالب في نزوح العرب من احيائهم وانجاعهم الى المدن او اكنافها ان يكون بايعاز بعض الخلفاء او الامراء وخصوصاً بعد رجوع العرب الى عصبية النسب بين قحطان وعدنان او مضر وقيس في عهد الدولة الاموية . فكان الامير او الخليفة اذا تولى بلداً وخاف على سلطانه من امير آخر ذي عصبية اخرى استقدم جماعة من قبيلته او من ينتمي اليها بالحلف ونحوه يسكنهم في ضواحي بلده لاستنصارهم عند الحاجة فيطلق لهم المرعى و يفرض لهم العطاء كما حدث في ولاية الوليد بن رفاعة على مصر في خلافة هشام بن عبد الملك الاموي وكان هشام يقرب قبيلة قيس (العدنانية) لانهم نصروه وايدوا خلافته ولم يكن منهم في مصر الاَّ بعض البطون وقيس قبيلة كبيرة تحتها عدة قبائل و بطون وافخاذ واول من نبه هشام الى نقلهم ابن الحبحاب فانهُ وفد عليه فسأله ان ينقل الى مصر منهم ابياتاً فأذن لهُ في الحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر اي ان يقبضوا رواتبهم من حكومة مصر على ان لا ينزلهم في الفسطاط فانزلهم في الحوف الشرقي (الشرقية

---

(١) الاغاني ٦ ج ١٣ (٢) الاغاني ٤٧ ج ١١

(٣) ابن الاثير ٢٢٨ ج ٢

والدقهلية) ولا سيما في بلبيس وامرهم بالزرع [1] ثم تقاطروا بعد ذلك وتكاثروا فيها

بنو سليم و بنو هلال وقد يكون الباعث على استقدامهم وتحضيرهم رغبة الامير او الخليفة في التخلص من شرهم كما فعل العزيز بالله الفاطمي ببني سليم و بني هلال وهما بطنان من مضر كانوا الى زمن العزيز المذكور في القرن الرابع للهجرة لا يزالون احياء ناجعة اهل بادية محلاتهم وراء الحجاز مما يلي نجد بنو سليم من جهة المدينة و بنو هلال من جبل غزوان عند الطائف . فكانوا يطوفون رحلة الصيف والشتاء اطراف العراق والشام فيغيرون على الضواحي و يفسدون السابلة وربما اغار بنو سليم على الحاج ايام الموسم بمكة وايام الزيارة بالمدينة . ثم ظهر القرامطة فتحيز بنو سليم لهم وعاثوا في البلاد وقد عجز الخلفاء العباسيون عن قمعهم . فلما افضت خلافة مصر الى العزيز بالله الفاطمي كان القرامطة قد تغلبوا على الشام فانتزعها العزيز منهم وردهم الى قراهم في البحرين ونقل اشياعهم من بني هلال وسليم وانزلهم بالصعيد في العدوة الشرقية من بحر النيل فاقاموا هناك وكان لهم اضرار في البلاد والخلفاء يداورونهم و يبحثون عن وسيلة يتخلصون بها منهم . فاتفق بعد سنين ان عامل الفاطميين في افريقية شق عصا الطاعة و بايع للدولة العباسية وقطع اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة والطراز والرايات فعظم الامر على الخليفة بالقاهرة وهو يومئذ المنتصر بالله فاشار عليه وزيره الحسن بن علي ان يقرب اليه احياء هلال وسليم المذكورين و يصطنع مشائخهم و يوليهم اعمال افريقية و يرسلهم لاستلام امورها فاذا فازوا كانت احدى الحسنيين والا فانه يتخلص من شرهم . فبعث الخليفة وزيره الى هذه الاحياء سنة ٤٤١ ﻫ وحرضهم على الذهاب الى المغرب وتملكه ففرحوا واجازوا النيل وساروا برًّا الى برقة ففتحوها . ثم تبعهم غيرهم من بطون دياب وزغب طمعًا بالكسب واصبحت افريقية مقر هذه القبائل من ذلك الحين فاقتسموا البلاد فيما بينهم [2]

وقس على ذلك ما كان من انتقال العرب المسلمين الى الاندلس بعد اتمام فتحها اذ صرف عرب الشام وغيرهم الهمم الى الحلول بها لخصبها وطيب هوائها . فنزل بها من جرائيم العرب وساداتهم جماعة اورثوها اعقابهم وفيهم قبائل من العدنانية والقحطانية [3] وكل قبيلة كانت تنزل البلد الذي يشبه بلدها باقليمه ومرعاه . ناهيك بما كان ينتقل من القبائل او البطون في اثناء الحروب في عصر الامويين للنجدة او نحوها

---

(١) المقريزي ٨٠ ج ١ (٢) ابن خلدون ١٤ ج ٦

(٣) نفح الطيب ١٣٧ ج ١

العبيد والموالي في الاسلام

للعبيد والموالي شأن كبير في الدولة الاسلامية وقد اثروا في سياستها وجندها وفي سائر احوالها من العلم والادب والفقه فلا غرو اذا افردنا للكلام عنهم فصولاً خاصة

الرق في الاسلام

قلنا ان الاسترقاق عند العرب الجاهلية كان اكثره بالاسر او الشراء واما في الاسلام فاكثر الاسترقاق بالاسر وخصوصاً في اثناء الفتوح لكثرة من كان يقع في ايديهم من الاسرى . فاذا غلبوا جنداً او فتحوا بلداً اسروا رجاله وسبوا نساءه واطفاله واقتسموا الاسرى والسبايا والغنائم وهي كثيرة ربما زاد عدد الاسرى في المعركة الواحدة على عشرات الالوف فيختمون اعناقهم ويقتسمونهم على الاسهم وقد يصيب الفارس من العرب مئة اسير ومئة جارية في وقعة واحدة فيجتمع عند بعضهم بتوالي الايام الف عبد او اكثر [1] وهم عند الامراء اكثر مما عند غيرهم وقد تزايدوا على الخصوص بعد عصر الراشدين على ان الخليفة عثمان كان عنده الف عبد [2]

والغالب في الاسرى اذا كانوا كثاراً ان يباعوا بالجملة قبل تفريق الاسهم فينادون على الاسير بمئة درهم او الف درهم واقل او اكثر وربما اقتضى لبيع اسرى معركة واحدة عدة اشهر . ومن اكثر الفتوح اسرى وغنائم فتوح الاندلس فقد ذكروا انهم ظلوا يبيعون الاسرى والغنائم بعد معركة هناك ستة اشهر [3] وتكاثرت الاسرى على المسلمين بعد واقعة عمورية حتى نادوا على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة للسرعة [4] وكثرت الاسرى والغنائم عليهم في واقعة ارك بالاندلس حتى بيع الاسير بدرهم والسيف بنصف درهم [5]

على انهم كانوا يعدون البلد المفتوح عنوة ملكا للفاتحين بما فيه من الناس والدواب والبساتين والانهار والاشجار وقد تمسك بنو امية بذلك وبالغوا فيه كقول سعيد بن العاص « السواد بستان قريش » وقول عمرو بن العاص لصاحب خربتا « انتم خزانة لنا الخ » لاعتباره مصر فتحت عنوة . ومن اقوال الامويين « ان مصر فتحت عنوة واهلها عبيدنا ندير عليهم كيف شئنا » [6]

---

(١) ابن الاثير ١٤٧ ج ٤ (٢) الدميري ٤٩ ج ١
(٣) نفح الطيب ٢١٣ ج ١ (٤) ابن الاثير ١٩٩ ج ٦
(٥) نفح الطيب ٢٠٩ ج ١ (٦) ابن الاثير ٢٧٩ ج ٢

والغالب في عامة الجند من المسلمين ان يبيعوا اسراهم و يحرزوا اثمانهم لعجزهم عن القيام بمعاشهم فلم يكن يستبقي الاسرى فيحوزته عبيداً الا الامراء حتى يفتديهم اهلهم او يعتقهم هو لسبب من الاسباب

ومن مصادر الرقيق في الاسلام غير الاسران بعض العمال وخصوصاً في افريقية وتركستان ومصر كانوا يؤدون بعض خراج اعمالهم من الرقيق [1] وكان بعض اهل الذمة من البربر ونحوهم يقدمون بدل الجزية رقيقاً من اولادهم [2] غير ما كان يقع في ايدي المسلمين من الرقيق الاصلي في جملة الغنائم

اما احكام الاسرى في الاسلام فالخليفة (او من يقوم مقامهُ) مخيرٌ بين اربعة اشياء اما القتل واما الاسترقاق واما الفداء بمال او اسرى واما المن عليهم بغير فداء . فان اسلموا سقط القتل وكان الخليفة على خياره في احد الثلاثة الباقية [3] فكانوا يتصرفون في ذلك على ما تقتضيه الاحوال

ومن ملك رقيقاً بالاسر او الشراء او غير ذلك كان مخيراً في استبقائه او بيعه او المن عليه بالعتق ومن اعتق عبداً صار مولاه . وللعتق اسباب كثيرة اهمها في الاسلام اظهار التقوى او الغيرة على الدين فاذا اسلم العبد واظهر التقوى اطلقه سيده . فقد اعتق عبدالله بن عمر ابن الخطاب على هذه الصورة الف عبد [4] واعتق محمد بن سليمان ٧٠٠٠٠ مملوك ومملوكة . وقد يعتقونهم فداء عن يمين او وفاء لنذر او التماساً للثواب او شكراً لله على نعمة او نحو ذلك . وكان بعض اهل الورع يبتاعون العبيد ويعتقونهم ابتغاء مرضاة الله . واقسم عمر بن ابي ربيعة لما اسنَّ ان لا يقول بيت شعر الا اعتق رقبة وقد نظم وبرَّ بقسمة غير مرة [5] كانوا يعتقون العبيد ترغيباً لهم في الجهاد كما فعل الجنيد بن عبد الرحمن المري صاحب خراسان بهشام بن عبد الملك في واقعة الشعب لما احتدم الوطيس وخاف الجنيد الفشل فصاح في العبيد « اي عبد قاتل فهو حرٌّ» فقاتل العبيد قتالاً اعجب منه الناس وانهزم الاعداء [6] وكثيراً ما كانوا يرغبون العبيد في نصرة الاسلام وهم عند اعدائهم بان يعدوهم بالعتق كما فعل النبي يوم حصار الطائف اذ قال «كل عبد نزل اليَّ فهو حرٌّ» [7] وكما فعل

(١) المقريزي ٣١٣ ج ١ (٢) ابن الاثير ١٣ ج ٣
(٣) الماوردي ١٢٥ (٤) ابن خلكان ٢٤٧ ج ١
(٥) الاغاني ٦٤ ج ١ (٦) ابن الاثير ٧٨ ج ٥
(٧) المعارف ٩٧

المسلمون في بعض البلاد التي فتحوها فكانوا يعدون عبيدها بالعتق اذا اسلموا فيدخل بعضهم في الاسلام على نية ان يرجعوا عنه بعد ذهاب الحرب ولكنهم لما ارادوا ذلك عدهم المسلمون مرتدين فحلّ حربهم

على ان الاسلام جاء رحمة للارقاء فاوصى النبي بهم خيراً بقوله « لا تحملوا العبيد مالا يطيقون واطعموهم مما تأكلون »[1] وقال « لا يقل احدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي »

وفي القرآن « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ان الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » والاسلام من الجهة الاخرى يحرض العبيد على التقوى وحسن العبادة[2] وقد اختص العرب المسلمين بالنجاة من الرق والسبي بقوله لا سبأ في الاسلام ولا رق على عربي في الاسلام » ومن أحكام العبيد عندهم ان يعاملوا معاملة نصف الحر فالعبد اذا اذنب ضرب نصف ما يضرب الحر[3] واذا احسن كانت جائزته لمولاه — والاسرى الذين يقعون في ايدي العرب بالفتوح من أهل البلاد المفتوحة فيهم النصراني واليهودي والمجوسي والصابي والسامري وغيرهم . فهؤلاء اما ان يفتديهم اهلهم او يبيعهم المسلمون لبعض تجار الرقيق او يستبقوهم في خدمتهم لقضاء حاجات المنازل او رعاية الابل او الماشية او لبري القسي ورمي النبل او جمع النبال المتساقطة وقت القتال او الرواية الشعر او حفظ القرآن او الحديث او غير ذلك . فكانت قيمة العبد تختلف باختلاف نوع صناعته فالعبد الذي لا يعرف صناعة يساوي مئة دينار فاذا كان راعياً للابل يحسن القيام بها يقدرون قيمته ٢٠٠ دينار فاذا كان عارفاً بصناعة النبال والقسي يباع باربعمئة دينار فاذا كان يحسن رواية الشعر صارت قيمته ٦٠٠ دينار — تلك اثمان العبيد في أواسط دولة بني أمية[4]

وأما القنّ فهو العبد الذي يشتغل في الارض وهو خاص بالقرى ويسمى المزارع المقيم « فلاحاً قراراً » فاذا اقطعت أرضه او بيعت لاحد او دخلت في ملك احد بالفتح او غيره كان الفلاح تبعاً لها وصار « عبداً قناً » الا انه لا يرجوان يباع او يعتق ولا يستطيع مولاه ذلك لو أراده بل هو قنٌّ ما بقي حياً وكذلك اولاده بعده فانهم يكونون عبيداً لمالك الارض او مقتطعها وقد اشرنا اليه في كلامنا عن العبيد في الجاهلية

(١) المقريزي ١٣٧ ج ١ (٢) البخاري ٥٩ ج ٢
(٣) الاغاني ١٥٢ ج (٤) الاغاني ١٣٣ ج ١

الموالي في الاسلام

والباقون في الاسر اذا اعتنقوا الاسلام نجوا من الرق غالباً اذ يغلب ان يعتقوهم مكافأة لهم ومن أعتق منهم صار مولى ولذلك كان الموالي من المسلمين غير العرب استنكافاً من استرقاق المسلم ثم اطلقه بنو أمية على كل مسلم غير عربي فاذا قالوا الموالي ارادوا المسلمين من الفرس وغيرهم الذين كانوا مجوساً او ذميين واعتنقوا الاسلام او كانوا ممن لازم العرب او التجأوا اليهم ويسمونهم «الحمراء» فاذا قالوا «الحمراء» أرادوا الموالي. والحمراء في القاموس العجم وهم كل من سوى العرب

واصبح الموالي في الاسلام طبقة خاصة من طبقات الهيأة الاجتماعية كان لها شأن عظيم في تاريخ الاسلام ويمكن اعتبارهم من قبيل العصبية العربية لقول النبي «مولى القوم منهم»[1] وقوله من ادعى الى غير ابيه او تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين[2] وأهل الرجل عند العرب الموالي والذراري. ويثق الرجل بمولاه كما يثق بابنه لانه لم يعتقه الاَّ حباً به والمولى يعدّ عتقه منة لمولاه عليه فيترك نسبه الى اهله وينتسب الى مولاه فيقال فلان مولى فلان ولا يقال ابن فلان. او ينتسب الى قبيلته فيقال مثلاً ابن سريج مولى بني نوفل ومحرز مولى عبد الدار وحكم الوادي مولى الوليد بن عبدالملك وابن عباد مولى بني مخزوم وقس عليه. ولذلك كانت رابطة المولى بمولاه وثيقة وخصوصاً في من يعيش من الموالي في بيت مواليهم ولكن الغالب ان يخرجوا لعمل يعملونه حتى اذا انتشبت حرب اجتمعوا تحت لوائهم

وللموالي فضل كبير في الاسلام لان معظم الحفاظ واهل التفسير واللغة والشعر وسائر العلماء واكثر التابعين منهم لاشتغال العرب عن هذه العلوم بالسياسة والسيادة والتنازع على السلطة[3] ومعظم الموالي الذين خدموا العرب في صدر الاسلام من بقايا الفيء والغنائم في فارس وغيرها واكثرهم غلمان كانوا في جملة السبي فربوا في الاسلام ونبغوا فيه او نبغ اولادهم — منهم اربعون غلاماً كانوا يتعلمون الانجيل في عين التمر لما فتحها خالد بن الوليد فغنمهم خالد وبعثهم الى ابي بكر بالمدينة ففرقهم في اهل البلاء من جملة الغنائم فاعتنقوا الاسلام واعتقهم مواليهم فنبغ من اولادهم جماعة كانوا عوناً كبيراً

---

(١) العقد الفريد ١١١ ج ٢ (٢) ابن هشام ٧٧ج ٣ والبيان ١٦٤ ج ١
(٣) الجزء الثالث من هذا الكتاب

للمسلمين في السياسة والحرب والعلم والدين منهم موسى بن نصير فاتح المغرب والاندلس فان اباه من اولئك الاربعين • وكذلك محمد بن سيرين صاحب تعبير الرؤيا فان أباه منهم • وحمران مولى عثمان بن عفان [١] وايضاً محمد بن اسحق صاحب المغازي والسير فان جده يسار منهم [٢] وقس على ذلك سائر مشاهير الموالي الذين أصلهم من السبي في اثناء الفتح او بعده

فابو صفر من سبي دبا في ايام ابي بكر وحماد الراوية اصل ابيه ويلمي من سبي مكنف بن زيد الخيل [٣] وسائب خاثر اصله من فيء كسرى • ومروان بن ابي حفصة الشاعر الشهير اصله يهودي من سبي اصطخر [٤] والهروي اللغوي المشهور اسيرة وقع في سهم عرب نشأوا في البادية [٥] وابن الاعرابي سندي الاصل وابو دلامة كوفي اسود كان عبداً لرجل من بني اسد فاعتقه [٦] وقل نحو ذلك سائر حملة العلم في الاسلام (راجع الجزء الثالث من هذا الكتاب صفحة ٤٩)

وقد يكون المولى من اصل رفيع واسترقه الاسر ولم يتوفق له الفداء فان بعض موالي المنصور من اولاد المرازبة [٧] وابو علي بن بذيمة الذي يروى عنه وابو زهير جد المطلب بن زياد اصلهما من ابناء الاكاسرة وقعا في الاسر يوم المدائن فاهداهما سعد الفاتح الى سمرة بن جنادة الصحابي فاعتقهما ابنه جابر [٨] • واشترى ابو موسى الاشعري ستين غلاماً من اولاد الدهاقين من سبي بيروذ بفارس وفرق بعضهم في المسلمين غير الذين افتداهم اهلهم [٩]

وكان للخلفاء والامراء ثقة كبرى بمواليهم يعهدون اليهم بكل شؤونهم فاكثر حجاب الخلفاء الراشدين من مواليهم لا فرق في ان يكون اصلهم فارسياً او ديلمياً او حبشياً او رومياً فموالي ابي بكر اولهم بلال بن رباح كان عبداً حبشياً لرجل من مكة اشتراه ابو بكر بخمس اواق واعتقه • وهو اول من أذّن في المدينة وكان له مقام رفيع في الاسلام وكذلك عامر بن فهيرة وابو نافع ومرة بن ابي عثمان وغيرهم [١٠] وقس

---

(١) ابن الاثير ١٩٢ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٤٨٣ ج ١ والمعارف ١٦٨
(٣) المعارف ١٨٣ (٤) الاغاني ٣٦ ج ٩ (٥) ابن خلكان ٥٠١ ج ١
(٦) الاغاني ١٢٠ ج ٩ (٧) الاغاني ٨٢ ج ٢٠ (٨) المعارف ١٠٣
(٩) ابن الاثير ٢٣ ج ٣ (١٠) المعارف ٥٨

على ذلك موالي عمر وعثمان وعلي وغيرهم من الخلفاء وكبار الصحابة . وكانهم يستهلكون في سبيل مواليهم لاعتقادهم الفضل لهم عليهم وفي التاريخ شواهد كثيرة من هذا القبيل على اختلاف الاعصر — من ذلك ان محمد بن يزيد المهلبي لما نشبت الفتنة بين الامين والمأمون كان هو من حزب الامين وأراد ان يحفظ له الاهواز من أصحاب طاهر بن الحسين قائد جند المأمون فباغته طاهر بجنده قبل ان يتحصن وضايقه فالتفت المهلبي المذكور الى مواليه وقال لهم « ما رأيكم .. اني أرى من معي قد انهزم ولست آمن خذلانهم ولا ارجو رجعتهم وقد عزمت على النزول والقتال بنفسي حتى يقضي الله بما احب فمن أراد الانصراف فلينصرف فوالله لان تبقوا احبُّ اليَّ من ان تموتوا » فقالوا « والله ما انصفناك اذاً تكون قد اعتقتنا من الرق ورفعتنا من الضعة واغنيتنا بعد القلة ثم نخذلك على هذا الحال فلعن الله الدنيا والعيش بعدك » ثم نزلوا فعرقبوا دوابهم واستقتلوا بين يديه [1]

على ان المولى لا يزال احط مقاماً من العربي . وكان الموالي في صدر الاسلام يتولون كثيراً من مصالح الدولة التي تفتقر الى امانة وثقة فضلاً عن العلم والدين ولهم الرواتب السنية [2] لكنهم كانوا محرومين من المناصب الرفيعة التي تحتاج الى شرف وعصبية كالقضاء مثلاً فانهم كانوا يعدُّونهُ فوق مرتبتهم . فان عمر بن عبد العزيز لما اراد ان يولي مكحولاً القضاء ابى وقال « قال النبي لا يقضي بين الناس الاّ ذو الشرف في قومه وانا مولى » [3]



(١) ابن الاثير ١٠٦ ج ٦ (٢) الاغاني ١٦٣ ج ١٠

(٣) العقد الفريد ٨ ج ١

سياسة الدولة في عصر الامويين

من سنة ٤١ — ١٣٢ هـ

قد رأيت مما تقدم ان سياسة الدولة في ايام الراشدين انما كان قوامها الجامعة العربية وعمادها العدل والرفق والاريحية ففتحوا العالم وأسسوا الدولة الاسلامية واخضعوا معظم المعمور في بضع وعشرين سنة ووجهتهم دينية وسلاحهم التقوى والحق والعمل بالكتاب والسنة وغايتهم نشر الدين والتماس الثواب في الآخرة وحكومتهم بالانتخاب والشورى وسترى في سياسة بني أمية ما يخالف ذلك من كل الوجوه

انتقال الخلافة الى الامويين

لما طمع بنو أمية في الخلافة كانت قد افضت الى علي بن ابي طالب صهر النبي وابن عمه والمسلمون يعتقدون انه أحق الناس بها لقرابته من النبي وتقواه وشجاعته وعلمه وسابقته في الاسلام وفضله في تأييده • فتصدى له معاوية بن ابي سفيان وكان أبوه وأخوته من أشد الناس مقاومة للاسلام عند ظهوره ولم يسلموا الاّ بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة وانما اقدموا على ذلك مضطرين لما رأوا الاسلام قد تأيد في جزيرة العرب ولم يبق سبيل الى مقاومته

وكان ابو سفيان والد معاوية زعيم اهل مكة وقد حارب النبي في عدة أماكن وجاهر بعدواته وطعن فيه فلما ظفر المسلمون في غزواتهم واشتد ازرهم وهموا بفتح مكة ومشوا حتى اقبلوا عليها كان ابو سفيان وبعض كبراء قريش قد خرجوا منها يتجسسون • فلقيهم العباس عم النبي فقال له ابو سفيان وقد اسقط بيده « لقد اصبح امر ابن اخيك عظيماً » فاشار عليه العباس ان يستأمن فلم ير له حيلة في غير ذلك فاستأمن ثم فتحت مكة ولم يكن له بدٌّ من الاسلام فاسلم هو وأولاده وفيهم معاوية وقد تألفهم النبي بالعطاء ليثبتوا في اسلامهم [1]

---

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب

المنافسة بين أمية وهاشم

والسبب في طلب معاوية للخلافة متصلٌ بالجاهلية . وذلك ان بني عبد مناف هم اشرف بطون قريش واكثرهم عدداً وقوة وهم فخذان بنو امية وبنو هاشم وكان بنو امية اكثر عدداً من بني هاشم واوفر رجالاً وكان لهم قبل الاسلام شرف معروف انتهى الى حرب ابن امية والد ابي سفيان وجد معاوية . وكان حرب المذكور رئيسهم في واقعة الفجار قبل الاسلام وله جاهٌ وشوكة في الفخذين جميعاً . فلما جاء الاسلام والنبي من بني هاشم شق ذلك على بني امية وكانوا من اقوى الساعين في مقاومته فلم يفلحوا . ولكنهم حملوا النبي على الفرار من مكة الى المدينة وقد نصره الانصار هناك وهم من القحطانية حتى استتمَّ له الامر وقد مات عمه ابو طالب وهاجر بنوه مع النبي الى المدينة . ثم لحقهم اخوه حمزة ثم العباس وغيرهُ من بني عبد المطلب وسائر بني هاشم فخلا الجو لبني امية في مكة واستغلظت رئاستهم في قريش وزادت سطوتهم بعد واقعة بدر اذ هلك فيها عظماء قريش من سائر البطون . فاستقل ابو سفيان بشرف امية بمكة والتقدم في قريش وكان رئيسهم في واقعة أُحد وقائدهم في واقعة الاحزاب وما بعدها . فلما استفحل امر المسلمين وفتحوا مكة واستأمن ابو سفيان كما تقدم رأى النبي من حسن السياسة ان يمنَّ على قريش كافة بعد ان ملكهم بالفتح عنوةً فمنَّ عليهم واطلق سبيلهم وقال « اذهبوا فانتم الطلقاء » وفيهم معاوية فاسلموا جميعاً

فلما مات النبي وتولى الخلافة ابو بكر جاء القرشيون ومعظمهم من بني امية وشكوا اليه ما وجدوه في انفسهم من التخلف عن رتب المهاجرين والانصار فقال لهم ابو بكر « لقد جئتم الاسلام متأخرين فادركوا اخوانكم في الجهاد » فجاهدوا في حروب الردة . ولما تولى عمر ابن الخطاب ادرك ما في نفوسهم فخاف بقاءهم في المدينة فرمى بهم الروم ورغبهم في الشام فاستعمل يزيد بن ابي سفيان عليها فانتقل معه سائر قريش واستطابوا فاكهة الشام فاقاموا فيها حتى توفي يزيد المذكور فولى عمر مكانه اخاه معاوية . ولما تولى عثمان سنة ٢٣ هـ أقرَّ معاوية على الشام فاتصلت رئاسة بني امية على قريش في الاسلام كما كانت في الجاهلية وبنو هاشم مشتغلون بالنبوة وقد نبذوا الدنيا

معاوية وعلي

وكان بنو امية ينظرون الى ما ناله بنو هاشم بالنبوة من السلطان والجاه ويتوقعون فرصة للقبض على ازمة الملك . فلما قتل عمر بن الخطاب وامر بالشورى اختار الصحابة عثمان بن عفان

وهو من بني امية ولا يخلو فوزهم بهذا الانتخاب من دسيسة أموية. وكان عثمان ضعيفاً يؤثر ذوي قرابته في مصالح الدولة فاغتنم الامويون ضعفه وتولوا الاعمال واستأثروا بالاموال فشق ذلك على سائر الصحابة فنقموا عليه وقتلوهُ

فاتخذ الامويون قتلهُ ذريعة للقبض على الخلافة ورئيسهم معاوية بن ابي سفيان عامل عثمان على الشام ومعه رجال قريش. وكان اهل المدينة قد بايعوا علي بن ابي طالب وجمهورهم الانصار فاصبح المسلمون يومئذ حزبين رئيسيين (١) الانصار ويريدون الخلافة لاهل بيت النبي جرياً على نصرتهم اياه يوم هجرته (٢) قريش في الشام ويطلبونها لمعاوية ابن زعيمهم في الجاهلية. وجمهور الصحابة يرون الحق لعلي فلم يرَ معاوية سبيلاً الى نيل بغيته الاَّ بالدهاء والتدبير وكان ادهى اهل زمانه بلا منازع فنظر في الامر نظر رجل يطلب الملك كما يطلبهُ اهل المطامع وطلاب السيادة في كل عصر بلا علاقة بالدين وقد ساعدهُ على ذلك ان خصمه علياً كان يعتبر الخلافة منصباً دينياً وهو زاهد في الدنيا لا مطمع له في غير الثواب والحسنى. وان رجال معاوية قد ذهبت منهم حرمة الدين ونسوا دهشة النبوة وذاقوا لذة الثروة وتعودوا السيادة فاتسعت مطامعهم. فاثمرت مساعي معاوية في اصطناع الاحزاب بقاعدة ذكرها في حديث دار بينه وبين عمرو بن العاص فقال معاوية «لو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت» فقال عمرو «وكيف ذلك ياامير المؤمنين» قال «ان هم شدُّوا أرخيت واذا ارخوا شددت»

فاول شيء فعله معاوية انه استعان بثلاثة من كبار الصحابة يعدُّهم المؤرخون ادهى رجال العرب ومعاوية ادهاهم جميعاً وهم عمرو بن العاص وزياد بن ابيه والمغيرة بن شعبة ولولاهم لم يستتب له الامر لا ابن العاص احتال في نجاته من واقعة صفين بعد ان كادت الدائرة تدور عليه اذ ظهرت جيوش علي على جيوشه فاشار عليه عمرو بن العاص ان يرفع المصاحف لايقاف الحرب ثم اشار بالتحكيم وخدع ابا موسى الاشعري نائب علي في ذلك التحكيم فخلع علياً وبايع معاوية. ونال عمرو في مقابل ذلك ولاية مصر طعمة له طول العمر[1] وزياد بن ابيه رجل لا يعرف له اب فلما رأى معاوية دهاءهُ قربه منه وادعى انهُ اخوه واستلحقهُ بنسبه وسماه زياد بن ابي سفيان في حديث طويل ذكرنا خلاصتهُ في ما تقدم. واستلحاق زياد اول عمل ردَّت به اعلام الشريعة الاسلامية علانية[2] وكان زياد عوناً كبيراً لمعاوية في حفظ العراق وفارس. اما المغيرة بن شعبة

(١) المقريزي ٣٠٠ ج ١ (٢) ابن الاثير ٢٢٥ ج ٣

فهو اول من ضرب الزيوف في الاسلام واول من رشى [١] وهو الذي حرض معاوية على مبايعة ابنه يزيد وجعل الخلافة وراثيه في نسله وساعده على ذلك

فهؤلاء وغيرهم من كبار القواد اكتسب معاوية مساعدتهم بالدهاء والاطماع فاطعم ابن العاص مصر واطعم المغيرة فارس وجعل زياداً اخاه وكان يتساهل في محاسبة عماله ويغضي عن سيئاتهم [٢] ويبالغ في اكرامهم . ولو رأوا من علي بعض ذلك لكانوا معه ولكن علياً كان دقيقاً في محاسبتهم متصلباً برأيه لا يحيد عما يقتضيه ضميره — كذلك كان يفعل ابو بكر وعمر ولكن المسلمين كانوا في ايامهما لا يزالون في ابان الحمية الدينية والاريحية العربية ينصاعون لاوامر خليفتهم بكلمة ولذلك عدُّوا تصرف علي ضعفاً منه وبعد ان كانوا معه فلما رأوا ضعفه انحازوا الى معاوية واولهم المغيرة بن شعبة فهذا جاء علياً يوم بويع ومعاوية واقف له بالمرصاد فاشار عليه ان يحاسن معاوية ولا يعزله عن عمله في الشام ريثما يستتب له الامر فيعزله اذا شاء . فلم يطعه علي فعاد اليه في اليوم التالي وخادعه واشار عليه ان يعزل معاوية ويفعل كما يشاء ثم انحاز المغيرة الى معاوية وصار من اكبر انصاره

وقس على ذلك تصرف علي مع ابن عمه عبدالله بن عباس وكيف كدره واخرجه من حوزته بتدقيقه كما تقدم . ولما قتل علي خلفه ابنه الحسن فرأى نفسه عاجزاً عن منازلة معاوية فتنازل له عن الخلافة سنة ٤١ هـ فرسخت قدم معاوية فيها . وسار بنو امية بعده على خطته وسار العلويون على خطة علي وكان الفوز دائماً لاهل الدهاء فقضى العلويون معظم ايامهم خائفين شاردين ومات اكثرهم قتلاً مع انهم اهل تقوى ودين وحق واولئك في الضد من ذلك — مما يدلك على ان السياسة والدين لا يلتحمان الا نادراً وما التحامهما ايام الراشدين الا فلتة قلما يتفق مثلها . على اننا لا نعدُّ دولة الراشدين حكومة سياسية وانما هي خلافة دينية

رغبة بني امية في السيادة

ان المحور الذي كانت تدور عليها سياسة بني امية والغرض الذي كانوا يرمون اليه انما هو احراز الخلافة والرجوع الى السيادة التي كانت لهم في الجاهلية بقطع النظر عن وعورة المسالك المؤدية الى ذلك او وخامة الاسباب التي تمسكوا بها . وقد فازوا بغايتهم فاتسعت

(١) المعارف ١٨٩ (٢) ابن الاثير ٢٦٠ ج ٣

المملكة الاسلامية في ايامهم واشتدت شوكتها ما لم تبلغ اليه دولة العباسيين بعدها [١] وكانوا يطلبون السلطة على ان لا يشاركهم فيها احدٌ وكان اشدهم فتكاً عبد الملك بن مروان يقول « لا يجتمع فحلان في اجمة » [٢]

فرغبة بني امية في السلطة على هذه الصورة مع وجود من هو احق منهم بها جرَّهم الى ارتكاب امور آلت الى توجيه المطاعن عليهم · وقد ظهرت هذه الدولة وتغلبت على سائر طلاب الخلافة في ايامهم بشيئين العصبية القرشية واصطناع العصبيات او الاحزاب الاخرى وهما اساس كل ما ظهر من سياسة بني امية كما سترى

العصبية العربية في عصر الامويين

العرب وقريش

كانت العصبية العربية في الجاهلية بين القبائل بحسب الانساب فلما جاء الاسلام تنوسيت تلك العصبية واجتمع العرب كافة باسم الاسلام او الجامعة الاسلامية · وما زالت الجامعة الاسلامية تشمل العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم طول ايام الخلفاء الراشدين · حتى اذا طمع بنو امية بالملك وقبضوا على ازمة الخلافة استبدوا وتعصبوا للعرب وحافظوا على مقتضيات البداوة وتمسكوا بعاداتها فظلت خشونة البادية غالبة على حكومتهم وظاهرة في سياستهم مع ذهاب مناقب البدو التي ذكرناها · وانما حفظوا من احوال جاهليتهم تعصبهم لقبيلتهم (قريش) وايثار اهلهم على سواهم · فجاشت عوامل الحسد في نفوس القبائل التي كان لها شان في الجاهلية وضاع فضلها في الاسلام وخصوصاً اهل البصرة والكوفة والشام لان اكثر العرب الذين نزلوا هذه الامصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي ولا هذبتهم سيرته ولا ارتاضوا بخلقه مع ما كان فيهم من جفاء الجاهلية وعصبيتها · فلما استفحلت الدولة اذا هم في قبضة المهاجرين والانصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل واهل الحجاز ويثرب فاستنكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لانفسهم من التقدم بانسابهم وكثرتهم ومصادمة فارس والروم مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس من ربيعة وكندة والازد من اليمن وتميم وقيس من مضر فصاروا الى الغض من قريش والانفة عليهم فعادت العصبية الى نحو ما كانت عليه في الجاهلية

(١) الفخري ٢٥ (٢) ابن الاثير ٩١ ج ٦

بدأت هذه العصبية بتعصب العرب كافة على قريش حسداً لهم كما ذكرنا ولاستبدادهم في السلطة دون سائر الصحابة او التابعين مع استئثارهم بالفيء — الا الذين تألفهم معاوية من القبائل اليمنية اوالعدنانية — واول خلاف وقع بين المسلمين من هذا القبيل حدث في ايام عثمان — ذلك ان سعيد بن العاص لما ولاه عثمان الكوفة اختار وجوه الناس واهل القادسية وقراء اهل الكوفة لمجالسته فكانوا يسمرون عنده وفيهم جماعات من كل القبائل . وكان بنو امية وغيرهم من الصحابة قد اخذوا في امتلاك العقار وبناء المنازل وبنو امية اطول باعاً يومئذ في ذلك لقرابتهم من الخليفة . فاتفق في احدى مسامراتهم عند سعيد بن العاص ان بعضهم ذكر جود طلحة بن عبيد الله احد كبار الصحابة فقال سعيد « ان من له مثل النشاستج لحقيق ان يكون جواداً ولو كان لي مثله لأعاشكم الله به عيشاً رغداً » والنشاستج ضيعة في الكوفة كانت لطلحة وهي عظيمة كثيرة الدخل اشتراها من اهل الكوفة المقيمين بالحجاز بمال كان له بخيبر وعمرها فعظم دخلها [1]

فلما قال سعيد ذلك قام غلامٌ من الحضور فقال له « لوددت ان هذا الملطاط لك » والملطاط ما كان للاكاسرة على جانبي الفرات مما يلي الكوفة . فنهض بعض الحاضرين من غير قريش وانتهر الغلام فاعتذر ابوه عنه وقال « غلام فلا تجازوه » فقالوا « كيف يتمنى له سوادنا » اي سواد العراق . فقال سعيد « السواد بستان قريش » وكان الاشتر النخعي حاضراً وهو من اليمنية وكان شديد التعصب لعلي بن ابي طالب فغضب وقال لسعيد « اتزعم ان السواد الذي افاءه الله علينا باسيافنا بستان لك ولقومك » فقام عبد الرحمن الاسدي صاحب شرطة سعيد فقال للاشتر « اتردُّون على الامير مقالته » واغلظ لهم فاشار الاشتر الى رفاقه فوثبوا على الرجل فوطأوه وطأً شديداً حتى غشي عليه ثم جروا برجله ونضحوه بالماء فافاق فنظر الى سعيد وقال « ان الذين انتخبتهم لمسامرتك قتلوني » فقال سعيد « والله لا يسمر عندي احد ابداً » [2]

فوقعت الوحشة بين قريش وسائر القبائل من ذلك الحين وخصوصاً بينهم وبين اليمنية ومنهم الانصار . وثبت الانصار في نصرة اهل البيت ضد اهلهم من قريش مثلما فعلوا في اول الاسلام اذ جاءهم النبي مهاجراً فراراً من اهله . ولما جرت واقعة صفين سنة ٣٧ هـ بين علي ومعاوية عدُّوها بين اليمنية (الانصار) وقريش . فلما احتدم القتال في تلك الواقعة قال رجل يمني من انصار علي « ايها الناس هل من رائح الى الله تحت العوالي

---

(١) ياقوت ٧٨٣ ج ٤ (٢) ابن الاثير ٩٧ و٧٢ ج ٣

والذي نفسي بيده لنقاتلكم على تأويله (القرآن) كما قاتلناكم على تنزيله » وتقدم وهو يقول :

نحن ضربناكم على تنزيله   واليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله   ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق الى سبيله [1]

القبائل اليمنية والمضرية

ثم صار اكثر اليمنية شيعة علي وانصاره الا الذين تألفهم معاوية بالعطاء لعلمه ان اكتفاءه بقريش ونحوهم لا يجديه نفعاً فقرب منه قبيلة كلب وتزوج منها بجدل ام يزيد ابنه واستنصرهم على قتلة عثمان لان امرأة عثمان كانت كلبية واستغواهم بالمال فحاربوا معه ولما فاز في حروبه ورسخت قدمه في الخلافة تقربت منه قبائل كثيرة من مضر واليمن وظلت كلب على نصرة يزيد ابنه بعده لانهم اخواله

فلما مات يزيد وابن الزبير في مكة يطالب بالخلافة واختلف بنو امية على اختيار خالد ابن يزيد او مروان بن الحكم (وكلاهما من امية) ووقع الخصام بين دعاة ابن الزبير ودعاة بني امية كان انصار ابن الزبير من قيس (مضرية) يدعون لابن الزبير وانصار بني امية بنو كلب (يمنية) يدعون لخالد بن يزيد لانه ابن اختهم · ونهض اناس من بني امية فاعترضوا على صغر سن خالد فاجمعوا على بيعة مروان لشيخوخته على ان تكون الخلافة بعده لخالد · ثم جرت واقعة مرج راهط بين اصحاب مروان واصحاب ابن الزبير اي بين كلب وقيس وفاز مروان وثبتت قدمه في الخلافة · ثم توفي مروان ولم يف لخالد فخلفه ابنه عبد الملك بن مروان الشديد الوطأة وظلت كلب معه وقيس مضطغنة عليه وانقسم العرب في سائر انحاء المملكة الاسلامية بين هذين الحزبين قيسية وكلبية او مضرية ويمنية او نزارية وقحطانية · وقامت المنازعات بينهما في الشام والعراق ومصر وفارس وخراسان وافريقيا والاندلس · وفي كل بلد من هذه البلاد وغيرها حزبان مضري ويمني تختلف قوة احدهما او الآخر باختلاف الخلفاء او الامراء او العمال · فالعامل المضري يقدم المضرية والعامل اليمني يقدم اليمنية ويختلف ذلك باختلاف الاحوال وله تاثير في كل شيء من تصاريف احوالهم حتى في تولية الخلفاء والامراء وعزلهم وكثيراً ما كانت الولاية والعزل موقوفين على انحياز احد هذين الحزبين

(١) المسعودي ١٦ ج ٢

فقد رأيت ان قبيلة قيس كانت على عبد الملك بن مروان ولكنها كانت اول نصير لابنه هشام فنصرته فقربها والحقها بالديوان اي فرض لاهلها الرواتب والجرايات · وفي ايامه نقل كثير من بطونها واتخاذها الى بلاد الاسلام وخصوصاً مصر والشام · وفي ايام هشام ارتفع شأن القيسية وصارت سائر المضرية انصاراً لبني أمية ولا سيما لما قتل الوليد بن يزيد وأمه قيسية [1] فقام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية يطالب بدمه رغبة في نصرتهم ليشتد ازره بهم فاجمع المضرية على نصرة مروان وما زالوا كذلك الى آخر ايامه فلما قامت شيعة بني العباس كانت اليمنية من انصارها

وكان تحت هذين الحزبين الكبيرين احزاب فرعية تتخاصم وتتحارب · على ان مقام قريش ما زال في كل حال محفوظاً ومفضلاً على مقام سائر القبائل شرفاً ونفوذاً فكانوا اذا خافوا عصيان بعض الولايات على عاملها ولوا عليها عاملاً من بني قريش فيذعنون له ويجمعون على طاعته [2]

على ان قريشاً كانوا منقسمين فيما بينهم واهم انقساماتهم بين أمية وهاشم فكان الناس يتعصبون لاحدهما على الآخر تبعاً لغرضه او وطنه وكثيراً ما كانوا يتشاجرون في هذا السبيل فيشغلون اوقاتهم بالمناظرة والمفاخرة حتى تحتدم نار الخصام وتتحول الى حرب يطير شرارها وتسفك فيها الدماء · وكانت قوة بني هاشم في الحجاز والعراق وقوة بني أمية في الشام ويختلف هذا التحديد باختلاف العصور · وكثيراً ما كان الخصام يبدأ بين الشعراء واشتهر بعضهم على الخصوص في هذه المطاعنات واشهر مناظراتهم في هذا السبيل ما كان بين سديف الشاعر الذي ينتسب بولائه الى بني هاشم فقد كان يتعصب لهم وسياب الشاعر وكان يتعصب لبني أمية فكان هذان الشاعران يخرجان الى ظاهر مكة يذكران المثالب والمعائب والناس ينقسمون في التعصب لهما حتى تولد من ذلك عصبتان كبيرتان عرفتا بالسديفية والسيابية وتواصل ذلك الى ايام الدولة العباسية وتغير اسماها الى الخناطين والجزارين [3] وسديف هذا هو الذي قال شعراً بين يدي السفاح قتل به سليمان بن هشام الاموي

(١) ابن الاثير ١٥٩ ج ٥ (٢) ابن الاثير ١٧٨ ج ٥

(٣) الاغاني ١٦٢ ج ١٤

عصبية العرب على العجم

وكما كان القرشيون في ايام بني أمية مقدمين على سائر قبائل العرب فان العرب على الاجمال كانوا مقدمين على سائر الامم الذين دانوا للمسلمين • ولم يكن هؤلاء يستكفون من ذلك بل كانوا يعتقدون فضل العرب في اقامة هذا الدين وانهم مادته وأصله ولا كانوا يأنفون من ان يسموا العرب أسيادهم ويعدوا انفسهم من مواليهم بل كانوا يعدون طاعتهم وحبهم فرضاً واجباً عليهم عملاً بالحديث المأثور « من ابغض العرب ابغضه الله »[1] وكثيراً ما كانوا يعترفون بفضلهم عليهم في العقل والحزم وسائر المناقب — فان عبد الله بن المقفع المنشيء الشهير وكان عريقاً في النسب الفارسي ضمه مجلس في بيت بعض كبراء الفرس بالبصرة وفيه جماعة من اشراف العرب فتصدى هو للكلام فسأل بعض الحضور « اي الامم اعقل » فظنوه يريد أمته فقالوا « فارس » فقال « كلا لانهم وان ملكوا الارض وضخمت دولتهم لكنهم لم يستنبطوا شيئاً بعقولهم » فقالوا « الروم » فقال « لا » وما زالوا يذكرون له أمم تلك الاعصر واحدة بعد واحدة وهو يقول « لا » حتى سئموا فقالوا « قل انت » قال « العرب • واذا فاتني حظي من النسبة اليهم فلا يفوتني حظي من معرفتهم • ان العرب حكمت على غير مثال مثل لها ولا آثار أثرت عليها اصحاب ابل وغنم وسكان شعر وادم يجود احدهم بقوته ويتفضل بمجهوده ويشارك في ميسوره ومعسوره ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ويفعله فيصير حجة ويحسن ما شاء فيحسن ويقبح ما شاء فيقبح ادبتهم انفسهم ورفعتهم هممهم وأعلتهم قلوبهم والسنتهم فلم يزل حباء الله فيهم وحباؤهم في انفسهم حتى رفع لهم الفخر وبلغ بهم اشرف الذكر وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر وافتتح دينه وخلافته بهم الى الحشر على الخير فيهم ولهم »

العرب والموالي

فكان العرب يزدادون بامثال هذه الاقوال افتخاراً على سائر الامم وخصوصاً على المسلمين منهم فكانوا يترفعون عنهم ويسمونهم الموالي كما تقدم • ومن اقوال اهل العصبية للعرب على العجم « لو لم يكن منا على المولى عتاقة ولا احسان الا استنقاذنا له من الكفر واخراجنا له من دار الشرك الى دار الايمان كما في الاثر — ان قوماً يقادون الى حظوظهم بالسواحير • وكما قال — عجب ربنا من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل • على انا تعرضنا للقتل فيهم فمن اعظم عليك

(١) العقد الفريد ٤٢ ج ٢

نعمة ممن قتل نفسه لحياتك فالله امرنا بقتالكم وفرض علينا جهادكم ورغبنا في مكاتبتكم »

وكانوا يكرهون ان يصلوا خلف الموالي واذا صلوا خلفهم قالوا اننا نفعل ذلك تواضعاً لله . وكان نافع بن جبير التابعي الشهير اذا مرت به جنازة قال « من هذا » فاذا قالوا « قرشي » قال « وا قوماه » واذا قالوا « عربي » قال « وا بلدتاه » واذا قالوا « مولى »قال « هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء »[1] وكانوا يقولون « لا يقطع الصلاة الا ثلاثة حمار او كلب او مولى » وكانوا لا يكنونهم بالكني ولا يدعونهم الا بالاسماء والالقاب ولا يمشون في الصف معهم ولا يتقدمونهم في المواكب وان حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم وان اطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه اجلسوه في طريق الخباز لئلا يخفي على الناظر اليه انه ليس من العرب ولا يدعونهم يصلون على الجنائز اذا حضر احد من العرب — وسيأتي الكلام على احكام الموالي في هذا العصر

وكان العرب في ايام هذه الدولة يترفعون عن سائر الامم من الموالي واهل الذمة و يعدون انفسهم فوقهم جبلة وخلقة وفضلاً وكانوا يسمونهم « الحمراء » كما تقدم وربما ارادوا بالحمراء الموالي على الخصوص . فكان العربي يعدُّ نفسه سيداً على غير العربي و يرى انه خلق للسيادة وذاك للخدمة ولذلك لم يكن العرب يشتغلون في صدر الاسلام الا بالسياسة والحكومة وتركوا سائر الاعمال لسواهم وخصوصاً المهن والصناعات . ومن امثالهم « ان الحمق في الحاكة والمعلمين والغزالين » لانها صنائع اهل الذمة [2] وتخاصم عربيٌّ ومولى بين يدي عبدالله بن عامر صاحب العراق فقال المولى « لا كثر الله فينا مثلك » فقال العربي « بل كثر الله فينا مثلك » فقيل له « ايدعو عليك وتدعو له » قال « نعم يكسحون طرقنا و يخرزون خفافنا و يحوكون ثيابنا » [3]

ولم يكن العرب يعتنون بشيء من العلم غير الشعر والتاريخ لانه لازم للسيادة والفتح واما الحساب والكتابة فقد كانت من صنائع الموالي واهل الذمة ولذلك كان العمال في ايام بني امية مع تعصبهم للعرب قلما يولونهم الدواوين لانهم كانوا لا يكتبون ولا يحسبون [4]

وكان الامويون في ايام معاوية يعدُّون الموالي اتباعاً وارقاء وتكاثروا فادرك معاوية الخطر من تكاثرهم على دولة العرب فهم ان يأمر بقتلهم كلهم او بعضهم . وقبل مباشرة ذلك استشار بعض كبار الامراء من رجال بطانته وفيهم الاحنف بن قيس وسمرة بن جندب فقال لهما

(١) العقد الفريد ٧٣ ج ٢ (٢) البيان والتبيين ١٠٠ ج ١
(٣) العقد الفريد ٧٣ ج ٢ (٤) المسعودي ١١٤ ج ٢

« اني رأيت هذه الحمراء (يعني الموالي) واراها قد قطعت على السلف وكأني انظر الى وثبة منهم على العرب والسلطان فرأيت ان اقتل شطرًا وادع شطرًا لاقامة السوق وعمارة الطريق فما ترون » فقال الاحنف « ارى ان نفسي لا تطيب . . اخي لامي وخالي ومولاي وقد شاركناهم وشاركونا في النسب » واما سمرة فأشار بقتلهم وطلب ان يتولى ذلك هو بنفسه فرأى معاوية ان الحزم في رأي الاحنف فكفَّ عنهم . فاعتبر مقدار استخفاف العرب بسواهم وكيف يخطر للخليفة ان يقتل شطرًا منهم بغير ذنب اقترفوه كأنهم من الاغنام

وكأن العرب سكروا بخمرة السيادة والنصر بارتقائهم من رعاية الابل الى سياسة الممالك في بضعة عشر عامًا فتوهموا في فطرتهم ما ليس في سواهم من المناقب والسجايا كما توهم الرومان قبلهم وكما يتوهم اهل هذا العصر في بعض الامم السائدة فيعتقدون امتيازها باصل فطرتها عن سائر الامم — فتوهم العرب في انفسهم الفضل على سائر الامم حتى في ابدانهم وامزجتهم فكانوا يعتقدون انه لا تحمل في سن الستين الا قرشية ولا تحمل لخمسين الا عربية كما تقدم وان الفالج لا يصيب ابدانهم ولا يضرب احدًا من ابنائهم الا ان يبذروا بذورهم في الروميات والصقلبيات وما اشبههن فيعرض الفالج لمن يلدنه [1] ولذلك كانوا في ايام بني امية شديدي العناية في حفظ انسابهم من شوائب العجمة ومنعوا غير العرب من المناصب الدينية المهمة كالقضاء فقالوا « لا يصلح للقضاء الا عربي » [2] وحرموا منصب الخلافة على ابن الامة ولو كان ابوه قرشيًا وكان ذلك من جملة ما احتج به هشام على يزيد بن علي بن الحسين اذ قام يطلب الخلافة لنفسه فقال له هشام بن عبد الملك « بلغني انك تخطب الخلافة ولا تصلح لها لانك ابن امة » [3] مع ان امه من بنات ملوك فارس . واول من ولي الخلافة من ابناء الاماء يزيد ابن الوليد الاموي سنة ١٠١ هـ وكانوا يسمون العربي من ام اعجمية « الهجين » ولا يزوّجون الاعجمي عربية ولو كان اميرًا وكانت هي من احقر القبائل . فان بعض دهاقين الفرس اراد ان يتزوّج امرأة من باهلة كانت في بعض قصور الترك فأبت مع ان باهلة من احقر قبائل العرب . ولم يكن اثقل على طباعهم من استرقاق العربي [4]

وكان فضل العرب على سواهم قضية مسلّمة في صدر الاسلام لاتحتاج الى دليل . فلما بالغ بنو امية في الاستخفاف بغير العرب وقد ذهبت دهشة النبوة اخذ هؤلاء في التذمر

(١) طبقات الاطباء ١٥٠ ج ١ والاغاني ٨٨ ج ١٥ (٢) ابن خلكان ٢٠٥ ج ١
(٣) سراج الملوك على هامش مقدمة ابن خلدون ٢٨٨
(٤) ابن الاثير ٤٤ و ١٣١ ج ٥

ونصروا آل علي والخوارج وغيرهم من اعداء الامويين وهان عليهم الرد على العرب في مفاخراتهم فنشأ من ذلك طائفة يعرفون بالشعوبية لا يعترفون بفضل العرب على سواهم وتصدوا لدفع حجج القائلين بفضل العرب على سائر الشعوب . ولم يكن الشعوبية يستطيعون الظهور في ايام بني امية [1] فلما افضت الخلافة الى بني العباس وانحط شان العرب بعد قتال الامين والمامون ظهروا وألفوا الكتب في مثالب العرب كما سيأتي

آثار بني امية في الاسلام

فالدولة الاموية كانت شديدة الحرص على منزلة العرب كثيرة العناية في حفظ الانساب فجعلت في كل ديوان من دواوينها سجلاً يقيدون فيهِ من يولد من ابناء العرب المقيمين في البلاد المفتوحة [2] . وهي التي جعلت الاسلام دولة وقد كان في ايام الراشدين ديناً فصار على عهد الامويين عصبية وسيفاً ثم صار دولة ايدوها بنشر اللغة العربية في المملكة الاسلامية بنقل الدواوين من القبطية والرومية والفارسية الى العربية . وبعد ان كانت مصر قبطية والشام رومية والعراق كلدانية او نبطية اصبحت هذه البلاد بتوالي الاجيال عربية النزعة وتنوسيت لغاتها الاصلية وهي تعدُّ الآن من البلاد العربية . واذا نزلها التركي او الافرنجي او غيرهما من اي امة كانت وتوالد فيها عدَّ نسله عربيًّا

وظل العرب في ايام بني امية على بداوتهم وجفائهم . وكان خلفاؤُها يرسلون اولادهم الى البادية لاتقان اللغة واكتساب اساليب البدو وآدابهم [3] وظل كثير من عادات الجاهلية شائعة في ايامهم كالمفاخرة والمباهلة ومناشدة الاشعار في الاندية العمومية فكان اشراف اهل الكوفة يخرجون الى ظاهرها يتناشدون الاشعار و يتحادثون و يتذاكرون ايام الناس . وكان خارج البصرة بقعة يقال لها المربد يجتمع اليها الناس من البصرة وغيرها يتناشدون الاشعار و يتحادثون [4] كما كانوا يفعلون في عكاظ . وكان في المربد حلقات للعلماء او الشعراء يجتمع عليهم الطلبة او المربدين في جملتها حلقة كانت لراعي الابل والفرزدق وجلسائهما باعلى المربد [5] وقس على ذلك ما كان يقع هناك من المفاخرة والمناضلة كأنهم رجعوا بعصبيتهم الى ما كانوا عليه قبل الاسلام . ولم يبلغ العرب من العز والسؤدد ما بلغوا اليهِ في ايام هذه الدولة وقد تكاثروا على عهدها وانتشروا في ممالك الارض

---

(١) الاغاني ١٢٥ ج ٤ (٢) المقريزي ٩٤ ج ١
(٣) العقد الفريد ٢٥٨ ج ٢ (٤) الاغاني ١٥٣ ج ١٩
(٥) الاغاني ١٦٩ ج ٢٠

العصبية الوطنية في عصر الامويين

لم يكن للعرب قبل الاسلام جامعة وطنية يجتمعون بها او يدافعون عنها لانهم كانوا لايستقرون في وطن لتغلب البداوة على طباعهم وتنقلهم بالغزو والرحلة . فلما اسلموا وفتحوا البلاد ومصروا الامصار وابتنوا المدن واقاموا فيها تحضروا ونشأت فيهم الغيرة على تلك المواطن والدفاع عنها والتعصب لها وهي ماعبرنا عنه بالعصبية الوطنية

تحضر العرب بعد الفتح

وقد تدرج العرب الى الحضارة تدريجاً ولم يكن ذلك مقصوداً في بادىء الرأي وانما سيقوا اليه بطبيعة العمران لانهم كانوا في صدر الاسلام لايزالون على بداوتهم واذا ساروا للفتح ساقوا معهم اولادهم ونساءهم وابلهم وسائمتهم كما كانوا يتغازون في ايام جاهليتهم واذا فتحوا بلداً انصبوا خيامهم في ضواحيه مما يلي المدينة (مركز الخلافة) وقد نهاهم عمر عن الزرع فكأنه نهاهم عن التحضر رغبة منه في استبقائهم جنداً محاربا لا يمنعهم عن الجهاد عقار ولا بناء ولا يقعدهم عن القتال ترف ولا قصف . فكانوا يقيمون في معسكراتهم بضواحي المدن كما يقيم جيوش الاحتلال في هذه الايام وكانوا يعبرون عن ذلك بالحامية او الرابطة . فكان المسلمون في عصر الراشدين فرقاً تقيم كل فرقة في ضاحية مدينة من المدن الكبرى وتسمى جنداً وكانت عساكر الشام اربعة اجناد تقيم في ضواحي دمشق وحمص والاردن وفلسطين ومنها تسمية هذه الاقاليم بالاجناد . وعساكر العراق كانت تقيم على ضفاف الفرات مما يلي جزيرة العرب في معسكرين صارا بعدئذ مدينتين هما البصرة والكوفة . وكانت جنود مصر تقيم في معسكر على ضفاف النيل في سفح المقطم مما يلي بلاد العرب حيث بنيت الفسطاط بعد ذلك

وكان العرب (او المسلمون) يقيمون في تلك المعسكرات بأولادهم ونسائهم لايختلطون بأهل القرى حتى اذا جاء الربيع يسرحون خيولهم للمرعى في القرى يسوقها الاتباع من الخدم او العبيد ومعهم طوائف من السادات . فاذا فرغوا من رعاية الخيل عادوا الى خيامهم وهم الى ذلك الحين اهل بداوة وغزو ومركز دولتهم في المدينة وفيها مقر الخليفة ومرجع المسلمين عند الحاجة

فلما طال مقامهم في تلك المعسكرات وافضت الخلافة الى بني أمية ورغبوا في الشام عن الحجاز هان على المسلمين اغفال امر المدينة وسائر الحجاز وطاب لهم المقام في الشام

وسائر الامصار واغفلوا وصية عمر فاقتنوا الارضين والضياع وغرسوا المغارس فتحولت تلك المعسكرات بتوالي الاجيال الى مدن عامرة اشهرها البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان من المدن التي بناها المسلمون غير المدن القديمة التي استوطنوها في الشام ومصر والعراق وفارس وغيرها. وما زالوا حتى اقتنوا المغارس والضياع وابتنوا المنازل والقصور واشتغلوا بالزرع وتعلموا أشغال اهل المدن من تجارة وصناعة

تدرجوا الى ذلك في اعوام متطاولة لاستغنائهم عن الريع لمعاشهم لانهم كانوا في صدر الاسلام شركاء في ما يرد على بيت المال من الفيء او الغنائم من العراق وغيره من البلاد المفتوحة ولكل مسلم حق من ذلك الفيء حيثما كان مقامه . فاهل المدينة مثلاً يتمتعون بفيء العراق وكذلك أهل الشام. فلما بدأوا بالاستيطان في اواخر عصر الراشدين وأراد أهل كل مصر ان يستقلوا بعصرهم كان ذلك مجحفاً بأهل المدينة لان معاشهم من فيء البلاد المفتوحة فشكوا ذلك الى الخليفة اذذاك عثمان بن عفان وطالبوه بفيئهم من الارض بالعراق فاستبدله لهم من اهل العراق بارض كانت لهؤلاء في الحجاز او اليمن او غيرهما من بلاد العرب [1]

تعصب المدن الاسلامية بعضها على بعض

ومما زاد المسلمين رغبة في العصبية الوطنية انقسام الاحزاب السياسية يومئذ باعتبار المدن . واول خلاف وقع بين بلدين اسلاميين الخلاف الذي وقع بين الشام والكوفة في ايام عثمان بن عفان [2] ثم حدث الانقسام الوطني السياسي بعد مقتله وكان اساسه الميل الى احد طلاب الخلافة يومئذ وهم علي ومعاوية وطلحة والزبير فكان اهل الشام مع معاوية لانهُ اميرهم ومعظمهم من قريش وكان اهل المدينة مع علي وهم الانصار وتبعتهم مصر وكان اهل الكوفة مع الزبير واهل البصرة مع طلحة . فلما كانت واقعة الجمل سنة ٣٦ هـ وقتل طلحة والزبير انحاز اهل العراق الى علي فضلاً عن اهل المدينة ومصر وظل اهل الشام مع معاوية . ولما كانت واقعة صفين ومسألة التحكيم سنة ٣٧ هـ وغلب عمرو بن العاص بمكره فبويع معاويةَ وتركت مصر لعمرو بن العاص صارت مصر في حوزة معاوية . ولما قتل علي سنة ٤٠ هـ ومات الحسن ثم قام الحسين يطالب بالخلافة بعد موت معاوية وخلافة يزيد استعان الحسين باهل العراق وسافر اليهم فبايع اهل الحجاز لابن الزبير . فأصبح الحجاز مع ابن الزبير والعراق مع الحسين والشام ومصر مع معاوية

(١) ابن الاثير ٥٢ ج ٣ وياقوت ٧٨٣ ج ٤ (٢) ابن الاثير ٦٥ ج ٣

وقس على ذلك انحياز تلك البلاد الى الخلفاء باختلاف الاحوال فاصبح لكل بلد بتوالي الاعوام استقلال خاص وعوائد خاصة تميزه عن سواه على انها كانت تمتاز بعضها عن بعض في ذلك من ايام معاوية فقد سأل معاوية ابن الكواء عن اهل الامصار فقال « اهل المدينة احرص الامة على الشر واعجزهم عنه واهل الكوفة يردون جميعاً و يصدرون شتى واهل مصر اوفى الناس بشرٍ واسرعهم الى ندامة واهل الشام اطوع الناس لمرشدهم واعصاهم لمغويهم »

وكان لاهل كل بلد غرض خاص في السياسة عبرنا عنه بالعصبية الوطنية وهي غير عصبية النسب اذ قد يجتمع اهل البلد الواحد على غرض واحد و يعرفون بجامعة واحدة كاهل البصرة والكوفة والشام والفسطاط وهم اخلاط من قبائل شتى . فكان لكل بلد في عصر بني امية جامعة خاصة يجتمع بها و يحارب باسمها . وهو مؤلف من قبائل تختلف نسباً وعدبية وفيهم قبائل اليمن ومضر وربيعة وغيرها يقيم كل منها في حي خاص بها يعرف باسمها فكانت البصرة مثلاً مؤلفة من خمسة اقسام تعرف بالاخماس كل خمس لقبيلة وهي الازد وتميم و بكر وعبد القيس واهل العالية . والمراد باهل العالية بطون قريش وكنانة والازد و بجيلة وخثعم وقيس عيلان كلها ومزينة [1] وقس على ذلك سائر البلاد

فاذا تحارب بلدان وقفت كل قبيلة من اهل البلد الواحد امام ما يقابلها من قبيلتها في البلد الآخر . ففي واقعة الجمل كانت الحرب بين البصرة والكوفة فلما انتشب القتال تصدت قبائل اليمن البصرية لقبائل اليمن الكوفية ونزلت قبائل مضر الى مضر وربيعة الى ربيعة . وكذلك في واقعة صفين وهي بين اهل الشام وقائدهم معاوية واهل العراق وقائدهم علي . فلما التحم القتال سأل علي عن اهل الشام فعرف مواقفهم فاخذ يستحث من معه من القبائل على اخوانهم في معسكر عدوه فقال للازد « اكفونا الازد » وقال لخثعم « اكفونا خثعم » وامر كل قبيلة معه ان تكفيه اختها في عسكر الشام . الا ان تكون قبيلة ليس لها بالشام احد فيصرفها الى قبيلة اخرى في الشام ليس بالعراق منها احد [2] — فتأمل كيف غلبت الجامعة الوطنية على جامعة النسب وانما غلبت لان الاحوال اقتضتها فرأى الناس فيها ما يسد مطامعهم

على ان اهل البلد الواحد كانوا يختلفون عدداً ونسباً باختلاف عصبية الامير او الخليفة كما تقدم في كلامنا عن عصبية النسب . ويختلف غرض البلد الواحد باختلاف تلك الاحوال مما لاضابط له فتنتشب الحروب بين البلدين كما تنتشب بين القبيلتين . ومن اشهر حوادث الخلاف بين البلاد في صدر الاسلام خلاف اهل الكوفة والبصرة ومفاخرتهما

---

(١) ابن الاثير ٣٤ ج ٥ (٢) ابن الاثير ١٢١ و ١٤٩ و ١٧١ ج ٣

في ايام علي والخوارج كانت البصرة عثمانية والكوفة علوية والشام اموية والجزيرة خارجية والحجاز سنية [1] وتقلبت هذه الاحوال كثيرًا واختلفت باختلاف الدول. فحدث بتوالي التقلبات السياسية تعدُّد الجامعات: اولها الجامعة العصبية او جامعة النسب بين مضر واليمن والثانية جامعة الوطن بين العراق ومصر والشام والثالثة جامعة المذهب بين الفرق الاسلامية كالسنة والشيعة والمعتزلة وربما اجتمعت كل هذه الفروق في رجلين [2]

ومما ساعد على نشوء الجامعة الوطنية ان اهل الحجاز كانوا يجتمعون بالحرمين ويفاخرون المسلمين بهما لان الاسلام لا يستغني عنهما وفيها شيعة علي ولا سيما المدينة. فكان الامويون مع عداوتهم للعلويين لا يرون بدًّا من زيارة الحرمين ورعاية اهلها فيقف ذلك عثرة في سبيل سلطانهم وخصوصاً بعد ان احتمى ابن الزبير بالكعبة واخرج بني امية واحزابهم من الحجاز فلم يستطع الامويون التغلب عليه الاَّ بضرب الكعبة بالمنجنيق. ولهذا السبب خطر للامويين ان ينقلوا منبر النبي من المدينة الى الشام ليجمعوا عندهم الدين والسياسة. ولعل الحجاج بنى القبة الخضراء في واسط لمثل هذه الغاية كما بناها المنصور في بغداد بعد ذلك تصغيرًا للكعبة [3] والغرض من ذلك كله تحويل القلوب عن الحجاز وتصغير امر العلويين فلم يجدهم ذلك نفعاً

اصطناع الاحزاب في عصر الامويين

سياسة معاوية

ومما احتاج اليه بنو امية في سبيل التغلب لنيل الخلافة اصطناع الرجال واجتذاب الاحزاب كما فعل معاوية بن ابي سفيان في اكتساب نصرة عمرو بن العاص وزياد بن ابيه والمغيرة بن شعبة — اكتسبها بالدهاء والعطاء — ثم صار ذلك بعده قاعدة سار عليها بنو امية في تثبيت دعائم ملكهم والعلويون ابناء بنت النبي واحفادها ينازعونهم عليهِ. على انه لم يقم في بني امية رجل مثل معاوية بالدهاء والتعقل مما يعبر عنه اهل هذا الزمان بالسياسة. واذا قسنا اعمال هذا الرجل باعمال اعاظم رجال السياسة من اهل هذا التمدن وغيره

---

(١) العقد الفريد ٢٧٧ ج ٣ (٢) ابن خلكان ١٠٠ ج ٢

(٣) المسعودي ١٦٦ ج ٢

لرأيناه يفوق اكثرهم تعقلاً وحكمة ودهاء وخصوصاً اذا اعتبرنا موقفه بازاء طلاب الخلافة من اعمام النبي وابناء عمه وابناء بنته والمسلمون يعتقدون حقهم فيها وان معاوية طليق لا تحلّ له الخلافة [١] وانه لم يعتنق الاسلام الا مكرهاً — ومع هذا فقد غلب عليهم جميعاً فقبض على ازمة الملك وجعله ارثاً في نسله ولم يسفك في سبيل ذلك دماً كثيراً — وانما كانت عمدته سعة الصدر والدهاء وبذل الاموال

اما سعة الصدر فانه كان يغضي عن مطاعن اهل البيت عليه ولو فعلوا ذلك بين يديه وبدلاً من ان ينتقم منهم يبذل لهم الاموال ويقربهم · فربما دخل عليه الرجل منهم وهو في مجلسه وبين امرائه فيطعن فيه ويعرض باختلاسه الملك ويفضّل علياً عليه فيلين له الجواب ويهبه الاموال فينقلب معه ولو كان من اقرباء علي — ذكروا ان عقيلاً اخا علي بن ابي طالب وفد على معاوية وعليّ لا يزال حيًّا فرحب به معاوية وسرَّ بوروده لاختياره اياه على اخيه وأوسعه حلماً واحتمالاً فقال له معاوية « كيف تركت علياً » فقال « تركته على مايحبّ الله ورسوله والفيتك على مايكره الله ورسوله » فقال معاوية « لولا انك زائر منتجع جنابنا لرددت عليك جواباً تألم منه » ثم احب معاوية ان يقطع الحديث مخافة ان يأتي بشيء يسوءه فوثب من مجلسه وامر له ان ينزل وأوصل اليهِ مالاً عظيماً · فلما كان من غد جلس معاوية وبعث الى عقيل وقال له « كيف تركت علياً اخاك » قال « تركته خير لنفسه منك وانت خيرٌ لي منه » [٢]

واخبار معاوية مع صعصعة بن صوحان العبدي وغيره من رجال علي ومريديه كثيرة تدل على سعة صدر وحلم · فان لم يكفه الحلم عمد الى المخادعة او البذل فلا يلتقي بهِ واحد ممن يخاف بطشهم الا رجع راضياً · وقد يأتيه الرجل مستجدياً وهو يتعمد خداعه فينخدع له ويطاوعه ويجيزه — ذكروا ان ابن الزبير قبل قيامه بالدعوة لنفسه هرب من عبد الرحمن ابن ام الحكم الى معاوية وقد احرق عبد الرحمن داره بالكوفة فجاء معاوية متظلماً وقال له « ان عبد الرحمن احرق داري » فقال معاوية « وكم تساوي دارك » قال ١٠٠,٠٠٠ درهم فطلب منه شاهداً فأتاه بشاهدٍ من اصدقائه فامر له معاوية بالمال · فلما انصرف الرجلان قال معاوية لجلسائه « اي الشيخين عندكم اكذب والله اني لأعرف داره وما هي الا خصائص قصب ولكنهم يقولون فنسمع ويخادعوننا فننخدع » [٣] وكان ذلك وامثاله

(١) المسعودي ١٢ ج ٢ (٢) المسعودي ٥٤ ج ٢

(٣) الاغاني ٤٨ ج ١٣

ممـا اسكت ابن الزبير وغيره عن القيام لطلب الخلافة في ايامه

فأين هذا من تدقيق علي في محاسبة عماله حتى اغضب اكثرهم وخسر نصرتهم وفي جملتهم ابن عمه عبد الله بن عباس بعد ان كان اكبر نصير له فأغضبه من اجل وشاية لاطائل تحتها كما تقدم · على حين ان معاوية كان يهب لعماله الولايات طعمة لهم واذا وفد احدهم عليه بالغ في اكرامه والترحيب به فكان معاوية بن حديج اذا قدم على معاوية في الشام زينت له الطرق بقباب الريحان تعظيماً لشأنه [1]

وكان معاوية يحتمل الطعن والنقد على الخصوص من رؤساء القبائل واهل البيوتات وزعماء الاحزاب ولو اطلقوا ألسنتهم عليه · فالاحنف بن قيس التميمي احد السادة التابعين واهل النفوذ كان على رأي علي وقد نصره في واقعة صفين · فاتفق انه وفد على معاوية بعد ان استقرّ له الامر بالخلافة فلما دخل عليه قال له معاوية « والله يا احنف ما اذكر يوم صفين الا كانت حزازة في قلبي الى يوم القيامة » فقال له الاحنف « والله يا معاوية ان القلوب التي ابغضناك بها لفي صدورنا وان السيوف التي قاتلناك بها لفي اغمادها وان تدنُ من الحرب فترًا ندنُ منها شبرًا وان تمشِ اليها نهرول اليها » ثم قام وخرج ولم يكلمه معاوية وكانت اخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه · فقالت « يا امير المؤمنين من هذا الذي يتهدّد و يتوعد » قال « هذا الذي اذا غضب غضب لغضبه مئة الف من تميم لا يدرون فيم غضب » [2]

على ان معاوية كان اذا خاف عدوًّا لا يقدر عليه بالسيف ولا يستطيع اصطناعه بالمال احتال على قتله غيلة بالسم كما فعل بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وكان قد عظم شأنه عند اهل الشام ومالوا اليه بما عندهم من آثار ابيه ولغنائه في بلاد الروم وشدة بأسه فخافه معاوية فامر ابن الاثال الطبيب ان يحتال في قتله وضمن له ان يضع عنه خراجه ما عاش وان يوليه خراج حمص · فدسّ ابن الاثال اليه شربة عسل مسمومة مع بعض مماليكه فشربها ومات [3] ونجا معاوية منه · وفعل نحو ذلك بالاشتر النخعي مالك بن الحارث وكان من اشد رجال علي بطشاً او هو اشدهم جميعاً وقد ابلى معه في صفين بلاءً حسناً · فلما اضطربت احوال مصر بدسائس معاوية وكانت لا تزال في حوزة علي بعث الاشتر والياً عليها فعلم معاوية انه ان وليها امتنعت عليه فبعث الى المقدم على اهل الخراج في القلزم — وهي

(١) ابن الاثير ٢٥٧ ج ٣ (٢) ابن خلكان ٢٣٠ ج ١

(٣) ابن الاثير ٢٢٩ ج ٣

في طريق الاشتر لا بد من مروره بها عند قدومه الى مصر وقال له « ان الاشتر قد ولي مصر فان كفيتنيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيتَ وبقيتُ » فخرج حتى اتى القلزم واقام به فلما جاء الاشتر استقبله ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده فأتاه بطعام فلما اكل اتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سماً فسقاه اياها فلما شربها مات . واخذ معاوية يقول لاهل الشام « ان علياً قد وجه الاشتر الى مصر فادعوا الله عليه » فكانوا يدعون عليه كل يوم واقبل الذي سقاه الى معاوية فاخبره بهلاك الاشتر فقام معاوية خطيباً وقال « اما بعد فانه كان لعلي يمينان فقطعت احداهما بصفين (يعني عمار بن ياسر) وقطعت الاخرى اليوم (يعني الاشتر)[1] فلما بلغ خبر الاشتر الى عمرو بن العاص قال «ان لله جنوداً من العسل»[2]

عمرو بن العاص

فكان معاوية واصحابه لا يضيعون فرصة ولا يبالون في انفاذ اغراضهم ما يرتكبون من القتل او نحوه . اما علي واصحابه فكانوا لا يحيدون عن مناهج الدين ومقتضى الاريحية وكانت اريحتهم هذه مساعداً كبيراً لفوز معاوية عليهم — ففي واقعة صفين كانت كفة النصر راجحة لعلي ولو تمَّ له ذلك لقضي على معاوية واغراضه وذهبت مساعيه ادراج الرياح وذهب امر بني أمية بذهابه واستتب الامر لعلي واهل بيته . وانما منع من فوز علي هناك دهاء عمرو بن العاص لان معاوية لما احتدمت المعركة ورأى الضعف في عسكره وايقن بالخذلان لجأ الى عمرو بن العاص وكان محاربا معه وقال له « هلم مخبآتك يا ابن العاص فقد هلكنا وتذكر ولاية مصر » فاشار عمرو عليه يومئذ برفع المصاحف وان ينادوا « كتاب الله بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد اهل الشام ومن لثغور العراق بعد اهل العراق ومن لجهاد الروم والترك ومن للكفار » فخدع رجال علي بهذه الحيلة وأوقفوا القتال ثم اتفقوا على التحكيم وبه اتمَّ ابن العاص حيلته فخلع علياً وبايع معاوية — فلولا عمرو ابن العاص لفشل معاوية وذهب امره ولولا اريحية ابداها عليٌّ في تلك المعركة لقتل عمرو قبل تدبير تلك الحيلة — وذلك ان عمراً كان قد برز للنزال فبرز له عليٌّ فلما التقيا عرفه علي فشال السيف ليضربه به ويتخلص منه فلما ايقن عمرو بالموت كشف عن عورته وقال « مكرهٌ اخوك لا بطل » فثارت الاريحية في نفس علي فحوَّل وجهه عنهُ وقال « قبحت » ونجا عمرو بتلك الحيلة[3] وذهب عمل عمرو هذا مثلاً وفيه يقول الشاعر :

---

(١) ابن الاثير ١٧٩ ج ٢ (٢) المقريزي ٣٠٠ ج ١

(٣) المسعودي ١٩ ج ٢

ولا خير في صون الحياة بذلة   كما صانها يوماً بذلته عمرو

وكذلك كان اصحاب علي من حيث الاريحية والتقوى وصدق اللهجة — تلك كانت طبيعة الاسلام والمسلمين في ذلك العصر الذهبي الا من طمع بالدنيا وانحاز الى معاوية . وكانت هذه المناقب في علي على اقوى احوالها ولو تساهل فيها او اغضى عن شيء منها لنجا من شرور كثيرة ولذلك قالت قريش « ان ابن ابي طالب رجل شجاع ولكنه لا رأي له في الحرب » [1]

فالبدهاء ونحوه تمكن معاوية من نيل الخلافة وتوريثها لابنه ثم صارت في بني مروان من أمية ولكنه لم يستطع قطع شافة المقاومين من طلاب الخلافة وهم كثيرون اهمهم اولاد علي . على انه كان يسكتهم بالمسالمة والبذل وكانوا يهابونه ويسكنون الى سياسته ويتوقعون من الجهة الاخرى رجوع الخلافة اليهم بعد موته . فلما رأوه نقلها الى ابنه يزيد ثار المطالبون بالخلافة في الحجاز والعراق وغيرهما وكل منهم يزعم انه صاحب الحق بها . فاجتمع سنة ٦٨ هـ اربعة الوية في عرافات كل منها لزعيم يطلب الخلافة لنفسه احدها لبني أمية والآخر للعلويين باسم محمد بن الحنفية والثالث لعبد الله بن الزبير والرابع لنجدة الحروري من الخوارج ثم قام غيرهم ولم يفز بالملك الا بنو امية للعصبية العربية واصطناع الاحزاب واليك الاسباب التي ساعدتهم على اصطناع الاحزاب غير ما تقدم ذكره من دهاء معاوية وضعف رأي علي

بذل المال في عصر الامويين

العطاء من بيت المال

العطاء من اكبر العوامل التي ساعدت بني أمية في اصطناع الرجال وكسر شوكة اعدائهم . لان العطاء رواتب الجند او رواتب المسلمين وكانوا في صدر الاسلام كلهم جنداً ولكل منهم راتب يختلف باختلاف نسبه من النبي او سابقته في الاسلام او غير ذلك مما تراه مفصلاً في كلامنا عن الديوان في ايام عمر [2] وترى الرواتب فيه للمسلمين على اختلاف طبقاتهم حتى النساء والاولاد . وأصل هذا العطاء من أموال الفيء وهناك طبقة أخرى من المسلمين الذين لا يستطيعون الحرب فهم من الفقراء ويأخذون أعطيتهم

(١) الاغاني ١٥ ج ١٥   (٢) الجزء الاول من هذا الكتاب ١٢٥

من اموال الصدقة وهي الزكاة ولكل من الصدقة والفيء ديوان خاص وحساب خاص

فمن قبض على بيت المال قبض على رقاب المسلمين فيجدر بهم ان يتقربوا منه او يتزلفوا اليه • فاذا قبض عليه رجلٌ حكيم مثل معاوية يعرف كيف يعطي ولمن يعطي اغناه ذلك على سائر الاسباب • فكان معاوية يزيد العطاء او ينقصه او يقطعهُ على حسب الاقتضاء والغالب ان يبذل الاموال ويضاعف الاعطية حيث يتوسم نفعاً • وأخوف ما كان يخافه في خلافته قيام العلويين او غيرهم من اهل بيت النبي ينازعونه الخلافة فبذل لهم العطاء بسخاء • فبعد ان كان عطاء الحسن والحسين بحسب ديوان عمر ٥,٠٠٠ درهم في السنة جعلها معاوية ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم اي انه ضاعفها ٢٠٠ مرة واعطى مثل هذا المبلغ ايضاً الى عبد الله بن عباس لانه ابن عم النبي ويخشى منه • وكذلك عبد الله بن جعفر بن ابي طالب وغيرهم من كبار ابناء الصحابة اهل النفوذ في الاسلام ممن يقيمون في المدينة • فكان من جهة يتألفهم بالاموال ويشغلهم بالرخاء عن النهوض للمطالبة ومن جهة أخرى يتألف بهم اهل المدينة لانهم كانوا ينفقون تلك الاموال في اهلها للتمتع بملاذ الحياة ومنهم من كان ينفق عطاءه على المغنين والشعراء • واكثرهم سخاءً وبذلاً من هذا القبيل عبد الله بن جعفر وهو ابن عم الحسن والحسين فانه كان يفد على معاوية في الشام فيدفع اليه عطاءه فيعود الى المدينة فيفرقه في اهلها • وكان معاوية يعرف ذلك فيقربه ويحسن اليه ليستألف اهل المدينة به

ويقال انه قدم على يزيد بن معاوية بعد توليه الخلافة فقال له يزيد « كم كان عطاؤك » فقال « الف الف درهم » قال « قد اضعفناها لك » قال « فداك ابي وأمي وما قلتها لاحد قبلك » قال « قد اضعفناها لك ثانية » فقيل ليزيد اتعطي رجلاً واحداً ٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم» فقال « ويحكم اني اعطيتها اهل المدينة اجمعين فما يده فيها الا عارية » [1]

وقس على ذلك بذل معاوية في تألف القبائل فقد كان يفرض للقبائل التي تحارب معه ولو بعدت عن نسبه كاليمن مثلاً فانه كان يتألفها بالاموال خوفاً من بطشها • وكان يفرض لها ولا يفرض لقيس وهي اقرب اليه لانه لم يكن يخاف بأسها حتى ان احدها كان يأتي معاوية يطلب منه ان يفرض له فيأبى كما فعل بمسكين الدارمي فانه طلب من معاوية ان يفرض له فأبى فقال شعراً يعاتبه فيه ويذكره بما بينهما من النسب ومن ذلك قوله :

اخاك اخاك ان من لا اخاً له   كساع الى الهيجا بغير سلاح

(١) العقد الفريد ١١٠ ج ١

وان ابن عم المرء فاعلم جناحه   وهل ينهض البازي بغير جناح
وما طالب الحاجات الاَّ مغرر   وما نال شيئاً طالب كنجاح

فلم يعبأ معاوية به لانه انما كان ينظر الى مصلحة نفسه • فاعتزت اليمن واشتد بأسها واستطالت على الدولة وتضعضعت قيس وسائر عدنان • فبلغ معاوية ان رجلاً من اليمن قال يوماً « لهممت ان لا ادع بالشام احداً من مضر بل هممت ان لا احل حبوتي حتى اخرج كل نزاري بالشام » فخاف معاوية بأس اليمنية ورأى ان يضربهم بالمضربة ففرض من وقته لاربعة آلاف من قيس وغيرها من عدنان وبعث الى مسكين يقول له « لقد فرضنا لك وانت في بلدك فاذا شئت ان تقيم بها او عندنا فافعل فان عطاءك سيأتيك » وصار معاوية يغزي اليمن في البحر وقيساً في البرّ [1] ولولا دهاؤه وحسن اسلوبه لم يستطع التوفيق بينهما

ويقال نحو ذلك في زيادة العطاء للذين شهدوا الوقائع الهامة ونصروا الامويين كواقعة صفين فان معاوية زاد عطاء اصحابها [2] كما فعل عمر في من شهد القادسية • وسار خلفاء بني أمية على خطوات معاوية فاعطوا احزابهم حتى فرضوا الاعطية للشعراء التماساً لقطع السنتهم او ليتقربوا بهم الى قلوب الناس • وكان اهل التقوى يرون ذلك مجحفاً بحقوق بيت المال ان يعطوا الناس من مال الفيء فانه مال الله او مال المسلمين • وكان ذلك من جملة ما غير اصحاب علي على معاوية يوم صفين [3] فلما تولى عمر بن عبد العزيز وتحدى الخلفاء الراشدين منع العطاء عن الشعراء • فلما مات عادوا الى ما كانوا عليه

وكانوا يفرضون لاي من جاءهم ولو كان اعرابياً حتى كان اهل البادية كثيراً ما يبيعون ابلهم ويأوون الى المدن يطلبون الفرض لهم • ومع ذلك فاهل الانفة منهم كانوا يدركون ما وراء ذلك من استعباد النفوس لغرض يعتقدون انه ضد الحق وهو تأييد دعوة القائمين على اهل البيت فتعافه نفوسهم — يحكى ان امرأة صها الاشجعي من اهل البادية حرضت زوجها على الذهاب الى المدينة ليبيع ابله ويفترض في العطاء فاطاعها وساق ابله حتى اذا دنا من المدينة شرعها بحوض ليسقيها فحنت ناقة منها ثم نزعت وتبعتها الابل وطلبها ففاتته فقال لزوجته « هذه الابل لا تعقل وتحنُّ الى اوطانها » ثم قال شعراً

قالت انيسة دع بلادك والتمس   داراً بطيبة ربة الاطام

---

(١) الاغاني ٦٩ ج ١٨   (٢) المسعودي ١٥٧ ج ٢
(٣) ابن الاثير ١٥٠ ج ٣

تكتب عيالك في العطاء وتفترض	وكذاك يفعل حازم الاقوام
فهممت ثم ذكرت ليل لقاحنا	بذوي عنيزة او بقف بشام
اذ هنّ عن حسبي مداود كلما	نزل الظلام بعصبة اغتام
ان المدينة لا مدينة فالزمي	حقف السناد وقبة الارحام
يجلب لك اللبن القريض وينتزع	بالعيس عن يمن اليك وشام
وتجاوري النفر الذين بنبلهم	ارمي العدو واذا نهضت مرام
الباذلين اذا طلبت بلادهم	والمانعي ظهري من الغرّام [1]

ومن اقوال عبد الملك بن مروان « انعم الناس عيشاً من له ما يكفيه وزوجة ترضيه ولا يعرف ابوابنا الخبيثة فنؤذيه » [2]

وكان همّ بني أمية أهل المدينة لانهم شيعة علي وفيهم الانصار ونخبة القرشيين فكان عامل بني أمية فيها اذا اجتمع اليه مال الصدقة من الاطراف اذان من أراد من قريش منه وكتب بذلك صكاً عليه فيستعبدهم به ويختلفون اليه ويدارونه . فاذا غضب على احد منهم استخرج المال منه وما زال هذا شأنهم الى ايام الرشيد فكلمه عبد الله بن مصعب في صكوك بقيت من ذلك فخرفت [3]

وكانوا اذا عصاهم احدٌ من المسلمين قطعوا عطاءه ولو كان العاصون بلداً برمتها كما فعل الوليد لما ثار عليه زيد بن علي فقطع عطاء اهل الحرمين جميعاً [4] وحرم الوليد آل حزم من العطاء لان قتلة عثمان دخلوا اليه من دارهم في المدينة وقبض اموالهم وضياعهم وظلوا كذلك الى ايام المنصور فافرج عنهم [5] وكثيراً ما كان الانصار يمكثون بلا عطاء [6] ولا ذنب لهم الاّ أنهم ينصرون أهل البيت . وقطع عبد الملك بن مروان اعطية آل ابي سفيان مع انهم امويون مثله — وانما فعل ذلك لموجدة وجدها على خالد بن يزيد ابن معاوية [7]

فلا غرو اذا اضطر الناس الى مسايرتهم والاذعان لهم وهم يعلمون أنهم يخالفون الحق باذعانهم وقد يصرحون بذلك فيما بينهم . كما حدث لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية

---

(١) الاغاني ١٤٧ ج ١٦ (٢) ابن الاثير ١٨٣ ج ١٠

(٣) الاغاني ١٠٥ ج ١٣ (٤) الاغاني ١١١ ج ٦

(٥) العقد الفريد ٤١ ج ٣ (٦) الاغاني ٦٢ ج ١٠

(٧) العقد الفريد ١٣٢ ج ١

العهد فاقعده في قبة حمراء واقبل الناس يسلمون على معاوية بالخلافة ثم على ابنه يزيد بولاية العهد حتى جاء رجل منهم فسلم على الاثنين ثم رجع الى معاوية فقال « يا امير المؤمنين اعلم انك لو لم تولّ هذا امور المسلمين لاضعتها » وكان الاحنف بن قيس التميمي حاضراً فقال له معاوية « مابالك لا تقول يا ابا بحر » فقال « أخاف الله اذا كذبتُ واخافكم اذا صدقتُ » فقال معاوية « جزاك الله على الطاعة خيراً » وأمر له بمال . فلما خرج لقيه ذلك الرجل فقال له « يا ابا بحر اني لاعلم ان شرّ من خلق الله هذا وابنه ولكنهم استوثقوا من هذه الاموال بالابواب والاقفال فليس يطمع في استخراجها الا بما سمعت »[1]

تدقيق علي وبخل ابن الزبير

ومما ساعد الامويين على اصطناع الرجال بالاموال ان مناظريهم اهل البيت وعبد الله ابن الزبير كانوا قليلي العطاء اما عن امساك او عن ورع حتى قالوا « وما رؤي في الناس ابخل من اهل البيت ولا من عبد الله بن الزبير »[2] وكثيراً ماكان امساكهم سبباً في فشلهم وانحياز الناس الى بني أمية — فمن أمثلة ذلك ان مصقلة بن هبيرة الشيباني كان عاملاً لعلي على ازدشير خره فرأى اسرى كان بعض رجال لعلي قد اسرهم فاشتراهم منه شفقة عليهم وهم ٥٠٠ انسان بخمسمائة الف واطلق سراحهم . فطالبه عليّ بالمال فادى نحو النصف وطمع بالباقي فالح عليه اصحاب علي فقال مصقلة « اما والله لو كان ابن هند (يعني معاوية) ما طالبني بها ولو كان ابن عفان لوهبها لي » فقالوا « ان علياً لا يترك شيئاً » فهرب مصقلة من ليلته ولحق بمعاوية[3]

ومن امثلة بخل ابن الزبير الذي افسد عليه امره ان اخاه مصعباً لما قتل المختار بن ابي عبيد في العراق واخضع العراق لاخيه وقد ساعده على ذلك وجوه اهل العراق فجاء بهم حتى اتى اخاه في مكة وكان لائذاً بالكعبة وقال له « يا امير المؤمنين جئتك بوجوه اهل العراق لم ادع لهم بها نظيراً لتعطيهم من هذا المال » فقال عبدالله « جئتني بعبيد اهل العراق لاعطيهم مال الله؟ والله لا فعلت » فلما علموا ذلك وسمعوا منه جفاء انصرفوا من عنده وكاتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا بمصعب[4] وكان ذلك سبباً في ذهاب دولة ابن الزبير

وقس على ذلك بخل العلويين في فرض العطاء الا لاهل التقوى او من في معناهم . على

(١) ابن خلكان ٢٣٠ ج ١ . (٢) الاغاني ١٠٥ ج ١٣
(٣) ابن الاثير ١٨٨ ج ٣ (٤) العقد الفريد ١١٩ ج ١

حين ان بني امية كانوا يفرضون للرجل ولاهله واولاده فقد فرض عبد الملك لعامر الشعبي (وما هو من رجال الحرب) الفين في العطاء وجعل عشرين من ولده واهل بيته في الفين الفين من اجل حديث حدثه اياه[1] وكانوا يفرضون للشعراء اعطية معينة يقبضونها في اوقاتها غير الجوائز فمنهم من عطاؤه الفان او اكثر او اقل . واذا مدحوهم زادوا اعطيتهم ترغيباً لهم في مدحهم وكذلك كان يفعل عمالهم في سائر انحاء المملكة الاموية . واهل التقى من الخلفاء لا يرون للشعراء حقاً في بيت المال[2] فعمر بن عبد العزيز كان اذا احرجه شاعر ولم ير مناصاً منه اعطاه من ماله الخاص[3]

على ان غير الاتقياء منهم كانوا يقطعون عطاء الشاعر اذا حاد عما يريدونه كما فعل عبد الملك بن مروان بابن قيس الرقيات لما مدحه وكان قد مدح مصعب بن الزبير باعظم من مدحه فقال له عبد الملك « والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء » [4] وكان عمر بن الخطاب يحرض القراء على التماس الرزق من عند انفسهم وان لا يكونوا عالة على الناس[5] فكيف الشعراء

الاستكثار من الاموال في عصر الامويين

وبذل الاموال لاصطناع الاحزاب جرَّ بني امية الى خرق كثير من القواعد التي وضعها الخلفاء الراشدون لاقتضاء الاموال وانفاقها . فقد كانت الاموال التي ترد على بيت المال تعدُّ ملكاً للمسلمين وليس الخليفة او عامله الا حافظاً لها لينفقها في مصالحهم وتدبير شؤونهم وله منها راتبٌ معين يتناوله مثل سائر المسلمين وقد رأيت ان ابا بكر توفي وليس في بيت ماله غير دينار وان عمر كان اذا احتاج الى المال فوق راتبه استقرضه من بيت المال حتى يؤديه من عطائه . وكان عمر يرى انه لا ينبغي ان يبقى في بيت المال شيء ونهى عن اختزان المال وقد اشرنا الى غرابة هذا الرأي في الجزء الثاني من هذا الكتاب . ونهى عمر ايضاً عن الزرع وحرَّم على المسلمين اقتناء الضياع لان ارزاقهم وارزاق عيالهم تدفع من بيت المال — اراد بذلك ان يبقوا جنداً على اهبة الرحيل وان تبقى البلاد التي فتحوها فيئاً يؤخذ من

---

(١) الاغاني ١٧١ ج ٩ (٢) الاغاني ٩٩ ج ١٠
(٣) الاغاني ١١٨ ج ١٧ (٤) الفرج بعد الشدة ١٢٣ ج ٢ والاغاني ١٥٩ ج ٤
(٥) العقد الفريد ٢٣٦ ج ١

خراجها وجزية اهلها للانفاق على المسلمين . ووضعوا لكل من الخراج والجزية والصدقة احكاماً لجمعها وتفريقها على مقتضى الشرع [1]

عمال بني امية

فلما اضطر بنو امية الى اصطناع الرجال وجمع الاحزاب واسترضاء القبائل و بناء المدن اغضوا عن كثير من تلك الاحكام وتوفقوا الى عمال اشداء لا يبالون بالدين ولا احكامه في سبيل اغراضهم مثل زياد بن ابيه عامل معاوية وعبيدالله بن زياد عامل ابنه يزيد والحجاج بن يوسف عامل عبد الملك بن مروان وخالد القسري عامل هشام بن عبد الملك وغيرهم . فكان الخلفاء يكتبون الى عمالهم بجمع الاموال وحشدها والعمال لا يبالون كيف يجمعونها فقد كتب معاوية الى زياد يقول « اصطف لي الصفراء والبيضاء » فكتب زياد الى عماله بذلك واوصاهم ان يوافوه بالمال ولا يقسموا بين المسلمين ذهباً ولا فضة [2] وكان العمال من الجهة الاخرى يختصون انفسهم بجانب من تلك الاموال وليس ثمة من يحاسبهم وقد اطلق الخلفاء ايديهم في الاعمال ترغيباً لهم في البقاء على ولائهم . فكان العمال يختزنون لانفسهم الاموال الطائلة حتى بلغت غلة احدهم ١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم في السنة وزادت ثروته على ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم [3] وزادت نفقاتهم زيادة فاحشة ولم يعد عندهم لراتب العمالة قيمة حتى كتب امية بن عبدالله الى عبد الملك بن مروان يقول « ان خراج خراسان لا يفي بمطبخي » [4] فلما رأى الخلفاء استئثار العمال بالاموال عمدوا الى مصادرتهم فكانوا اذا علموا بمال عند احدهم انفذوا اليه من يقبض امواله و يتولى العمل مكانه والكل طامعون بالكسب لانفسهم

وكان العمال لا يرون حرجاً في ابتزاز الاموال من اهل البلاد التي فتحوها عنوة لاعتقادهم انها فيء لهم كما تقدم . وكقول عامل بني امية في العراق « السواد بستان قريش ما شئنا اخذنا منه وما شئنا تركناه » . وقد سأل صاحب اخنا بمصر عمرو بن العاص ان يخبره بما عليه من الجزية فاجابه « لو اعطيتني من الارض الى السقف ما اخبرتك ما عليك انما انتم خزانة لنا ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم » [5] ومن قال ذلك يعد مصر فتحت عنوة . وقال غيره « الصغد بستان امير المؤمنين »

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب ١٦٣ (٢) العقد الفريد ١٨ ج ١ وابن الاثير ٢٣٧ ج ٣ (٣) الاغاني ٦٢ ج ١٩ وابن خلكان ٣٦١ ج ٢ (٤) الاغاني ٥٦ ج ١٣ (٥) المقريزي ٧٧ ج ١

الاسلام والجزية

فكان العمال يبذلون الجهد في جمع الاموال باية وسيلة كانت ومصادرها الجزية والخراج والزكاة او الصدقة والعشور . واهمها في اول الاسلام الجزية لكثرة اهل الذمة فكان عمال بني امية يشددون في تحصيلها فاخذ اهل الذمة يدخلون في الاسلام فلم يكن ذلك لينجيهم منها لان العمال عدُّوا اسلامهم حيلة للفرار من الجزية وليس رغبة في الاسلام فطالبوهم بالجزية بعد اسلامهم . واول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف [1] واقتدى به غيره من عمال بني امية في افريقية وخراسان ووراء النهر فارتد الناس عن الاسلام وهم يودون البقاء فيه وخصوصاً اهل خراسان وما وراء النهر فانهم ظلوا الى اواخر ايام بني امية لايمنعهم عن الاسلام الا ظلم العمال بطلب الجزية منهم بعد اسلامهم . فلما تولى اشرس سنة ١١٠ هـ على خراسان كان اهل سمرقند قد ارتدوا عن اسلامهم فبعث اليهم رجلاً اسمه ابو الصيداء فقال الرجل « اخرج اليهم على شريطة ان من اسلم لاتؤخذ منه الجزية » فقال اشرس « نعم » فشخص الى سمرقند ودعا اهلها الى الاسلام على ان توضع الجزية عنهم . فسارع الناس الى الاسلام وقل الخراج فكتب عاملها الى اشرس « ان الخراج قد انكسر » فاجابه « ان في الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني ان اهل الصغد واشباههم لم يسلموا رغبة في الاسلام وانما اسلموا تعوذاً من الجزية فانظر من اختتن واقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجه » ففعل الناس ذلك و بنوا المساجد وكتب العمال بذلك الى الشرس فاجابهم « خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه » فاعادوا الجزية على من اسلم فامتنعوا واعتزلوا في سبعة آلاف على عدة فراسخ من سمرقند وكانت بسبب ذلك فتنة ارتد عن الاسلام بسببها اهل الصغد و بخارا واستجاش الترك . وما زالوا كذلك حتى تولى خراسان نصر بن سيار وقد عرف موضع الخطأ فأعلن سنة ١٢١ هـ انه وضع الجزية عمن اسلم وجعلها على من كان يخفف عنه من المشركين فلم يمض اسبوع حتى اتاه ٣٠٠٠٠ مسلم كانوا يؤدون الجزية [2]

ناهيك بما كان يرتكبه بنو امية من زيادة الخراج وضرب الضرائب [3] والاستئثار بالفيء . ولم يقم من خلفائهم من نهى عن ذلك الا عمر بن عبدالعزيز فانهُ لم ينفق من بيت المال درهماً على نفسه ولا اخذ منهُ شيئاً [4] وامر اهله بذلك فلم يلق سامعاً . وهو الذي كتب الى

---

(١) راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب ٢١ (٢) ابن الاثير ٢١٦ ج ٤ و ٦٨ و ١١١ ج ٥ (٣) الجزء الثاني من هذا الكتاب
(٤) العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢

عماله لما ولي الخلافة « ضعوا الجزية عمن اسلم ان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً » ولم تطل مدة حكمه[1] . واراد يزيد بن الوليد ان يتشبه بهِ فتبعه . وكان في جملة ضرائبهم ان يأخذ الخليفة لنفسه نصف دية المعاهد فابطلها عمر بن عبد العزيز[2]

الصدقة والرشوة

واضطر الامويون للاستكثار من الاموال ان يمدوا ايديهم الي اموال الصدقة وهي الزكاة تؤخذ من اغنياء المسلمين وتنفق في فقرائهم خلافاً لسائر اموال الدولة كالفيء والغنيمة والجزية فانها تفرق في المقاتلة والجند . فكان بنو امية كثيراً مايعطون جوائز الشعراء ونحوهم من اموال الصدقة[3] وحقها ان تعطى من مال الخليفة الخاص اومن مال الفيء ونحوه باعتبار ان تلك الجائزة مما ينفع المسلمين في تأييد دولتهم . او لعل الخليفة اعتبر الشعراء من فقراء المسلمين فاعطاهم من الصدقة وهو خلاف المألوف لانه انما اجازهم لانهم مدحوه فعليه ان يجيزهم من ماله الخاص . وكانوا ايضاً كثيراً ما يعطون ارزاق المسلمين من مال الصدقة والمحاربون يستنكفون من ذلك و يعدّونه حطة في مقامهم كما اتفق لاهل المدينة وقد جاءهم الخليفة عبد الملك حاجاً وامر للناس بالعطاء فخرجت البدر مكتوب عليها « الصدقة » فابى اهل المدينة قبولها وعدُّوا ذلك اهانة لهم تعمدها عبد الملك لان اهل المدينة من انصار اهل البيت وقالوا « انما عطاؤنا من الفيء » فضرب عبد الملك مثلاً كشف لهم بهِ عما بينهما من التضاغن من عهد مقتل عثمان ويوم الحرة

وكانوا كثيراً ما يعمدون اذا اعوزهم المال الى بيع الولايات بالرشوة وخصوصاً في ايام ضعفهم وفساد دولتهم . فان الوليد بن يزيد لما تولى الخلافة زاد اعطيات الناس ترغيباً لهم في طاعته فلم يجد مالاً يكفيه ولم يكن عنده من العمال الاشداء من يوافيه بالاموال حالاً فكان من جملة ما استعان بهِ على جمع الاموال انهُ باع ولاية خراسان واعمالها ليوسف بن عمر وصارت الولايات في ايامه بالرشى للخليفة واصحابه[4] وكانت الولايات تعطى في ايام اسلافه جزاءً على خدمة كما اعطى معاوية عمرو بن العاص مصر مكافأةً لنصرته على علي فاقتدى بهِ خلفاؤه . فكانوا اذا التمس احدهم الاحزاب اطمع رؤساءها بالولايات وصار ذلك مشهوراً حتى اصبح الامير اذا دعي لنصرة احد الخلفاء اشترط مالاً او ولاية معينة . ومما يحكى ان عبد الملك بن مروان في اثناء محاربته مصعب بن الزبير في العراق بعث الى

(١) المقريزي ٧٨ ج ١ (٢) الاغاني ١٣ ج ١٥
(٣) الاغاني ١٥٦ ج ١١ (٤) ابن الاثير ١٢٥ و ١٢٦ و ١٣٢ ج ٥

اهل الكوفة والبصرة يدعوهم الى نفسه ويمنيهم فأجابوه وشرطوا عليه شروطاً وسألوه الولايات . ومن غريب الاتفاق ان اربعين رجلاً منهم سألوه ولاية اصبهان . فقال عبد الملك لمن حضره « ويحكم ما اصبهان هذه » تعجباً ممن يطلبها [1]

الاستخفاف بالدين واهله

لما طلب الامويون الخلافة لانفسهم وهم يعلمون ان اهل البيت احقُّ بها منهم وان حجة اهل البيت في طلبها مبنية على اساس صحيح كان اكثر الفقهاء والعلماء وسائر رجال الدين يرون رأيهم ويؤيدون دعوتهم ولكن العصبية كانت مع الامويين والقوة غالبة . اما الفقهاء وسائر اهل التقوى فكانوا لا ينفكون عند سنوح الفرصة عن تفضيل اهل البيت وتذكير الامويين بما يرتكبونهُ في سبيل التغلب من الظلم والقسوة والتعدي ويعظونهم ويذكرونهم بتقوى الله . وكان معاوية لحلمه ودهائه يغضي عن اقوالهم ويقطع ألسنتهم بالعطاء والمحاسنة والحلم . فتعوَّدوا ذلك وبالغوا فيهِ حتى اذا افضت الخلافة الى عبد الملك ابن مروان عمد الى الشدة والعنف فحج سنة ٧٥ هـ بعد مقتل ابن الزبير ولما جاء المدينة وفيها انصار اهل البيت خطب فيهم خطاباً قال فيه :

« اما بعد فاني لست بالخليفة المستضعف (يعني عثمان) ولا بالخليفة المداهن (يعني معاوية) ولا بالخليفة المأفون (يعني يزيد) الا واني لا اداوي هذه الامة الاَّ بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم وانكم تحفظون اعمال المهاجرين الاولين ولا تعملون مثل اعمالهم . وانكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من انفسكم . والله لا يأمرني احد بتقوى الله بعد مقامي هذا الاَّ ضربت عنقه » فهو اول من نهى عن المعروف [2] فعظم ذلك على اعداء بني امية حتى تحسروا على ايام معاوية وقالوا قول ابن الزبير فيهِ لما جاءهُ نعيه « رحم الله معاوية اناكنا لنخدعه فيتخادع لنا »

الاستهانة بالقرآن والحرمين

اما عبد الملك فكان يرى الشدة ويجاهر بطلب التغلب بالقوة والعنف ولو خالف احكام الدين . وقد يتبادر الى الذهن انهُ فعل ذلك اقتداءً بعامله ونصيره ومؤيد دولته الحجاج بن يوسف ولا نظنهُ مقتدياً بذلك لانهُ صرح باستهانة الدين منذ ولي الخلافة

(١) الاغاني ١٦٢ ج ١٧ (٢) ابن الاثير ١٩٠ و٢٥١ ج ٤

وكان قبلها يتظاهر بالتدين فلما تولاها استهوته الدنيا — ذكروا انهُ لما جاؤوه بخبر الخلافة كان قاعداً والمصحف في حجره فأطبقه وقال « هذا آخر العهد بك او هذا فراق بيني وبينك » [1] فلا غرو بعد ذلك اذا اباح لعامله الحجاج ان يضرب الكعبة بالمنجنيق وان يقتل ابن الزبير ويحتز رأسه بيده داخل مسجد الكعبة [2] والكعبة حرم لا يجوز القتال فيها ولا في جوارها فأحلوه وظلوا يقتلون الناس فيها ثلاثاً وهدموا الكعبة وهي بيت الله عندهم واوقدوا النيران بين احجارها واستارها [3] مما لم يحدث مثلهُ في الاسلام . ودخلوا المدينة وهي احد الحرمين وقاتلوا اهلها وسفكوا دماءهم لم يغلق لها باب الا احرق ما فيه حتى ان الاقباط والانباط كانوا يدخلون على نساء قريش فينزعون خمرهن من رؤوسهن وخلاخلهن من ارجلهن بسيوفهم على عواتقهم والقرآن تحت ارجلهم [4]

ناهيك بمن قتلوه من الصحابة والتابعين واهل التقوى صبراً وانما ارادوا بذلك تحقير أمر علي وشيعته تأييداً لسلطانهم . ولهذا السبب ايضاً لعنوه على المنابر وامروا الناس بلعنه وقتلوا من لم يلعنه . واول من قتل صبراً في هذا السبيل حجر بن عدي الكندي في ايام معاوية [5] وظلوا يلعنون علياً على المنابر الى ايام عمر بن عبد العزيز فابطل ذلك

الخلافة والنبوة

وتوفق بنو امية الى عمال اشداء زادوهم استبداداً وشدة بما توخوه من تمليقهم بالتعظيم والتغرير بما يخالف احكام الدين . واول من تجرأ على ذلك الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك فانه سمى الخليفة « خليفة الله » وعظم امر الخلافة حتى فضلها على النبوة فكان يقول « ما قامت السموات والارض الا بالخلافة وان الخليفة عند الله افضل من الملائكة المقربين والانبياء والمرسلين لان الله خلق آدم بيده واسجد له الملائكة واسكنه جنته ثم اهبطه الى الارض وجعله خليفة وجعل الملائكة رسلاً » واذا حاجه احد في ذلك قال « أخليفة احدكم في اهله اكرم عليه ام رسوله في حاجته » وكان عبد الملك اذا سمع ذلك اعجب به [6] واقتدى بالحجاج من جاء بعده من العمال الاشداء كخالد القسري عامل هشام بن عبد الملك فقد كان يقول قول الحجاج وخطب الناس في مكة مرة فقال « ايها الناس ايهما اعظم

---

(١) ابو الفداء ٢٠٥ ج ١ ومراج الملوك ٩٦ (٢) العقد الفريد ٢٥٦ ج ٢
(٣) ابن الاثير ٣٦ ج ٥ (٤) ابن خلكان ٢٧٤ ج ٢
(٥) المسعودي ٣٩ ج ٢ (٦) العقد الفريد ١٨ ج ٣ والمسعودي ١٠٤ ج ٢

خليفة الرجل على اهله او رسوله اليهم » يعرض ان هشاماً خير من النبي [١] واقتدى بالعمال سائر المملقين من وجوه الدولة وفيهم جماعة كبيرة انما اسلموا رغبة في الدنيا فزادوا الامور فساداً · وكانوا يملقون العمال من هذا القبيل و يجرئونهم على خرق حرمة الدين — ذكروا ان خالداً القسري كان قليل العناية في حفظ القرآن فاذا تلا آية اخطأ فيها والحن في نطقها فوقف مرة للخطابة فقال واخطأ ثم ارتج عليه وفشل فنهض صديق له من تغلب فقال « خفض عليك ايها الامير ولا يهولنك فما رأيت قط عاقلاً حفظ القرآن وانما يحفظه الحمق من الرجال » فقال خالد « صدقت يرحمك الله » [٢]

فلا غرو بعد ذلك اذا قيل لنا ان الوليد بن يزيد سكير بني مروان رمى القرآن بالنشاب وهو في مجونه وسكره فقد ذكروا انه عاد ذات ليلة بمصحف فلما فتحه وافق ورقة فيها « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم و يسقى من ماء صديد » فأمر بالمصحف فعلقوه واخذ القوس والنبل وجعل يرميه حتى مزقه ثم قال :

اتوعد كل جبار عنيد فها انا ذاك جبار عنيدُ
اذا لاقيت ربك يوم حشر فقل لله مزقني الوليد [٣]

فلم يكن يهم بني امية نشر الاسلام وانما كان همهم الفتح والتغلب وحشد الاموال فتوقف نشر الاسلام على عهدهم في الاطراف البعيدة كالسند وتركستان مع رغبة اهلها فيه وانما نفرهم منه شدة بني امية وجشعهم فكانوا يسلمون ثم يرتدون تبعاً لما يرونه من المعاملة الحسنة او السيئة · فلما تولى عمر بن عبد العزيز التقي الورع وسار على خطوات سميه ابن الخطاب كتب الى ملوك السند وغيرهم يدعوهم الى الاسلام على ان يملكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم وكانت سيرته قد بلغتهم فاسلموا وتسموا باسماء العرب · فلما قتل عمر المذكور سنة ١٠١ هـ وعاد بنو أمية الى سابق سيرتهم ارتد أولئك عن الاسلام [٤]

وقس على ذلك ما ارتكبه الامويون من قتل ابناء علي وصلبهم والمثلة بهم غير من قتلوه من التابعين واهل الصلاح صبراً واكثرهم اقداماً على ذلك عاملهم الحجاج بن يوسف

(١) ابن الاثير ٢٥٧ ج ٤ و١٣٠ ج ٥ والاغاني ٦٠ ج ١٩
(٢) الاغاني ٦٣ ج ١٩ (٣) الاغاني ١٢٥ ج ٦ والمسعودي ١٣٤ ج ٢
(٤) ابن الاثير ٢٧٣ ج ٤ و٢٦ ج ٥

الفتك والبطش في عصر الامويين

كان المسلمون في ايام الراشدين يرون الطاعة للامام واجبة لا يحتاجون في سياسة شؤونهم الى حيلة او عنف ولا يحيدون عن الحق في اعمالهم او اقوالهم . اذا اذنب احدهم اعترف بذنبه واذعن لما يفرضه الخليفة عليه من القصاص ونحوه فلم تكن الاحكام تحتاج الى بحث او نقض او حيلة ولا تنفيذها يفتقر الى شدة او عنف . وربما اقتصر القصاص على التوبيخ او اللوم واذا اخطأ الخليفة حكم على نفسه كما يحكم على رعيته . ولم يكن عندهم سجن يحبس فيه الناس واول من وضع السجن معاوية وهو أيضاً وضع الحرس [1] لقلة الحاجة الى ذلك في عصر الراشدين . فكان عمر بن الخطاب يأمر القائد من كبار الصحابة ان يأتيه فيأتي صاغراً مع علمه انه لو امتنع عن المجيء لعجز الخليفة عن استقدامه . وقد يأمر بجلد الرجل منهم فيذعن مطيعاً . وكان عمر لا يتغاضى عن الذنب الصغير خوفاً من الذنب الكبير ولذلك اشتهر بالحزم والصرامة

فلما تولى الخلافة معاوية وسلم الاعمال الى دهاته في العراق وفارس ومصر وغيرها والمسلمون لا يزالون في اريحيتهم وانفتهم وقد اطلق معاوية السنتهم بحلمه وسعة صدره خاف العمال ان يجرّ ذلك الى استفحال الامر فعمدوا الى الشدة . وأول من توخى الشدة والعنف زياد بن ابيه عامل معاوية على العراق — زعم انه يفعل ذلك اقتداءً بعمر بن الخطاب في اقامة السياسات بالصرامة والحزم ولكنه اسرف وتجاوز الحد . وهو اول من شدد امر السلطة واكد الملك لمعاوية فجرد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة [2] وتولى العراق بعده ابنه عبيد الله بن زياد في خلافة يزيد بن معاوية وفي ايامه قام الحسين بن علي يطالب بالخلافة وقد نقض بيعة يزيد وحمل على العراق فكتب يزيد الى ابن زياد « احبس على التهمة وخذ بالظنة غير ان لا تقتل الاَّ من قاتلك » [3]

ولما افضت ولاية العراق الى الحجاج بن يوسف في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) وقد كثر المطالبون بالخلافة اراد الحجاج ان يتشبه بزياد وابنه بالشدة والعنف فبالغ في ذلك حتى أهلك ودمر [4] ولم يكن الحجاج أشدَّ وطأة من زياد او ابنه

---

(١) المقريزي ١٨٧ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٢٨ ج ٣

(٣) ابن الاثير ١٨ ج ٤

(٤) ابن خلكان ١٢٤ ج ١ والبيان للجاحظ ١٧٥ ج ١ والعقد الفريد ٣ ج ٣

ولكن زياداً كان يزجره حلم معاوية وابن زياد يزجره امر يزيد ان لا يقاتل الا من قاتله • وأما الحجاج فقد اعانته شدة عبد الملك على المبالغة في الشدة فاكبر المسلمون ذلك ونقموا على تلك الدولة وكثر الخارجون عليها واتهموا خلفاءها بالمروق من الدين • ومن اقوال الخوارج فيهم « ان بني أمية فرقة بطشهم بطش جبارين يأخذون بالظنة ويقضون بالهوى ويقتلون على الغضب »[١]

بسر بن ارطاة وقتل الاطفال

على ان سياسة بني أمية كانت من اول امرها مبنية على الشدة والحزم على ما تقتضيه سياسة الممالك في ذلك العصر ثم تجاوزوا الحدود ولم يبالوا بالفتك والقتل في سبيل تأييد دعوتهم والتغلب على اعدائهم • فكانوا يطلقون ايدي عمالهم في الاحكام يقتلون ويصلبون على ما يتراءى لهم بدون مشورة الخليفة مع ان ذلك لم يكن جائزاً في ايام الراشدين لان الخليفة منهم كان وهو مقيم في المدينة يدير شؤون الرعايا في اطراف المملكة وهذا الذي أراد عمر بن عبد العزيز ان يرجع اليه في ايام خلافته فلم يفسح له الاجل[٢] فلما مات كتب خليفته يزيد بن عبدالملك الى عماله ان يعودوا الى ما كانوا عليه قبلاً من الشدة والبطش[٣]

فكان الخلفاء من بني امية يرون في اطلاق ايدي عمالهم او قوادهم تشجيعاً لهم وتنفيذاً لاغراضهم • وربما حرضهم الخليفة على الفتك عند الحاجة حتى في ايام معاوية فانه ارسل بسر بن أرطاة بعد تحكيم الحكمين وعلي بن أبي طالب يومئذ حيٌّ وارسل معه جيشاً • ويقال انهُ أوصاهم ان يسيروا في الارض ويقتلوا كل من وجدوه من شيعة علي ولا يكفوا ايديهم عن النساء والصبيان • فسار بسرٌ على وجهه حتى انتهى الى المدينة فقتل فيها اناساً من اصحاب علي وهدم دورهم ومضى الى مكة وغيرها يقتل ويهدم حتى اتى اليمن وعليها عبيد الله بن عباس عامل علي وابن عمهِ وكان غائباً فراراً من القتل فوجد بسر ابنين له صبيين اسماهما عبد الرحمن وقثم فاخذهما وذبحهما بيده بمدية كانت معه[٤] • وذكروا ان الغلامين كانا عند رجل من كنانة بالبادية فلما اراد بسر قتلهما قال الكناني « نقتل هذين ولا ذنب لهما فان كنت قاتلهما فاقتلني معهما » فقتله وقتلهما معه فصاحت امرأة من كنانة « يا هذا قتلت الرجال فعلام نقتل هذين والله ما كانوا يقتلون في الجاهلية

(١) البيان ١٩٥ ج ١ (٢) ابن الاثير ٢٩ ج ٥
(٣) العقد الفريد ٢٦٥ ج ٢ (٤) الاغاني ٤٤ ج ١٥

ولا الاسلام والله يا ابن ارطاة ان سلطاناً لا يقوم الا بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير ونزع الرحمة وعقوق الارحام لسلطان سوء» وقالت ام الصبيين شعراً في رثائهما كانت تنشده في المواسم مطلعه :

يا من احسَّ بابنيَّ اللذين هما كالدرتين تشظى عنهما الصدف

على اننا لا نظن معاوية كان راضياً من ذلك العمل الفظيع لانه يخالف دهاءه وحلمه ونظنه اطلق يد بسر ولم يعين له حدوداً وكان بسر سفاكاً للدماء فلم يستثن طفلاً ولا شيخاً . ويؤيد ذلك ما أراد فعله باولاد زياد بن ابيه بعد موت علي اذ خاف معاوية زياداً وكان عامله على فارس فامر بسراً ان يستقدمه اليه فامسك بسر اولاد زياد وكتب اليه « اما تأتي حالاً او اقتل اولادك » فلما بلغ معاوية ذلك منع بسراً من قتلهم [1]

فاذا كان هذا حال العمال في ايام معاوية مع حلمه وطول اناته فكيف في ايام عبد الملك مع شدته وفتكه . فهل يستغرب مايقال عن فتك الحجاج وكثرة من قتلهم صبراً ولو كانوا ١٢٠,٠٠٠ وهل يُستبعد ان يكون في حبسه عند موته ٥٠,٠٠٠ رجل و٣٠,٠٠٠ امرأة [2] وكان عبد الملك اشد وطأة منه واجرأ على الغدر والفتك بل هو اول من غدر في الاسلام بعد ان اعطى الامان — وذلك ان عمرو بن سعيد الاشدق احد امراء عبدالملك طمع بالملك لنفسه فاغتنم خروج عبد الملك من دمشق سنة ٦٩ هـ لحرب مصعب بن الزبير في العراق وجاء الى الشام ووضع يده عليها . فبلغ عبد الملك ذلك وهو في الطريق فرجع حالاً الى دمشق وقاتل عمراً اياماً فلم يقدر عليه فخاف على سلطانه فاحتال في عقد الصلح فرضي عمرو وكتبا بينهما كتاباً فيه امان عبد الملك له . فاطمأن خاطر عمرو المذكور وخرج الى الخليفة حتى اوطأ فرسه اطناب عبد الملك ثم دخل عليه فاجتمعا ودخل عبد الملك دمشق

وبعد دخوله باربعة ايام ارسل الى عمرو فاجابه انه آت العشية واتاه في مئة من مواليه ودخل على عبد الملك وعنده جماعة من بني مروان وقد بقي مواليه خارجاً . فاستقبله عبدالملك حتى اجلسه معه على السرير وجعل يحادثه ثم امر احد الغلمان ان يأخذوا سيفه وقال له « انطمع ان تجلس معي متقلداً سيفك » فاعطاه السيف . ثم قال عبد الملك « يا ابا امية (عمرو) انك حينما خلعتني آليتُ بيمين ان انا ملأت عيني منك وانا مالك لك ان اجعلك في جامعة » فقال له الحضور من بني مروان « ثم تطلقه يا امير المؤمنين » قال « نعم وما

(١) ابن الاثير ١٩٠ و٢١١ ج ٣ (٢) المسعودي ١١٣ ج ٢ والكشكول ٣٢

عسيت ان اصنع بابي امية » فقال بنو مروان لعمرو « ابرّ قسم امير المؤمنين » فقال « قد ابرّ الله قسمك يا امير المؤمنين » فاخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة وقال « ياغلام قم فاجمعه فيها » فقام الغلام فجمعه فيها فقال عمرو « اذكرك الله يا امير المؤمنين ان تخرجني فيها على رؤوس الناس » فقال « امكرٌ يا ابا امية عند الموت لا والله ما كنا لنخرجك في جامعة على رؤوس الناس » ثم جذبه جذبة فوقع واصاب فمه السرير فكسر ثنتيه فقال عمرو « اذكر الله يا امير المؤمنين كسر عظم مني فلا تركب ما هو اعظم من ذلك » فقال عبد الملك « والله لو اعلم انك تبقي عليّ لو ابقيت عليك وتصلح قريش لأطلقتك ولكن ما اجتمع رجلان في بلدة قط على ما نحن عليه الاّ اخرج احدهما صاحبه » فلما رأى انه يريد قتله قال « اغدر يا ابن الزرقاء » ثم قتله عبد الملك [1]

وترى مما دار بينهما ان الذي جرّ عبد الملك الى هذا الغدر كثرة الطامعين بالسلطة ولا رادع لهم من عند انفسهم كما كانوا في عصر الدين والتقوى فأصبح القوي يأكل الضعيف ومن سبق الى قتل صاحبه ملك — وهي سياسة الفتك . وقد نفعتهم هذه السياسة في تأييد سلطانهم ثم صارت سنة في من ملك بعدهم من بني العباس وغيرهم . وآخر حادثة جرت من هذا القبيل فتك محمد علي باشا بالمماليك — وقد عمد بنو امية الى ذلك استعجالاً للنصر وتخلصاً من اسباب النزاع فاذا خرج عليهم خارج جعلوا همّهم قتله لعلمهم انه اذا قُتل تفرق اصحابه واذا لم يتفرقوا استرضوهم بالاموال او نحوها

خزانة الرؤوس

وكانوا يقتلون الخارجين عليهم ويمثلون بقتلاهم ارهاباً لاحزابهم فيقطعون رأس الرجل ويطوفون به من بلد الى بلد او يصلبون الجثة حيث تزدحم الاقدام — كانوا يفعلون ذلك على الخصوص برؤساء الاحزاب ولا سيما العلويين فكان العامل الاموي يقتل الخارج على الدولة ويبعث برأسه الى الخليفة في الشام ليطاف به في الاسواق . واول رأس حمل من بلد الى بلد رأس عمر بن الحمق الخزاعي [2] احد قتلة عثمان واول رأس طيف به في الاسواق رأس محمد بن ابي بكر [3] واول رأس حمل الى الخلفاء راسا هانيء وابن عقيل من اشياع الحسين في الكوفة ثم رأس الحسين بن علي ارسله ابن زياد من الكوفة الى يزيد بن معاوية في الشام وكذلك فعل المختار برؤوس قتلة الحسين فانه ارسلها الى محمد بن الحنفية [4] وهكذا فعل

(١) ابن الاثير ١٤٦ ج ٤ (٢) المعارف ١٨٧
(٣) العقد الفريد ٣٩ ج ١ (٤) ابن الاثير ١١٩ ج ٤

الحجاج برأس عبدالله بن الزبير ورؤوس اصحابه فانه ارسلها من مكة الى عبد الملك بن مروان في الشام . وكذلك فعل عبد الملك برأس مصعب بن الزبير فانه سيره من الكوفة الى الشام فنصب فيها [1]

ومن غريب ما يحكى انهم لما جاؤا الى عبد الملك برأس مصعب بن الزبير وهو جالس في طاق بالكوفة كان ابن عمير اللخمي حاضراً عنده فلما رأى الرأس بين يدي عبد الملك ارتعد . فقال له عبد الملك « مالك » قال « اعيذبالله يا امير المؤمنين كنت في هذا الطاق بهذا الموضع مع عبيدالله بن زياد فرأيت رأس الحسين بن علي بين يديه في هذا المكان ثم كنت مع المختار بن ابي عبيد الثقفي فرأيت رأس عبيدالله بن زياد بين يديه ثم كنت فيه مع مصعب بن الزبير هذا فرأيت فيه رأس المختار بين يديه ثم هذا رأس مصعب ابن الزبير بين يديك » فتشاءم عبد الملك من ذلك وقام فأمر بهدم ذلك الطاق [2]

وصار قطع الرؤوس على هذه الصورة سنّة في عصر بني امية ومن جاء بعدهم من بني العباس وصار للرؤوس في دار الخلافة خزانة يحفظونها فيها كل رأس في سفط خاص [3] وجرت العادة ايضاً بصلب الجثث او الرؤوس . لكنهم لم يكونوا ينصبون الا رؤوس الخوارج [4] و يطوفون بها على رمح وكان بنو امية يعدون العلويين خوارج فكانوا اذا قتلوا احدهم صلبوه

ومن هذا القبيل تشديدهم في العذاب قبل القتل ولعل ذلك من مخترعات الحجاج لارهاب اعدائه واخضاعهم بالعنف . فمن ضروب التعذيب انه كان يأتي بالقصب الفارسي فيشقه و يشده على الرجل وهو عار ثم يسله قصبة قصبة حتى يقطع جسده ثم يصب عليه الخل والملح حتى يموت [5] فعل ذلك ببعض الذين حاربوه مع ابن الاشعث ارهاباً لسواهم . وكان الخوارج ايضاً يفعلون نحو ذلك بمن ظفروا به من اعدائهم حتى لقد يضعون الاطفال في القدور وهي تفور [6] اما اشتفاء او انتقاماً او ارهاباً

---

(١) ابن الاثير ١٦٢ ج ٤ (٢) ابن خلكان ٢٨٦ ج ١

(٣) الفخري ٢٤٨ ج ٢ (٤) العقد الفريد ٢٧٢ ج ٢

(٥) المعارف ١١٥ (٦) المسعودي ١٢٣ ج ٢

الموالي واحكامهم في عصر الامويين

تكاثر الموالي

افضت الخلافة الى الامويين في اواسط القرن الأول للهجرة وعدد الموالي آخذٌ في الزيادة بموالاة الفتح وتكاثر الرقيق بالاسر او الاهداء. لان العمال كثيرًا ما كانوا يبعثون بمئات او الوف من الرقيق الابيض والاسود الى بلاط الخليفة هدية او بدلاً من الخراج او نحوه [١] والخليفة يفرق ذلك في اهل بطانته او قواده وهؤلاء يفرقونه في من حولهم او يبيعونه فينتقل الى الناس على اختلاف طبقاتهم . فمن انجب من اولئك الارقاء او اعتق لسبب من الاسباب صار مولى وذلك كثير وعاديٌّ يومئذ — غير الذين كانوا يدخلون في الولاء بالعقد وغيره . فتزايد عدد الموالي في عصر الامويين زيادة عظيمة وصاروا يتقربون من مواليهم بما يحتاجون اليه من شؤونهم فاستخدمهم العرب في مصالحهم الصناعية او الزراعية او الدينية او العلمية واشتغلوا هم بالرئاسة والسياسة ولذلك كان اكثر القراء والشعراء والمغنين والكتاب والحجاب من الموالي

وقد يثري المولى فيبتاع العبيد ويعتقهم فيصيرون من مواليه وهؤلاء اذا استطاع احدهم او بعض اولاده اقتناء العبيد واعتاقهم صاروا مواليه وهكذا حتى يتفق احياناً ان يكون الرجل مولى مولى مولى او مولى مولى مولى او اكثر — فعبد الله بن وهب الفقيه المالكي الشهير كان مولى يزيد بن رمانة وهذا مولى يزيد بن أنس الفهري . وكذلك حماد ابن سامة والليث بن سعد وابو اسامة وغيرهم . وكان ابن مناذر الشاعر مولى سليمان القهرمان وسليمان مولى عبيد الله بن ابي بكرة وعبيد الله من موالي النبي [٢] . وأغرب من ذلك ان عبيد الله هذا ادعى انه عربي من ثقيف وادعى سليمان القهرمان انه عربي من تميم وادعى ابن مناذر انه عربي من بني جبير بن يربوع فيكون ابن مناذر مولى مولى مولى ودعياً مولى دعي مولى دعي . وقد بلغت نسبة الولاء عندهم الى خمس درجات فداود ابن خالد بن دينار واخوته من اهل الحديث وكلهم من موالي آل حنين وآل حنين موالي مثقب ومثقب مولى مسحل ومسحل مولى شماس وشماس مولى العباس بن عبد المطلب [٣] فهو مولى مولى مولى مولى مولى . وقس على ذلك مما يدل على تكاثر الموالي في ذلك العصر وفيهم الفارسي والفرغاني والتركي والديلمي والخراساني والرومي والبربري والسندي

(١) المسعودي ٣٥٤ ج ٢ (٢) الاغاني ٩ ج ١٧ (٣) المعارف ١٩٧

وغيرهم يشتغلون بما يحتاج اليه العرب من المهن والصنائع والآداب

ناهيك بالموالي المحاربين فقد كان في كل قبيلة من العرب عدد كبير منهم وربما زاد على عددها فاذا خرجت للحرب خرجوا معها وحاربوا في سبيل نصرتها • واختلف عدد الموالي بالنسبة الى مواليهم باختلاف الاعصر ففي ايام علي كانت نسبة الموالي الى الاحرار ممن يخرجون الى الحرب كنسبة واحد الى خمسة [1] ثم تكاثر الموالي في عصر الامويين حتى زاد عددهم على عدد الاحرار • وبنو أمية مع ذلك يحتقرونهم ويضطهدونهم وهم يصبرون على ذلك او يفرون من سلطانهم الى اطراف المملكة • وممن فرَّ من جور بني أمية ميمون جد ابراهيم الموصلي المغني المشهور [2]

نقمة الموالي على العرب

فلما تكاثر الموالي ورأوا ما كان فيه الامويون من التعصب للعرب على سواهم ولا سيما الموالي حتى كانوا يستخدمونهم في الحروب مشاة ولا يعطونهم عطاءً ولا شيئاً من الغنائم او الفيء عظم ذلك عليهم ورأوا في نفوسهم قوة فنفرت قلوبهم من بني أمية واصبحوا عوناً لكل من خلع الطاعة او طلب الخلافة من العلويين او الخوارج • فكل من قام لمحاربة الامويين استعان عليهم بالموالي والعبيد وهم الفئة المظلومة • واشهر من حاربهم بالموالي والعبيد المختار بن ابي عبيد الذي قام في العراق للمطالبة بدم الحسين سنة ٦٦ هـ ثم طلب الخلافة لمحمد بن الحنفية — فالمختار المذكور اطمع موالي العراق بالغنيمة واركبهم على الدواب وكانوا ناقمين على اسيادهم ومواليهم لسوء معاملتهم فجاؤوه متطوعين وجاءه عدد كبير من اباق العبيد وفيهم من ترك الاسلام غيظاً من بني أمية • فكان عدد الموالي في جند المختار اضعاف عدد الاحرار [3] وقد ابلوا في الحرب معه اكثر من ابلاء الاحرار لنقمتهم على اسيادهم • ولذلك كان اكثر القتلى في تلك الحرب من الموالي فقد بلغ عدد قتلاهم في معركة سنة ٦٧ هـ ٦,٠٠٠ ليس فيهم من العرب الاحرار الا ٧٠٠ وسائرهم من الموالي [4] وفاز المختار بالانتقام للحسين فوزاً حسناً وقتل قتلته • ولما رأى وجهاء الكوفة انتصار المختار بمواليهم وعبيدهم بعثوا اليه يقولون « انك آذيتنا بموالينا فحملتهم على الدواب واعطيتهم فيئنا » فاجابهم « ان انا تركت مواليكم وجعلت فيئكم لكم تقاتلون معي بني أمية وابن الزبير وتعطوني على الوفاء عهد الله وميثاقه وما اطمئن اليه من الايمان ؟ »

(١) ابن الاثير ١٧٣ ج ٣ (٢) الاغاني ٢ ج ٥

(٣) ابن الاثير ١٢١ ج ٤ (٤) ابن الاثير ١٣٦ ج ٤

فلم يرضوا . والمختار اول من جند الموالي وفاز بهم فجرأهم ذلك على الدولة واستخفوا بها ونصروا اعداءها واصبح الخلفاء العقلاء يسترضونهم بالعطاء ونحوه . واول من فرض لهم العطاء من بني امية معاوية فانه جعل لكل واحد ١٥ درهماً فعبد الملك جعلها ٢٠ ثم ابلغها سليمان الى ٢٥ وجعلها هشام ٣٠ [١] على ان ذلك الفرض قلما كان يعطى لهم لان العمال كانوا يستخدمونهم غالباً بلا عطاء ولا رزق [٢]

والمولى اذا آنس من مولاه رضاء ومحاسنة استهلك في نصرته وكان لسيده ثقة فيه حتى خلفاء بني امية فقد كانوا يقربون جماعة من مواليهم يعهدون اليهم بهامهم ويرفعون منزلتهم ويستشيرونهم في امورهم والموالي يخلصون لهم ويستميتون في الدفاع عنهم كما كان موالي بني هاشم يستميتون في نصرة مواليهم وكانت تقوم المفاخرات بين الحزبين واشهرها مفاخرات سديف وسياب وقد تقدم ذكرها

وقد يكون المولى من اصل رفيع او يرتقي الى اعلى المراتب حتى في ايام بني امية رغم اضطهادهم وتعصبهم عليهم واعظم موالي العراق واشهرهم فيروز مولى اهل الخشخاش فانه ولي الولايات وخرج مع ابن الاشعث على الحجاج فقال الحجاج «من جاءني برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم» فقال فيروز «من جاءني برأس الحجاج فله ١٠٠٠٠٠ درهم» فلما غُلب ابن الاشعث هرب فيروز الى خراسان فقبض عليه ابن المهلب هناك وبعث به الى الحجاج فقتله بعد ان عذبه بسل القصب المشقوق على جسمه [٣]

زواج الموالي بالعربيات

على ان الموالي في ايام بني امية كانوا على الاجمال اعداء الدولة يقومون عليها مع القائمين انتقاماً لما كانوا يقاسونه من الاحتقار والجور من عصبية العرب على العجم فازداد الامويون تحقيراً لهم . فبعد ان قال النبي «مولى القوم منهم» منعوا زواجهم بالعربيات كما كان الفرس يمنعون زواج العرب ببناتهم قبل الاسلام [٤] فاذا تجرأ مولى على الزواج بعربية وبلغ امره الى الوالي طلقها منه كما حدث لاعراب بني سليم في الروحاء فانهم جاؤا الروحاء فخطب اليهم بعض مواليها احدى بناتهم فزوجوه فوشى بعضهم الى والي المدينة بذلك ففرق الوالي بين الزوجين وضرب المولى مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه فقال محمد بن بشير الخارجي في ذلك بعد مدح عمل الوالي واسمه ابو الوليد:

(١) العقد الفريد ٣٤٩ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٤ ج ٥

(٣) المعارف ١١٥ (٤) المسعودي ١٩٦ ج ١

حمى حدبا لحوم بنات قوم — وهم تحت التراب ابو الوليد
وفي المئتين للمولى نكالٌ — وفي سلب الحواجب والخدود
اذا كافأتهم ببنات كسرى — فهل يجد الموالي من مزيد
فاي الحق انصف للموالي — من اصهار العبيد الى العبيد[1]

وكثيرًا ما كانوا يفعلون مثل ذلك بالموالي ولو كانوا من اهل المنزلة الرفيعة أو اهل العلم والتقوى فان عبدالله بن عون من كرام التابعين ولكنه كان مولى فتزوَّج عربية فضربه بلال بن ابي بردة بالسياط[2]

على ان ذلك المنع كان شائعاً قبل الاسلام وظل العرب يستنكفون منه رغم ما كان من نص الحديث المذكور وغيره فسلمان الفارسي نصر المسلمين في حروبهم من ايام النبي . وله فضل كبير في الاسلام فخطب الى عمر بن الخطاب ابنته فوعده بها لانه لم ير في زواجه بها بأساً اما ابنه عبدالله فلما بلغه ذلك غضب وشكاه الى عمرو بن العاص فقال له عمرو « انا اكفيكه » فخرج عمرو حتى لقي سلمان وكان يعرف انفته فقال له « هنيئاً لك يا ابا عبدالله ان امير المؤمنين يتواضع لله عز وجل في تزويجك بابنته » فغضب سلمان وقال « لا والله لا تزوجت اليه ابدًا »[3]

فتزويج المولى بالعربية بالغ الامويون في تقبيحه تعصباً للعرب على سواهم وهو عندهم اقبح من زواج العربي بغير العربية . ولكن ذلك لم يكن محرمًا في الدين ولا اعتبره اهل التقوى . فعلي بن الحسين بن علي المعروف بزين العابدين وهو احد الائمة الاثني عشر ومن سادات التابعين كانت امه سلامة بنت يزجرد آخر ملوك الفرس فلما توفي ابوه زوجها بثريد مولى ابيه واعتق جارية له وتزوجها فكتب اليه عبد الملك بن مروان يعيره بذلك . فكتب اليه زين العابدين « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة وقد اعتق رسول الله صفية بنت حي بن اخطب وتزوجها واعتق زيد بن حارثة وزوجه بنت عمته زينب بنت جحش »

فالاسلام يرفع منزلة المولى واما الامويون فرأوا تحقيره باعتبار انه غير عربي وشاع ذلك في ايامهم واصبح الناس يعيرون بمصاهرة الموالي . ومن اشعارهم في رجل من بني عبد القيس بالبحرين زوج ابنته من احد الموالي قول ابي بجير يؤنب آل عبد القيس

(١) الاغاني ١٥٠ ج ١٤ (٢) المعارف ١٦٧
(٣) العقد الفريد ١٣٢ ج ٣

لتزويجهم الموالي ومنهم الزارع والتاجر قال :

أمن قلة صرتم الى ان قبلتم دعارة زراع وآخر تاجر
واصهب رومي واسود فاحم وابيض جعد من سراة الاحامر
شكولهم شتى وكلٌّ نسيبكم لقد جئتم في الناس احذى المناكر
متى قال اني منكم فمصدق وان كان زنجياً غليظ المشافر
اكلهم وافى النساء جدوده وكلهم اوفى بصدق المعاذر
وكلهم قد كان في اولية له نسبة معروفة في العشائر
على علمكم ان سوف ينكح فيكم لجدعاً ورغما للانوف الصواغر
فهلاً اتيتم عفة وتكرماً وهلاً وجلتم من مقالة شاعر
تعيبون امرًا ظاهرًا في بناتكم وفخركم قد جاز كل مفاخر
متى شاء منكم مغرم كان جده عمارة عبس خير تلك العمائر
وحصن ابن بدر اوزرارة دارم وزبان زبان الرئيس ابن جابر
فقد صرت لا ادري وان كنت ناسياً لعل تجارًا من هلال بن عامر
وعل رجال الترك من آل مذحج وعل تمياً عصبة من يحامر
وعل رجال العجم من آل عالج وعل البوادي بدلت بالحواضر
زعمتم بان الهند اولاد خندف وبينكم قربى وبين البرابر
وديلم من نسل ابن ضبة باسل وبرجان من اولاد عمرو بن عامر
بنو الاصفر الاملاك اكرم منكم وأولى بقربان ملوك الاكاسر
أأطمع في صهري دعياً مجاهرًا ولم تر شرًا من دعي مجاهر
ويشتم لؤماً عرضه وعشيره ويمدح جهلا طاهرًا اوابن طاهر (١)

وغرس هذا الاعتقاد في اذهان الناس حتى ان الموالي انفسهم كانوا يستنكفون من تزويج المولى بالعربية — ذكروا ان ابناً لنصيب المغني الشهير وهو مولى أحب بنت مولاه وكان مولاه قد مات فخطبها من أخيه فاجابه الى طلبه فعرف نصيب بذلك فجمع وجوه الحي فلما حضروا اقبل نصيب الى أخي مولاه وقال له « أزوجت ابني هذا من ابنة اخيك » قال « نعم » فقال نصيب لعبيد له سود « خذوا برجل ابني هذا فجروه فاضربوه ضرباً مبرحاً » ففعلوا ثم قال لاخي مولاه « لولا اني اكره اذاك لالحقتك به » ثم نظر

(١) العقد الفريد ٢٣٢ ج ٣

الى شاب من اشراف الحي فازوجه الفتاة وانفق على العقد من جيبه [١]

ومع ذلك فالمولى لم يكن يخطب امرأة لنفسه ولا يزوج ابنته لرجل ما لم يستشر مولاه . فاذا أحب رجل ان يخطب فتاة من بنات الموالي لا يذهب الى ابيها ولا الى أخيها وانما يخطبها من مواليها فان رضي مولاها زوجت والاَّ فلا . وان زوجها الاب اوالاخ بغير رأي مواليه فسخ النكاح وان كان قد دخل بها عدَّ ذلك سفاحاً [٢]

وجملة القول ان تعصب بني أمية للعرب جرهم الى تحقير غير العرب وخصوصاً الموالي فنقم هؤلاء عليهم وكانوا أكبر المساعدين في اخراج الدولة من ايديهم

اهل الذمة واحكامهم في عصر الامويين

عهود اهل الذمة في اول الاسلام

الذمة في اللغة العهد والامان والضمان واهل الذمة هم المستوطنون في بلاد الاسلام من غير المسلمين . قيل لهم ذلك لانهم دفعوا الجزية فامنوا على ارواحهم واعراضهم وأموالهم واكثرهم من النصارى واليهود وقد دعاهم القرآن « اهل الكتاب » نسبة الى الكتاب المقدس التوراة والانجيل وقد اثنى عليهم وأوصى بهم خيراً . وفي الحديث النبوي اقوال كثيرة بمحاسنة اهل الذمة وخصوصاً قبط مصر فقد رووا عن النبي انه قال « اذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فان لهم ذمة ورحماً » اشارة الى ان ام اسماعيل ابي العرب منهم وقال « الله الله في اهل الذمة المدرة السوداء السحم الجعاد فان لهم نسباً وصهراً »

وكان الخلفاء الراشدون اذا انفذوا جيشاً للفتح اوصوا قوادهم باهل الذمة خيراً ولا سيما النصارى ورهبانهم . واذا جاءهم اهل المدن بالصلح صالحوهم وعاهدوهم على الحماية في مقابل ما يؤدونه من الجزية عن رؤوسهم . ويختلف مقدار الجزية ونوعها باختلاف الاحوال وعلى مقتضى التراضي بين المسلمين واهل الكتاب ولكل صلح شروط تختلف باختلاف البلاد ولكنها في كل حال تقضي على المسلمين بحماية اهل الذمة والدفاع عنهم . فاذا امتنعوا عن اداء الجزية امتنع المسلمون عن حمايتهم واذا عرض للمسلمين ما يمنع حمايتهم جاز لاهل الذمة الامساك عن الدفع [٣]

---

(١) الاغاني ١٣٦ ج ١ (٢) العقد الفريد ٧٣ ج ٢

(٣) الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ٥٧ و١٧١

وفي تاريخ الفتوح عهود كثيرة كتبت لاهل الذمة عاهدهم المسلمون فيها بحمايتهم وتسهيل أعمالهم في مقابل ما يؤدونه من الجزية ككتاب النبي الى صاحب ايلة (في العقبة) والى اهل اذرح في أثناء غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة وهاك كتاب النبي الى صاحب ايلة :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذه امنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحي بن روبة واهل ايلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من اهل الشام واهل اليمن وأهل البحر فمن احدث منهم حدثاً فانه لا يحول ماله دون نفسه وانه طيب لمن اخذه من الناس وانه لا يحل ان يمنعوا ما يردونه ولا طريقاً يردونه من بر او بحر »[١]

وهاك كتابه الى اهل اذرح واهل مقنا

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى بني حبيبة واهل مقنا سلم انتم فانه انزل عليّ انكم راجعون الى قريتكم فاذا جاءكم كتابي هذا فانكم آمنون ولكم ذمة الله وذمة رسوله وان رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم اتبعتم به . لا شريك لكم في قريتكم الاّ رسول الله ولا ظلم عليكم ولا عدوان وان رسول الله يجيركم مما يجير منه نفسه فان لرسول الله بزتكم ورقيقكم والكراع والحلقة الا ما عفا عنه رسول الله او رسول رسول الله وان عليكم بعد ذلك ربع ما اخرجت نخيلكم وربع ما صارت عركم وربع ما اغتزلت نساؤكم وانكم قد ثريتم بعد ذلك ورفعكم رسول الله عن كل جزية وسخرة فان سمعتم واطعتم فعلى رسول الله ان يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم ومن ائتمر في بني حبيبة واهل مقنا من المسلمين خيراً فهو خير له ومن أطلعهم بشرّ فهو شرٌّ له وليس عليكم أمير الاّ من انفسكم او اهل بيت رسول الله . وكتب علي بن ابي طالب في السنة التاسعة »[٢]

واقتدى بالنبي قواده في أثناء الفتح بالشام ومصر والعراق وفارس وكتبوا العهود لاهل الذمة على نحو ما تقدم في مقابل الجزية — منها عهد خالد بن الوليد الذي كتبه لاهل الشام وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى خالد بن الوليد اهل دمشق اذا دخلها اعطاهم اماناً على انفسهم واموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيءٌ من دورهم

(١) ابن هشام ٤٠ ج ٣ (٢) فتوح البلدان للبلاذري ٦٠

لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم الا بخير اذا اعطوا الجزية » [1]

واليك صورة عهد ابي عبيدة الى اهل بعلبك :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب امان لفلان بن فلان واهل بعلبك رومها وفرسها وعربها على انفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم واهل المدينة وخارجها وعلى ارحائهم وللروم ان يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلاً ولا ينزلوا قرية عامرة فاذ مضى شهر ربيع وجمادى الاولى ساروا الى حيث شاؤا ومن اسلم منه فله مالنا وعليه ما علينا ولتجارهم ان يسافروا الى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها وعلى من اقام منهم الجزية والخراج شهد الله وكفى بالله شهيداً » [2]

وقس عليه عهود سائر الفاتحين مثل عمرو بن العاص وسعد بن ابي وقاص وغيرهم في مصر والعراق وفلسطين وفارس وافريقية والاندلس وغيرها على انهم كانوا يشترطون في الجزية ان يؤديها اهل الذمة عن يد وهم صاغرون

اما شروط الصلح فكانت تختلف شدة ورفقاً باختلاف البلاد والاحوال التي فتحت بها فصلح مصر يختلف عن صلح الشام وصلح الشام غير صلح العراق

العهدة النبوية

و بين أيدي الناس نسخ من عهد يقولون ان النبي كتبه الى النصارى ورهبانهم يسمونه العهدة النبوية والنسخ المذكورة تختلف نصاً وتتفق مغزى . و يقولون ان العهد المذكور كتب بخط علي بن ابي طالب ووضع في مسجد النبي في السنة الثانية للهجرة وحملت منه نسخ الى الاديار ومن ذلك نسخة كانت محفوظة في دير طورسينا فنقلها السلطان سليم الفاتح العثماني الى الاستانة في اوائل القرن السادس عشر للميلاد بعد ان عرضها على مجلس شرعي فنقلوها الى اللغة التركية وابقوا النسخة التركيــة في الدير وصورة الاصل العربي مع عهود برعاية حقوقهم الواردة في نص ذلك العهد وحملوا النسخة العربية الاصلية الى الاستانة [3] ـ واليك نص العهدة النبوية نقلاً عن كتاب منشئات سلاطين لافريدون بك بعد البسملة : [4]

« هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله الى كافة الناس اجمعين رسوله مبشرًا ونذيرًا

---

(١) البلاذري ١٢١ (٢) البلاذري ١٣٠

(٣) الهلالان ١٥ و ١٧ من السنة السابعة

(٤) قاموس الادارة والقضاء — (مادة بطركخانة)

ومؤتمناً على وديعة الله في خلقه لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما كتبه لاهل ملّة النصارى ولمن تنحل دين النصرانية من مشارق الارض ومغاربها قريبها وبعيدها فصيحها وعجمها معروفها ومجهولها جعل لهم عهداً فمن نكث العهد الذي فيه وخالفه الى غيره وتعدى ما امره كان لعهد الله ناكثاً ولميثاقه ناقضاً وبدينه مستهزئاً وللعنته مستوجباً سلطاناً كان ام غيره من المسلمين — وان احتمى راهب او سائح في جبل او واد او مغارة او عمران او سهل او رمل او بيعة فانا اكون من ورائهم اذبُّ عنهم من كل غيرة لهم بنفسي واعواني واهلي وملتي واتباعي لانهم رعيتي واهل ذمتي وانا اعزل عنهم الاذى في المؤن التي يحمل اهل العهد من القيام بالخراج الا ماطابت له نفوسهم وليس عليهم جبر ولا اكراه على شيء من ذلك ولا يغير اسقف من اسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا حبيس من صومعته ولا سائح من سياحته ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم ولا يدخل شيء من مال كنائسهم في بناء مساجد المسلمين ولا في بناء منازلهم فمن فعل شيئاً من ذلك فقد نكث عهد الله وعهد ورسوله ولا يحمل على الرهبان والاساقفة ولا من يتعبد جزية ولا غرامة وانا احفظ ذمتهم اينما كانوا من بر او بحر في المشرق او المغرب والجنوب والشمال وهم في ذمتي وميثاقي واماني من كل مكروه وكذلك من يتفرد بالعبادة في الجبال والمواضع المباركة لايلزمهم مما يزرعونه لا خراج ولا عشر ولا يشاطرون لكونه برسم افواههم ولا يعاونون عند ادراك الغلة ولا يلزمون بخروج في حرب وقيام بجبرية ولا من اصحاب الخراج وذوي الاموال والعقارات والتجارات مما هو اكثر من اثني عشر درهماً بالجملة في كل عام ولا يكلف احد منهم شططاً ولا يجادلون الا بالتي هي احسن ويحفظونهم تحت جناح الرحمة يكف عنهم اذية المكروه حيثما كانوا وحيثما حلوا — وان صارت النصرانية عند المسلمين فعليها برضاها ويمكنها من الصلاة في بيعها ولا يحال بينها وبين هوى دينها ومن خان عهد الله واعتمد بالضد من ذلك فقد عصى ميثاقه ورسوله ويعاونون على مرمة بيعهم ومواضعهم وتكون تلك مقبولة لهم على دينهم وفعالهم بالعهد ولا يلزم احد منهم بنقل سلاح بل المسلمون يذبون عنهم ولا يخالف هذا العهد ابداً الى حين تقوم الساعة وتنقضي الدنيا » اه

والغالب في اعتقادنا ان النبي اذا كان قد اعطى عهداً للنصارى والرهبان عموماً فهو غير هذا العهد او لعله كان مختصراً وطولوه او تنوسي وضاع اصله فكتبوه من عندهم او ان النصارى وضعوا هذا العهد من عند انفسهم لغرض سياسي اذ لم يذكر خبر هذا العهد احد من مؤرخي الفتوح او غيرهم من كتاب المسلمين في الازمنة الاولى

فضلاً عما في عبارته وبعض نصوصه مما لم يكن في معروفاً في صدر الاسلام وخصوصاً في السنة الثانية للهجرة

عهد عمر

ويذكرون ايضاً عهداً يعرف بعهد عمر بن الخطاب لاهل الشام اشار اليه غير واحد من مؤرخي المسلمين وقد اورده بعضهم بنصه منهم ابو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي المتوفى سنة ٥٢٠ هـ اورده في كتاب «سراج الملوك» نقلاً عن عبد الرحمن بن غنم الاشعري المتوفى سنة ٧٨ واليك صورة العهد المذكور برواية ابن غنم قال:

« كتبنا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى اهل الشام (بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب لعبد الله عمر امير المؤمنين من نصارى مدينة كذا انكم لما قدمتم علينا سألناكم الامان لانفسنا وذرارينا واموالنا واهل ملتنا وشرطنا لكم على انفسنا ان لانحدث في مدائننا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطاً منها في خطط المسلمين في ليل ولا نهار. وان نوسع ابوابها للمارة وابن السبيل وان ننزل من مرّ بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم . ولا نؤوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً ولا نكتم غشاً للمسلمين ولا نعلم اولادنا القرآن ولا نظهر شرعنا ولا ندعو اليه احداً ولا نمنع احداً من ذوي قرابتنا الدخول في الاسلام ان اراده وان نوقّر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا اذا ارادوا الجلوس ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتني بكناهم ولا نركب بالسروج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمور. وان نجز مقادم رؤوسنا ونلزم زينا حيثما كنا وان نشد الزنانير على اوساطنا ولا نظهر صلباننا وكتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا اسواقهم ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا الا ضرباً خفيفاً ولا نرفع اصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ولا نخرج شعانيننا ولا باعوثنا ولا نرفع اصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران في شيء من طرق المسلمين ولا اسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ولا نتطلع الى منازلهم) فلما أتيت عمر رضي الله عنه بالكتاب زاد فيه (ولا نضرب احداً من المسلمين شرطنا ذلك على انفسنا واهل ملتنا وقبلنا عليه الامان فان نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وضمنا على انفسنا فلا ذمة لنا وقد حلّ منا ما يحلّ من اهل المعاندة والشقاق) فكتب اليه عمر (ان امض

ماسألوه وألحق فيه حرفين اشترطهما عليهم مع ما شرطوه على انفسهم ان لايشتروا شيئاً من سبايا المسلمين ومن ضرب مسلماً عمداً فقد خلع عهده » اهـ [1]

ويلحق بالعهد المذكور احكام تتعلق بالكنائس وضعها عمر ايضاً وذلك انهُ امر بهدم كل كنيسة لم تكن قبل الاسلام ومنع من ان تحدث كنيسة بعد الاسلام وامر ان لا تظهر علية خارجة من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة الا كسر على رأس صاحبه [2]

وترى في نص هذا العهد ضغطاً على النصارى وتصغيراً لهم خلافاً لما جاء في سائر عهود الامان او كتب الصلح في صدر الاسلام وخلافاً لما هو معروف من عدل عمر بن الخطاب ورفقه باهل الذمة كما يستدل من سيرة حياته فانها تدلُّ على صدق لهجته في الفكر والقول والفعل فكان اذا اساء مسلمٌ الى مسيحي اقتص له منه ولو كان المسلم من كبار الصحابة كما اقتص لذلك القبطي من عمرو بن العاص وابنه وقال لعمرو « يا عمرو مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً » [3]

فترى لاول وهلة تناقضاً بين هذه المناقب ونص هذا العهد فيتبادر الى الذهن انه موضوع بعد عصر عمر بازمان كما قلنا عن نص العهدة النبوية ولكن حالهُ يختلف عن حالها بما يرجح صحته فلننظر اولاً في صحة نسبته الى عمر ثم في سبب التناقض الظاهر بينه وبين مناقبه

نسبة هذا العهد الى عمر

الارجح في اعتقادنا ان عمر كتب عهداً لنصارى الشام ان لم يكن هذا هو بنصه فهو بمعناه على الاقل وسبب هذا الترجيح : —

(١) ان العهد المذكور واردٌ في كتب المسلمين بنصه الاصلي بطريق الاسناد فالطرطوشي وان كان من اهل القرن السادس للهجرة فانه اورد نص العهد بطريق الاسناد الى الراوي الاصلي على عادة المؤرخين المحققين في اوائل الاسلام مما يدلُّ على انه نقله من كتاب قديم

(٢) ان « سراج الملوك » الذي اورد نص هذا العهد هو من كتب الادب والسياسة المهمة وليس من كتب الفكاهة ومؤلفه من اكبر علماء الاندلس صحب ابا الوليد الباجي وأخذ عنه مسائل الخلاف واجاز له وقرأ الفرائض والحساب والادب وجاء بغداد ومصر وتفقه على ابي بكر الشاشي وعلى ابي احمد الجرجاني وأتى الشام وسكنها ودرس بها وكان

(١) سراج الملوك ٢٨٣ (٢) سراج الملوك ٢٨٦
(٣) الجزء الاول من هذا الكتاب ٥٦

اماماً فقيهاً عالماً عاملاً زاهداً ورعاً • وكان مع ذلك متعصباً على النصارى يرى تحقيرهم واتفق انه دخل على الافضل شاهنشاه ابن امير الجيوش بمصر وبجانب الافضل رجل نصراني فوعظ الافضل حتى بكي ثم أنشد :

يا ذا الذي طاعته قربة   وحقُّهُ مفترض واجبُ
ان الذي شرفت من اجله   يزعم هذا انهُ كاذبُ

وأشار الى النصراني فاقامه الفضل من موضعه [1] ولعل تعصبهُ هذا حمله على اثبات هذا العهد في كتابه مع رغبة اكثر الذين سبقوه في اغفاله لما توهموا فيه من المغايرة لمناقب الخلفاء الراشدين • ولا يقال ان الطرطوشي وضع هذا العهد من عند نفسه لان من كان في منزلته من الزهد والتقوى ينزه نفسه عن الكذب

(٣) ان اكثر مواد هذا العهد واردة في كتب الفقه من احكام اهل الذمة كما وردت في هذا العهد بمعناها الحرفي تقريباً [2] واكثر هذه الاحكام كتب قبل زمن الطرطوشي • ناهيك بما جاء من ذلك في كتب السياسة والادارة وبعضها أشار الى هذا العهد اشارة صريحة وأورد بعض نصه • فقد جاء في كتاب الاحكام السلطانية للماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ (اي قبل الطرطوشي بخمس وسبعين سنة) بباب الجزية والخراج قولهُ : « واذا صولحوا (النصارى) على ضيافة من مرَّ بهم من المسلمين قدرت عليهم ثلاثة ايام لا يزادون عليها كما صالح عمر نصارى الشام على ضيافة من مرَّ بهم من المسلمين ثلاثة ايام مما يأكلون ولا يكلفهم ذبح شاة ولا دجاجة وتبيت دوابهم من غير شعير وجعل ذلك على اهل السواد دون المدن — الى ان قال — ويشترط عليهم في عقد الجزية شرطان مستحقٌ ومستحبٌ اما المستحق فستة شروط (١) ان لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له (٢) ان لا يذكروا رسول الله (صلعم) بتكذيب لهُ ولا ازدراء (٣) ان لا يذكروا دين الاسلام بذم له ولا قدح فيه (٤) ان لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح (٥) ان لا يفتنوا مسلماً عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا دمه (٦) ان لا يعينوا اهل الحرب ولا يأووا اغنياءهم • فهذه الستة الحقوق ملتزمة فتلزم بغير شرط وانما تشترط اشعاراً لهم وتأكيداً لتغليظ العهد عليهم ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضاً لعهدهم • وأما المستحب فستة أشياء (١) تغيير هيئاتهم بلبس الغيار وشد الزنار (٢) ان لا يعلوا على المسلمين في الابنية ••• (٣) ان لا يسمعوهم اصوات نواقيسهم (٤) ان لا يجاهروهم

(١) ابن خلكان ٤٧٩ ج ١ (٢) الهداية ٥٧٤

بشرب الخمور ولا باظهار صلبانهم (٥) ان يخفوا دفن موتاهم (٦) ان يمنعوا من ركوب الخيل عتاقاً وهجاناً الخ » [1] فقول الماوردي هذا يكاد يكون نصَّ عهد عمر حرفياً بعد الترتيب والتبويب • فالعهد المذكور كان معروفاً قبل كتاب سراج الملوك • ويؤيد ذلك ان ابن الاثير اشار اليه اشارة تدل على اعترافه بفحواه وبنسبته الى عمر كقوله في حوادث سنة ٤٨٤ هـ « وأخرج توقيع الخليفة بالزام اهل الذمة بالغيار ولبس ما شرطه عليهم امير المؤمنين عمر بن الخطاب » [2]

(٤) ان الخلفاء الاولين في القرون الاولى للاسلام كانوا اذا ارادوا تجديد عهود اهل الذمة ولا سيما النصارى فرضوا عليهم مثل فحوى هذا العهد من تغيير الزي ونحوه مما يدل على اتصال هذا العهد بالقرن الاول واقدمهم عمر بن عبد العزيز الخليفة التقي المشهور باقتفائه آثار سميه وجده لأمهِ عمر بن الخطاب وهو اول خليفة اموي أراد رد النصارى الى ما شرطه عليهم عمر وكانوا قد اغفلوا اكثر شروطه وخصوصاً من حيث اللباس وتشبهوا بالمسلمين بلبس العمامة فامرهم ان يضعوا العمائم ويلبسوا الاكسية ولا يتشبهوا بشيء من الاسلام • وقس على ذلك سائر الخلفاء الذين اضطهدوا النصارى فانهم كانوا يرجعون الى فحوى عهد عمر كما سترى

عهد عمر ومناقبه

اما ما يظهر من التناقض بين هذا العهد ومناقب عمر ففيه نظر ولا بدَّ في بيانه من المقابلة بين مناقب عمر وفحوى ذلك العهد :

(مناقب عمر بن الخطاب) اظهر مناقب عمر العدل مع الصرامة وحرية الضمير والشدة • والتقوى مع الغيرة الشديدة على الاسلام والرغبة في تأييده ونشره • فقد كان عادلاً حتى لا يبالي ان يحكم على ابنه او على نفسه فهو مثال للعدل مجسم لا يزال المسلمون الى اليوم يمثلون باحكامه ويحاولون الاقتداء به ولم يستطع احدٌ منهم ان يدرك شاوهُ • وكانت غيرتهُ على الاسلام لا مثيل لها فلا يعمل عملاً او يقول قولاً الاَّ وهو ينظر من ورائه الى نشر الاسلام ورفع مناره وجمع كلمة العرب في نصرته • فالعدل يقضي عليه أن ينصف اهل الذمة ويحاسنهم ولكن رغبته في نشر الاسلام كانت تظهر من خلال ذلك الانصاف • فقد اطلق حرية الدين في مملكته وابقى اهل الذمة على ما كانوا عليه من امر دينهم وطقوسهم وقسسهم وكنائسهم ولكنه منعهم من احداث كنائس جديدة لكي تنحصر النصرانية

(١) الماوردي ١٣٨ (٢) ابن الاثير ٧٦ ج ١٠

فيتغلب الاسلام عليها ثم يمحوها . والعدل قضى عليه ان يحسن الى نصارى العرب مكافأة لنصرتهم المسلمين في العراق ففرض عليهم الصدقة بدلاً من الجزية ولكن رغبته في جمع كلمة العرب تحت لواء الاسلام قضت بالاشتراط عليهم ان لا ينصروا اولادهم [١]

(فحوى عهد عمر) وفحوى العهد المذكور يرجع الى اربعة شروط أولية وهي (١) ان لا يحدث النصارى معبداً (٢) ان ينزلوا من يمرّ بهم من المسلمين ثلاثة ايام (٣) ان لا يأووا في كنائسهم جاسوساً ولا يكتموا غشاً للمسلمين (٤) ان لا يقلدوا المسلمين بشيء من اللباس او الركوب او تعلم القرآن او نقش اسمهم بالعربية على اختامهم . وانه بغير هذه الشروط لا يكون لهم امان على انفسهم وذراريهم وأموالهم

فالشرط الاول ينطبق على رغبة عمر في تأييد الاسلام ونشره كما تقدم . والشرط الثاني تستلزمه حال المسلمين في بلاد الفتح فقد كانوا غرباء بين اهل الذمة والعرب أهل ضيافة ولم يكن اهل تلك البلاد يألفون تلك العادة فجعلها عمر شرطاً واجباً عليهم رحمة بالمسلمين في اسفارهم للحرب او غيرها . وأما الشرطان الثالث والرابع فلا بد في تطبيقهما على اخلاق عمر من مقدمة صغيرة :

نصارى الشام وقيصر الروم

اول ما يلاحظ في هذا العهد ان عمر اخذهُ على نصارى الشام دون سائر اهل الذمة في الشام ودون نصارى سائر الامصار . فهو لا يسري على قبط مصر او نبط العراق ولا على صابئة حران ولا مجوس فارس ولا على اليهود في بلد من البلاد . فلا بدَّ لذلك من سبب متصل بما حواهُ ذلك العهد من الشدة والاَّ فلماذا لم يجعله عاماً على سائر بلاد الاسلام ولماذا لم يدخل فيه اليهود والصابئة وغيرهم من اهل الذمة . وزد على ذلك انهم ينسبون الى عمر عهداً [٢] آخر لاهل الذمة كافة . وليس فيه ضغط ولا تضييق وانما مرجعه الى التسامح والرعاية والحماية ويشبه العهدة النبوية باكثر نصوصه . ورأينا فيه مثل رأينا في تلك العهدة لان عبارته تخالف عبارة صدر الاسلام ولم يذكره احد من كتاب المسلمين القدماء ولكنهُ يوافق روح ذلك العصر بفحواه لمشابهته اكثر عهود الصلح التي كتبت يومئذٍ وذكرنا بعضها في ما تقدم . فمن المعقول ان يعطي عمر لاهل الذمة عهداً بهذا المعنى لانهُ ينطبق على عدله ورفقه في معاملاتهم وهو عامٌّ لهم يشمل كل طوائفهم

(١) المعارف ١٩٣ والبلاذري ١٨٣ وابن الاثير ٢٥٩ ج ٢

(٢) قاموس الادارة والقضاء (مادة بطركخانة) نقلاً عن منشئات سلاطين

اما العهد الذي نحن في صدده فقد اعطي لنصارى الشام على الخصوص وكأنهُ اختصهم بالتضييق. فهو لم يفعل ذلك الاَّ لسبب دعاه اليه. والغالب في اعتقادنا انهُ اشترط هذه الشروط صيانة لبلاد الشام من رجوع الروم اليها بمساعي اهلها النصارى اذ يكونون عيوناً للروم على المسلمين لما بينهم وبين الروم من الرابطة الدينية وهي اقوى الجامعات في الشرق من اقدم ازمانه الى هذا اليوم . فكل طائفة من الطوائف الشرقية تفضل ان يحكمها حاكمٌ من مذهبها ولو كان ظالماً على ان تخضع لحاكم من غير دينها ولو كان عادلاً . وفي التواريخ شواهد كثيرة تؤيد هذا القول حتى في عصرنا الحاضر مع ما داخل نفوس المشارقة من التسامح الديني . فان كل طائفة من اهله تفضل ان يحكمها ابن دينها لا تبالي بعدله او ظلمه . النصراني يفضل حاكماً مسيحياً والمسلم يفضل حاكماً مسلماً فكيف بتلك العصور والدين مرتبط بالسياسة

ونصارى الشام اذعنوا للجزية ودخلوا في سلطان المسلمين وظلوا على ما كانوا فيهِ من حيث الدين وطقوسه يقيمون الصلاة في كنائسهم كما كانوا يقيمونها قبل الاسلام يأتيهم القسس والاساقفة من القسطنطينية او انطاكية ولسانهم لسان دولة الروم ومعتقدهم مثل معتقدها . وقد بينا في غير هذا المكان ان الفتح الاسلامي كان في صدر الاسلام احتلالاً عسكرياً ولم يكن المسلمون يتعرضون للمسيحيين في شيء من طقوسهم الدينية ولا احوالهم الشخصية ولا احكامهم القضائية وكانوا يعترفون لصاحب القسطنطينية بسيادتهِ في ذلك على نصاري الشام . فاذا حدث ما يمسُّ هذه السيادة احتج ملك الروم على الخليفة وخصوصاً من حيث الكنائس. وكان الخلفاء يراعون عهودهم في هذا الشأن حتى اذا استفحل امر بني امية خرقوا حرمة تلك العهود كما خرقوا سواها مما اقرّه الراشدون

ذكروا ان الوليد بن عبد الملك سمع صوت ناقوس فقال« ماهذا » قيل « بيعة » فامر بهدمها وتولى بعض ذلك بيده فتسابق الناس يهدمون فرفع النصارى امرهم الى قيصر القسطنطينية فكتب الى الوليد ان هذه البيعة قد اقرّها من كان قبلك فان يكونوا اصابوا فقد اخطأت وان تكن اصبت فقد اخطأوا »[1] ولم يجدِ اعتراضه نفعاً. ولكن ذلك يدلُّ على ان نصارى الشام كانوا في صدر الاسلام تحت حماية الروم اوهم يعدُّون قيصر الروم حامياً لكنائسهم كما يعتقدون الآن في بعض دول اوربا. فضلاً عما غرس في قلوبهم من حب دولة الروم بواسطة كهنتهم وتعاليمهم . وهب انهم كانوا ناقمين على تلك الدولة من بعض

(١) المسعودي ١١٣ ج ٢

الوجوه الدينية فاصبحوا بعد دخولهم في سلطة العرب يفضلون بقاء القديم على قدمهِ وذلك عاديٌّ في الامم التي تعوَّدت الرضوخ لسواها فانها لا تستقرُّ على حال ولا يهون اخضاعها الي بطريق الدين · ناهيك بما كان يجدده الكهنة والاسافقة من اسباب الميل الى قيصر القسطنطينية والفتح يومئذٍ حديثٌ والقيصر يرجو استرجاع تلك البلاد الى سلطانه على ان يستعين على ذلك باهل مذهبه المقيمين بجوار المسلمين فيتخذهم عيونًا لهُ عليهم

وكان بعض نصارى الشام لا يدخرون وسعًا في هذا السبيل فينقلون اخبار المسلمين الى الروم واذا جاء جواسيس الروم آووهم في منازلهم واعانوهم في استطلاع الاخبار · فربما دخل النصراني بين المسلمين وهو في مثل لباسهم وقد نقش اسمه بالعربية على خاتمه مثلهم وحفظ شيئًا من القرآن ليوهم المسلمين انهُ منهم · والشام لم يتم فتحها بعد وعمر لا يزال يخاف انتقاضها لبعدها عن مركز الخلافة · فخوفًا من مثل ذلك اشترط على اهلها ان لا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من اللباس او الركوب وغيره وان لا يأووا احدًا من جواسيس الروم ولا يكتموا غشًّا للمسلمين

ولنحو هذا السبب ايضًا اوصى عمر عمالهُ ان لا يستعملوا اهل الكتاب لانهم اهل رشى ولان بعضهم اولياء بعض · ويقال ان اصل هذا المنع منقول عن النبي في حديث جرى لهُ يوم خروجهِ الى بدر (١) على ان هذه الوصية لم يمكن العمل بها لاضطرار المسلمين الى من يعرف الحساب والكتابة وخصوصًا في اول الاسلام اذ كانت الدواوين لا تزال بلغاتها الاصلية

فالارجح عندنا ان عمر كتب عهدًا لنصارى الشام (او استكتبهم عهدًا) ان لم يكن هذا نصه فهو نحواه ولا يستبعد وقوع بعض التغيير في نصه بعد ذلك · وان السبب في ما حواه من الشدة خوفه من نصارى الشام لانهم اقرب نصارى الشرق الى كنيسة القسطنطينية · اما القبط فقد كانوا اعداء تلك الكنيسة وهم الذين واطأوا المسلمين على الروم وسهلوا لهم الفتح · وانهُ لم يفعل ذلك للتضييق على النصارى تعصبًا للدين او كرهًا للنصرانية · ثم اطلق المسلمون هذا العهد على سائر اهل الذمة

الامويون واهل الذمة

كذلك كانت احكام اهل الذمة لما افضت الخلافة الى بني امية وكانوا لا يخافون الروم على الشام لان مقرَّ خلافتهم فيها وقد احتلوا الشواطيء وتغلبوا على اهلها وصاروا يغزون الروم

(١) سراج الملوك ٢٨٤

في البحر · على انهم ضيقوا على اهل الذمة من جهة الجزية في جملة مساعيهم في حشد الاموال لاصطناع الاحزاب والتمتع باسباب الدنيا ·فزادوا الجزية والخراج وشددوا في تحصيلهما وضيقوا على الناس حتى اخذوا الجزية ممن اسلم · واما من بقي على دينه من اهل الكتاب فكانوا يسومونهم سوء العذاب ويحتقرونهم لانهم ليسو عرباً ولا مسلمين · ولا غرابة في ذلك بعد ما علمت من احتقار بني امية لغير العرب من المسلمين · وكانوا يعدُّون الناس ثلاث درجات اولها العرب ثم الموالي ثم اهل الذمة · و يؤيد ذلك رأي معاوية في اهل مصر قال « وجدت اهل مصر ثلاثة اصناف فثلث ناس وثلث يشبه الناس وثلث لا ناس · فاما الثلث الذين هم ناس فالعرب والثلث الذين يشبهون الناس فالموالي والثلث الذين هم لا ناس فالمسالمة » يعني القبط [1]

ولما رأى القبط ان الاسلام لا ينجيهم من الجزية او العنف في تحصيلها عمد بعضهم الى التلبس بثوب الرهبنة والرهبان لا جزية عليهم فادرك عمال بني امية غرضهم فوضعوا الجزية على الرهبان وازدادوا غيظاً منهم حتى اراد بعضهم اقتضاءها من الاموات فضلاً عن الاحياء بان يجعلوا جزية الموتى على احيائهم [2] · وامثال هذه الحوادث كثيرة في عهد بني امية ذكرنا كثيراً منها في الجزء الثاني من هذا الكتاب صفحة ٢١ مع الطرق التي كان يتخذها عمال بني امية لابتزاز الاموال من اهل الذمة

فعل الامويون ذلك واغضوا عن شروط عمر حتى اذا افضت الخلافة الى حفيده ومريده عمر بن عبد العزيز كان من جملة ما قلده فيه انهُ كتب الى عماله باحياء ذلك العهد كقوله « وامروا من كان على غير الاسلام ان يضعوا العمائم و يلبسوا الاكسية ولا يتشبهوا بشيء من الاسلام ولا تتركوا احداً من الكفار يستخدم احداً من المسلمين ولا تستخدموا احداً من اهل الذمة » [3] ونهى النصارى عن ضرب النواقيس وقت الأذان

ونظراً لاهتمام بني امية بجمع الاموال للاسباب التي قدمناها واهل الذمة اقدر على مساعدتهم في جمعها من سواهم لاقتدارهم في الحساب والكتابة واعمال الخراج استخدموهم في هذا السبيل رغم ارادتهم ولم يكن يهمهم ذلك من وجه ديني لنشر الاسلام او حصر النصرانية ولولا ذلك ما ولوا خالداً القسري العراقين وامه نصرانية رومية كان يراعي جانبها ويكرم النصارى من اجلها فاعتز النصارى في ايامه · واراد خالد أُمَّه على الاسلام فلم تسلم فابتنى لها بيعة

(١) المقريزي ٥٠ ج ١ (٢) المقريزي ٢٩٥ ج ١

(٣) العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢ وابن الاثير ٣١ ج ٥

في ظهر القبلة بالمسجد الجامع في الكوفة فكان المؤذن اذا اراد ان يؤذن ضرب لها بالناقوس [١] وكان خالد يولي النصارى والمجوس على المسلمين عكس وصية عمر بن عبد العزيز و يطلق ايديهم في الحكومة فيستبدون بالمسلمين . وعمر بن ابي ربيعة الشاعر المشهور كانت امه نصرانية ماتت والصليب في عنقها [٢] وكان النصارى في ايام بني امية يدخلون المساجد ويمرون فيها فلا يعترضهم احد . وكان الاخطل الشاعر النصراني يدخل على عبد الملك بن مروان بغير اذن وهو سكران وفي صدره صليب ولا يعترضه احد ولا يستنكفون من ذلك لانهم كانوا يستعينون به في هجو الانصار [٣]

على ان الخلفاء من بني امية كانوا اذا قربوا نصرانياً او يهودياً طلبوا اليه ان يدخل في الاسلام فلا يمنعه من الرفض مانع الا من يغضب الخليفة عليه ولم يكن يحتاج اليه فينتقم منه كما اصاب شمعلة وكان من رهط الفرس نصرانياً فدخل على بعض خلفاء بني امية فقال له « اسلم يا شمعلة » قال « لا والله لااسلم ابداً ولا اسلم الا طائعاً اذا شئت » فغضب وامر فقطعت بضعة من فخذه وشويت بالنار واطعمها . اما الاخطل فان عبد الملك قال له مرة « ألا تسلم فنفرض لك في الفيء ونعطيك عشرة آلاف » قال « كيف بالخمر » قال « وما تصنع بها وان اولها لمرٌّ وآخر لسكر » فقال « اما اذا قلت ذلك فان بين هاتين لمنزلة ما ملكك فيها الا كلعقة ماء من الفرات بالاصبع » فضحك

اما عمال بني امية فكانوا يضايقون على النصارى في استخراج الاموال فمن سهل لهم استخراجها اكرموه . وفي خطط المقريزي فصول في انتقاض القبط فلتراجع هناك [٤]

الخلاصة

وجملة القول ان الدولة الاموية دولة عربية اساس سياستها طلب السلطة والتغلب فاستعان اصحابها على ذلك بالعصبية القرشية واصطناع الاحزاب . فجرّتهم تلك العصبية الى انقسام العرب الى قبائلها كما كانت في الجاهلية وانقسمت ايضاً الى عصبيات وطنية . و بالغوا في التعصب للعرب وامتهان غير العرب من الموالي واهل الذمة . واعوزهم اصطناع الاحزاب الاستكثار من الاموال لانفاقها في اجتذاب قلوب الرجال . والاستكثار منها بعثهم على

(١) الاغاني ٥٩ ج ١٩ (٢) الاغاني ٣٢ ج ١

(٣) الاغاني ٧٤ و ١٧٨ ج ٧ (٤) المقريزي ٧٩ و٣٠٢ و٤٩٣ ج ١

الظلم في تحصيلها والخروج بذلك عما يقتضيه العدل ومدُّوا ايديهم الى اموال الصدقة وغيرها واستاثروا بالفيء . ورأوا اعداءهم العلويين يطالبون الخلافة بالحق وسلاحهم الدين والتقوى واذا جادلوهم غلبوهم فاستخفوا بالدين تحقيرًا لاهله وعمدوا الى الدهاء والحيلة والاغضاء عن الاريحية وبالغوا في الشدة والعنف واشتهر ذلك عنهم ولم ينكره احد من المؤرخين حتى اهلهم من اعقابهم . فابو الفرج صاحب الاغاني اموي[1] واكثر ما يعرف من مساوىء بني امية مقتبس من كتابه

والفضل في ثبات دولتهم لثلاثة من خلفائهم اشتهروا بالدهاء والسياسة والتدبير حكم كل منهم نحو عشرين سنة وهم : معاوية بن ابي سفيان (حكم من سنة ٤١ — ٦٠ هـ) وعبد الملك بن مروان (من ٦٥ — ٨٦ هـ) وهشام بن عبد الملك (من ١٠٥ — ١٢٥ هـ) وكان المنصور العباسي لما افضت الخلافة اليه يتتبع هشام بسياسته[2] واما عمر بن عبد العزيز فقد كان احسنهم تدينًا ولكنه جاء في غير اوانه فلم يطل مقامه . ولولا هؤلاء السواس لذهبت الدولة من ايديهم عاجلاً لما تداول الخلافة بينهم من الخلفاء الضعفاء اهل الترف واللهو والقصف . واولهم يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٦٤ هـ فقد كان مغرمًا بالصيد كثير العناية باقتناء الجوارح والكلاب والقرود والفهود . وكان يحب الطرب والمنادمة على الشراب فجرى عماله على مثاله واظهروا الشرب وفي ايامه ظهر الغناء في مكة والمدينة واستعملت الملاهي ولم يكن المسلمون يعرفونها قبل ذلك[3]

ومنهم يزيد بن عبد الملك المتوفى سنة ١٠٥ هـ ويسمونه خليع بني أمية فقد تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز وسار في طريق غير طريقه فشغف بجاريتين اسم احداهما سلامة والاخرى حبابة فقطع معهما زمانه . وغنت يوما حبابة :

بين التراقي واللهاة حرارة　　ما تطمئن ولا تسوغ فتبرد

فاهوى يزيد ليطير فقالت « يا امير المؤمنين لنا فيك حاجة » فقال « والله لاطيرنَّ » فقالت « على من تدع الامة » قال « عليك » وقبل يدها . وخرج يوما ليتنزه في ناحية الاردن ومعه حبابة وبينما هما في الشراب رماها بحبة عنب فدخلت حلقها فشرقت ومرضت وماتت . فتركها ثلاثة ايام لم يدفنها حتى انتنت وهو يشمها ويقبلها وينظر اليها ويبكي فكلموه في امرها حتى اذن بدفنها وعاد الى قصره كئيبا حزينا وسمع جارية له تمثل بعدها :

---

(١) ابن الاثير ٢٢٩ ج ٨　(٢) المسعودي ١٣٢ ج ٢

(٣) المسعودي ٦٨ ج ٢

كفى حزناً بالهائم الصب ان يرى مـنازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى وبقي يزيد بعد موتها سبعة ايام لا يظهر للناس أشار عليه اخوه مسلمة بذلك مخافة ان يظهر منه ما يسفهه عند الناس [1] ولم يحكم الا اربع سنوات

ومنهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٦ ﻫ وكان خليعاً سكيراً همه الصيد وشرب الخمر حتى جعل الخمر في برك يغوص فيها ويشرب [2] وأول شيء فعله لما ولي الخلافة انه بعث الى المغنين في المدينة ومكة واشخصهم اليه واستقدم اهل المجون والخلاعة ونادمهم وبالغ في التهتك والمسكر ولكنه لم يحكم الاَّ سنة واحدة

على أن العرب اعظموا تهتك بني أمية من ايام يزيد بن معاوية واستغربوا البيعة له فكيف بعد الذي شاهدوه من يزيد والوليد وغيرهما حتى قال بعض الشعراء يخاطبهم :

ان البرية قد ملت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا

لا تلحمنَّ ذئاب الناس انفسكم ان الذئاب اذا ما الحمت رتعوا

لا تبقرنَّ بايديكم بطونكم فثمَّ لا حسرة تغني ولا جزع

فاين هؤلاء من دهاة بني أمية الذين ذكرناهم ولم يكن فيهم من يمس الخمر او يماجن او يتخالع حتى هشام بن عبد الملك مع انه جاء في اواخر الدولة فكان لا يشرب الخمر ولا يسقي احداً في حضرته مسكراً وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه [3]

فلما انغمس بنو أمية بالترف والقصف مع ما كان من تعصبهم على غير العرب واحتقارهم الموالي واساءتهم الى اهل الذمة وسائر اهل القرى بما كانوا يسومونهم اياه من نهب غلتهم في أثناء السفر — اذ كان جند المسلمين في اواخر ايام بني أمية اذا مروا بقرية غصبوا من يمرون به اموالهم [4] — فاصبح الناس يتحدثون بقرب زوال دولتهم ولم يمض الاَّ سنوات قليلة حتى ذهبت وقامت الدولة العباسية مقامها

---

(١) ابن الاثير ٥٧ ج ٥ (٢) الاغاني ٩٨ ج ٣

(٣) الاغاني ١٦٧ ج ٥ (٤) ابن الاثير ١٤٦ ج ٥

العصر الفارسي الاول

من خلافة السفاح سنة ١٣٢ ﻫ الى خلافة المتوكل سنة ٢٣٣ ﻫ

دعونا هذا العصر فارسياً مع انه داخل في عصر الدولة العباسية لان تلك الدولة على كونها عربية من حيث خلفاءها ولغتها وديانتها فهي فارسية من حيث سياستها وادارتها لان الفرس نصروها وأيدوها ثم هم نظموا حكومتها وأداروا شؤونها ومنهم وزراؤها وامراؤها وكتابها وحجابها • وقد حملهم على القيام بنصرتها ما علمته من عصبية بني أمية على غير العرب واحتقار الموالي واكثرهم من الفرس فكانوا ينصرون كل ناقم على تلك الدولة من الشيعة والخوارج • على انهم كانوا اكثر رغبة في نصرة الشيعة لما رأوه في دعوتهم من قوة الحجة يومئذ لانهم يدعون الى بيعة صهر النبي او ابناء بنت النبي • فكان العلويون يبثون دعاتهم في العراق وفارس وخراسان وغيرها من البلاد البعيدة عن مركز الخلافة الاموية والفرس يبايعونهم وينصرونهم على امل التخلص من ظلم بني أمية

ثم قام بنو العباس لطلب الخلافة وفازوا بها على يد ابي مسلم الخراساني واستعانوا بانقسام العرب يومئذ ونقمه اليمنية على بني أمية ولم يبق من العرب من ينصر الامويين الاَّ مضر فاستعان ابومسلم باليمنية على الامويين حتى فاز بمشروعه واليك البيان

انتقال الخلافة الى العباسيين

الشيعة العلوية

ظهر بنو أمية وتسلطوا واستبدوا وآل علي بن ابي طالب يطالبون بالخلافة ويسعون في ادراكها • وأول من طلبها بعد علي ابنه الحسن ثم تنازل عنها لمعاوية سنة ٤١ ﻫ فغضب اشياع العلويين في الكوفة من تنازله وهاجوا وأمير الكوفة يومئذ زياد بن ابيه الداهية الشهير فشدد في اخماد الثورة وقتل جماعة من اشياع علي فيهم حجر بن عدي وأصحابه • فتربص العلويون ينتظرون موت معاوية لعل انتخاب الامة يقع على واحد من ابناء علي فترجع الخلافة الى اهل البيت ولم يخطر لهم ان يبايع معاوية لابنه • فلما علموا ببيعته نقموا عليه وزادهم نقمة ما علموه من تهتكه وقصفه واشتغاله بالصيد عن أمور الخلافة — ومن

قول عبد الله بن هشام السلولي في ذلك :

خشينا الغيظ حتى لو شربنا دماء بني أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وانتم تصيدون الارانب غافلينا [١]

وكان اوجه العلويين يومئذ الحسين بن علي فلما مات معاوية سنة ٦٠ هـ وتولى ابنه يزيد أبى الحسين ان يبايعه • على ان اكثر الذين بايعوه من اهل التقوى عدوا بيعتهم خرقاً لحرمة الدين [٢] • وكان الحسين في المدينة فلما طلبوا منه ان يبايع يزيد فرّ الى مكة واكثر شيعته في الكوفة فكتبوا اليه وحرضوه على القدوم اليهم لينصروه فاطاعهم ولما اقترب من الكوفة قعدوا عن نصرته • وبعث اليه امير الكوفة يومئذ عبيدالله بن زياد جنداً حاربه فدافع عن نفسه واهله حتى قتل قتلته المشهورة في كربلاء يوم عاشوراء من سنة ٦١ هـ

ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته فخرجوا بعد وفاة يزيد وبيعة مروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ يطالبون بدمه وسموا انفسهم « التوابين » وأمير الكوفة لا يزال عبيد الله بن زياد فاخرجوه منها وولوا عليهم رجلاً منهم فتغلب ابن زياد عليه • فنهض المختار بن ابي عبيد الثقفي وهو من جملة الذين طمعوا بالسيادة لابتزاز الاموال في اثناء تلك الفوضى واختلال الاحوال • وكان المختار عالي الهمة فجاء الكوفة يطالب بدم الحسين ويدعو الى بيعة محمد بن الحنفية اخي الحسين من ابيه • فتبعه على ذلك جماعة من الشيعة سماهم « شرطة الله » وزحف على ابن زياد فهزمه وقتله وقتل اكثر قتلة الحسين • ولكن محمد بن الحنفية لم يكن راضياً بتلك الدعوة فبعث الى المختار يتبرأ منه • فحوّل المختار دعوته الى عبد الله ابن الزبير وكان عبد الله قد نهض عند نهوض الحسين لان اباه الزبير بن العوام كان من جملة الطامعين بالخلافة بعد مقتل عثمان كما تقدم وأقام عبد الله في مكة يدعو الى نفسه • على ان المختار لم يخلص النية في دعوته لاحد لانه انما كان يريدها لنفسه • فلما علم ابن الزبير بغرضه بعث اخاه مصعباً على العراق فحارب المختار وقتله سنة ٦٧ هـ

اما الشيعة العلوية فانقسمت بعد مقتل الحسين الى فرقتين احداها تقول ان الحق بالخلافة لولد علي من فاطمة بنت النبي والاخرى تقول بتحولها بعد الحسن والحسين الى اخيهما محمد بن الحنفية وهي الفرقة الكيسانية • واكثرهما ظهوراً وتصدياً الفرقة الاولى فبايعوا بعد الحسين ابنه علياً المعروف بزين العابدين وتسلسلت الخلافة بعده في اعقابه حتى صار الائمة ١٢ اماماً وهم : علي والحسن والحسين وزين العابدين ومحمد الباقر وجعفر

(١) المسعودي ٥٠ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٥٢ ج ٣

الصادق وموسى الكاظم وعلي الرضا ومحمد التقي وعلي النقي وحسن العسكري ومحمد المهدي وتفرع من الشيعة العلوية ايضاً فرق اخر بايعت غير واحد من اعقاب علي كالزيدية نسبة الى زيد بن علي بن الحسين والاسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق وفرق أخر لا محل لذكرها

وكان بنو امية اذا سمعوا بظهور احد دعاة العلوية بذلوا جهدهم في قتله فقتلوا بعضهم وسموا البعض الآخر وصلبوا آخرين فاصبح دعاة الشيعة يتسترون خوف الفتك بهم . فلاقى العلويون في ايام بني امية ضنكاً شديداً وكادوا يهلكون جوعاً واصبح همّ احدهم قوت عياله حتى تولى خالد القسري عامل بني امية المتوفى سنة ١٢٦ هـ فاعطاهم الاموال ورفق بهم فعادوا الى طلب الخلافة [1] وخالد هذا غريب الاخلاق فمع كونه من عمال بني امية فقد كان ينصر العلويين ويستعمل اهل الذمة كما تقدم

الشيعة العباسية

وكان في جملة المطالبين بالخلافة من اقرباء النبي بنو العباس عم النبي لكنهم كانوا لا يتصدون لطلبها والامويون في ابان دولتهم وانما كانوا يدعون الى انفسهم سرًّا . وكان العلويون والعباسيون في ايام ضيقهم واضطهادهم يتقاربون لانهم من بني هاشم وكلا الرهطين اعداء بني امية من قبل الاسلام — والمضطهدون يتقاربون في اي حال

وظل العباسيون يتسترون في دعوتهم وهم مقيمون في الحميمة من اعمال البلقاء بالشام حتى ضعف شأن بني أمية فهمُّوا بالنهوض . واتفق في اثناء ذلك ان الفرقة الكيسانية دعاة ابن الحنفية صارت دعوتها بعده الى ابنه ابي هاشم وكان ابو هاشم هذا يفد على خلفاء بني امية من المدينة الى الشام فيمرُّ في اثناء الطريق بالحميمة . ففي بعض وفداته على هشام بن عبد الملك آنس هشام منه فصاحة وقوة ورئاسة مع علمه بطمعه في الخلافة فخافه فدسَّ اليه في اثناء رجوعه الى المدينة رجلاً سمَّه في لبن . فشعر ابو هاشم بالسم وهو في بعض الطريق فعرج الى الحميمة وصاحب الدعوة العباسية يومئذ محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فنزل عنده . ولما احسَّ بدنو الاجل خاف ضياع البيعة وهو بعيد عن اهله فاوصى الى محمد المذكور بالخلافة بعده . وكان معه جماعة من شيعته سلمهم اليه واوصاه بهم . فلما مات ابو هاشم تهوس محمد بالخلافة وايقن بالنجاح لانهُ اكتسب حزب الكيسانية جميعاً فاخذ في بث الدعاة سرًّا . ثم توفي وقد اوصى بالخلافة بعده الى ابنه ابراهيم وعرف بالامام

(١) ابن الاثير ١٢٩ ج ٥

فاخذ ابراهيم الامام في بث دعاته وبدأً بخراسان لوثوقه باهلها اكثر من سائر اهل الامصار ولان الشيعة الكيسانية اكثرهم في خراسان والعراق وقد نصروا العلويين مرارًا . فبعث اليهم دعاة الكيسانية الذين كانوا مع ابي هاشم واوصاهم ان يطلبوا بيعة الناس باسم « آل محمد » اي اهل النبي ولم يعيّن العلويين ولا العباسيين . وكان الخراسانيون قد ملوا الدولة الاموية فهان عليهم ان يباعوا لآل محمد وهم يحسبون الامر يكون مشتركاً بين العباسيين والعلويين . وتوفق ابراهيم الامام في اثناء ذلك الى ابي مسلم الخراساني القائد العجيب فاتمّ امرهم وسلم لهم الدولة كما هو مشهور

بيعة المنصور للعلوية ونكثه

وكان بنو هاشم العلويون والعباسيون لما رأوا اختلال امر بني امية اجتمعوا بمكة وفيهم اعيان بني هاشم علويهم وعباسيهم وتداولوا في قرب انحلال دولة الامويين وفي من يخلفهم من اهل البيت . وكان في جملة الحضور ابو العباس السفاح واخوه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو ابو جعفر المنصور وغيرهما من آل العباس . فاجمع رأيهم على مبايعة اوجه العلويين يومئذ وهو محمد بن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن بن علي الملقب بالنفس الزكية . فبايعوه لتقدمه فيهم ولما علموه لهُ من الفضل عليهم وبايعه ابو جعفر المنصور في جملتهم[1] ولعل هذه المبايعة هي التي اسكتت العلويين عن طلب الخلافة في اثناء انتشار دعاة العباسيين في طلبها كانهم اتفقوا ان تكون الخلافة مشتركة في اهل البيت . لان العباسيين كانوا يطلبون بيعة الناس باسم « آل محمد » وليس باسم الامام ابراهيم او غيره من بني العباس

اما دعاة الشيعة العلوية الذين كانوا يدعون للعلويين في العراق وفارس وخراسان قبل انتقال البيعة الى العباسيين فقد رضوا بذلك الانتقال غير مخيرين . وفي جملتهم ابو سلمة الخلال المثري الفارسي الشهير وكان يقيم في حمام اعين بضواحي الكوفة وكان شديد التمسك بدعوة العلويين وقد بذل مالهُ وجاههُ في سبيل نشرها . فلما سمع بانتقال البيعة الى بني العباس كظم وتربص ليرى ما يقول الناس . ثم علم ان ابراهيم الامام عين ابا مسلم وارسله الى خراسان ومعه الوصية المشهورة (من اتهمتهُ فاقتله) وقد اطاعه النقباء فاطاعه ابو سلمة في جملتهم وهو يتوقع ان تكون البيعة شورى بين الشيعتين[2] ولما بلغه ان مروان بن محمد

(١) ابن خلدون ٣ ج ٤ وابن الاثير ٢٤٣ ج ٥ والفخري ١٤٧

(٢) الفرج بعد الشدة ١٢٠ ج ٢

آخر خلفاء بني امية قتل ابراهيم الامام اضمر الرجوع الى الدعوة العلوية [1] ثم جاءه اخوة الامام وفيهم ابو العباس السفاح واخوته وسائر اهل بيته وقد انتقلت البيعة الى ابي العباس المذكور فاتزلهم ابو سلمة عنده ورأى نفسه عاجزاً عن نقل البيعة فسكت فبقيت لآل العباس · وكان ابو مسلم وسائر النقباء والقواد يحاربون عساكر الامويين في خراسان وفارس والعراق فلما غلبوهم وملكوا خراسان وما يليها جاؤوا العراق وبايعوا ابا العباس فسكت العلويون خوفاً على انفسهم من ذلك التيار العظيم وهم يتوقعون مع ذلك ان تكون الخلافة شورى بين الرهطين

وعلم العباسيون بما كان يضمره ابو سلمة من نقل الخلافة الى العلويين فشكوه الى ابي مسلم سرًّا · فدسَّ اليه رجلاً قتله بالكوفة غيلة واشاعوا ان بعض الخوارج قتله وقد قتلوا كثيرين غيره ممن شكوا في اخلاصهم حتى تمَّ الامر لهم

اما آل الحسن بن علي الذين كانوا قد بايعوا احدهم محمد بن عبد الله في المدينة وبايعه معهم سائر بني هاشم ومنهم ابو جعفر المنصور فلما علموا بذهاب دولة بني امية ومبايعة ابي العباس السفاح سنة ١٣٢ جاؤوا اليه في الكوفة يطالبونه ببيعتهم فاسترضاهم ابو العباس بالاموال وقطع لهم القطائع · وكان في جملة القادمين اليه عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة فاكرم السفاح وفادته وعرض عليه ما يرضاه من المال وقال له « احتكم عليَّ » فقال عبد الله « بالف الف درهم فاني لم ارها قط » ولم يكن هذا المال موجوداً عند السفاح فاستقرضه له من رجل صيرفي اسمه ابن ابي مقرن ودفعه اليه · واتفق وعبد الله المذكور عند السفاح ان بعض الناس جاءه بالجواهر التي كانت عساكر العباسيين قد اغتنمتها من مروان بن محمد فجعل السفاح يقلب الجواهر بين يديه وعبد الله ينظر اليها ويبكي فسأله عن السبب فقال « هذا عند بنات مروان وما رأت بنات عمك مثله قط » فحباه به ثم امر الصيرفي ان يبتاعه منه فابتاعه بثمانين الف دينار (نحو مليون درهم) وامر ابو العباس باكرام عبد الله وانزاله على الرحب والسعة وهو يتوجس مما في ضميره فبث عليه العيون فآنس عنده طمعاً فزاده عطاء فعاد عبد الله الى المدينة مثقلاً بالاموال ففرقها في اهله وكانوا اهل فاقة فلما رأوا تلك الاموال سُرُّوا

واما عبد الله فما زال مضمراً المطالبة بالخلافة لابنه [2] على ما تمت المبايعة عليه والعباسيون يخافون ذلك والسفاح يسترضيه وسائر اهله بالاموال كما رأيت · فلما توفي السفاح

---

(١) المسعودي ١٥٠ ج ٢ (٢) العقد الفريد ٢٧ ج ٣

سنة ١٣٦ هـ خلفه اخوه ابو جعفر المنصور وكان رجلاً شديد البطش لا يبالي بما يرتكبه في سبيل تأييد سلطانه . فكان همه قبل كل شيء ان يتحقق ما في نفس بني الحسن في المدينة لان لهم في عنقه بيعة فبث عليهم العيون واراد اختبارهم فبعث بعطاء اهل المدينة على جاري العادة من قبل وكتب الى عامله فيها « اعط الناس في ايديهم ولا تبعث الى احد بعطائه وتفقد بني هاشم ومن تخلف منهم عن الحضور وتحفظ بمحمد وابراهيم ابني عبد الله بن الحسن » ففعل العامل ذلك فلم يتخلف عن العطاء الا محمد وابراهيم المذكوران فكتب اليه بذلك . فتحقق المنصور انهما ينويان القيام عليه وقد سكتا في اثناء خلافة اخيه لانه كان يكرمهما و يغدق الاموال عليهما والمنصور لا يرى ذلك فلما رأوا تضييقه عزموا على الخروج فبثوا الدعاة في خراسان وغيرها يدعون شيعتهم الى بيعتهم . فعلم ابو جعفر بذلك فبعث من يقبض على كتبهم في الطريق واحتال في استطلاع اسرارهم واراد استقدام ابني عبد الله وكتب اليه يستقدمه بهما فانكر عبدالله انه يعرف مقرهما فاصبح همُّ المنصور التخلص منهما ومن سائر طلاب الخلافة من العلويين وخصوصاً بني الحسن وهم يقيمون في المدينة فبعث الى عامله فيها ان يقبض عليهم جميعاً ثم امره ان ينقلهم الى العراق فنقلهم وهم مثقلون بالقيود والاغلال في ارجلهم واعناقهم ونقد حملهم على محامل بغير وطاء ولكن ليس فيهم محمد ولا ابراهيم ابنا عبدالله لاستتارهما . فجاؤا ببني الحسن وعدتهم بضعة عشرة رجلاً فامر المنصور بقتلهم فقتلوا الا بضعة قليلة

اما محمد بن عبد الله صاحب البيعة فلم يقع في الفخ فبعث المنصور الى عامله في المدينة يشدد في طلبه فلم يرَ محمد بدًّا من القيام فظهر بالدعوة فبايعه اهل المدينة بعد ان استفتوا امامهم مالك بن انس فافتاهم بالخروج معه فقالوا « ان في اعناقنا بيعة لابي جعفر » فقال « انكم بايعتموه مكرهين وان بيعة محمد بن عبد الله اصح منها لانها انعقدت قبلها »[1] وكان ابو حنيفة ايضاً على هذا الرأي يقول بفضل محمد هذا ويحتج الى حقه فحفظ لهما المنصور هذا القول فتأدت اليهما المحنة بسبب ذلك . فلما تمكن من محمد وقتله سنة ١٤٥ هـ اصبح من أكبر المضطهدين لهما فضرب مالكاً على الفتيا في طلاق المكره وحبس ابا حنيفة على القضاء كما هو مشهور

وكان لنكث المنصور ببيعة محمد بن عبد الله تأثير عظيم في اذهان العلويين لانها جاءتهم بغتة وكانوا يظنون ذلك لا يصدر من اهل البيت كما صدر من بني امية فتحسروا

---

(١) ابن الاثير ٢٥١ ج ٥ وابن خلدون ٣ ج ٤.

على ايام بني امية وتمنوا رجوعها — ذكروا عن محمد بن عبد الله في اثناء قيامه على المنصور انهُ سمع شاعرًا يرثي بني امية فبكى فقال لهُ عمهُ « اتبكي على بني امية وانت تريد ببني العباس ما تريد » فقال لهُ « يا عم لقد كنا نقمنا على بني امية ما نقمنا فما بنو العباس الاَّ اقلّ خوفًا لله منهم وان الحجة على بني العباس اوجب منها عليهم · ولقد كان للقوم اخلاق ومكارم وفواضل ليست لابي جعفر »[1]

سياسة العباسيين في تأييد سلطتهم

القتل على التهمة

قد رأيت في ما تقدم ان بني العباس قاموا يدعون الى انفسهم وهم بين خطرين عظيمين الاول ان يحاربوا بني امية و يتغلبوا على احزابهم · والثاني ان يأمنوا جانب العلويين في مسابقتهم الى الخلافة · وكانت الحوادث قد علمتهم ان الدولة لا تقوم بالدين والتقوى فقط كما قامت في عصر الراشدين وكما ارادها بنو علي · وان العلويين انما عجزوا عن نيلها لاعتمادهم في دعوتهم على شرف نسبهم وصدق تدينهم وان معاوية لم يغلب الاَّ بالدهاء والحيلة وان عبد الملك لم يستطع استبقاءها الاَّ بالفتك وشدَّة البطش · فلما انتقلت البيعة من العلويين الى العباسيين بمبايعة ابي هاشم بن محمد بن الحنفية لمحمد بن علي العباسي كما تقدم ثم افضت بعده الى ابنه ابراهيم الامام وتوفق هذا الى ابي مسلم الخراساني ورأى فيهِ الشدة والدهاء جعله قائدًا على نقبائه ودعاته واوصاه وصية هي محور سياسة العباسيين في تأييد دولتهم هذا نصها :

« انك رجل منا اهل بيت احفظ وصيتي انظر الى هذا الحي من اليمن فالزمهم واسكن بين اظهرهم فان الله لا يتمُّ هذا الامر الاَّ بهم واتهم ربيعة في امرهم · واما مضر فانهم العدوّ القريب الدار واقتل من شككت فيهِ وان استطعت ان لاتدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل وايما غلام بلغ خمسة اشبار واتهمته فاقتله . . »[2]

فخرج ابو مسلم من عند الامام ابراهيم بهذه الوصية وقد عمل بها وعوّل عليها فكان يقتل كل من اتهمه او شكَّ فيهِ فبلغ عدد الذين قتلهم في سبيل هذه الدعوة ٦٠٠٠٠٠ نفس قتلوا صبرًا [3] بدون حرب في بضع سنين وفي جملتهم جماعة من كبار الشيعة وفيهم

(١) الاغاني ١٠٦ ج ١٠ (٢) ابن الاثير ١٦٥ ج ٥
(٣) ابن الاثير ٢٢٧ ج ٥

غير واحد من جلة النقباء وكبار الدعاة كابي سلمة الخلال الذي نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها ابو مسلم بسيفه وكان يقال لهُ وزير آل محمد كما يقال لابي مسلم امير آل محمد. فلما استشار السفاح ابا مسلم بشأنه واتهمهُ بنقل الخلافة الى العلويين اشار ابو مسلم بقتله فقتلوه وقتلوا عماله على الاطراف. وفعل نحو ذلك ايضاً بسليمان بن كثير وهو من اكبر دعاة الدولة العباسية قبلهُ وكان شيخاً جليلاً لم يدخر وسعاً في نصرة تلك الدعوة. فبعد قتل ابي سلمة بلغ ابا مسلم عنه مثلما بلغهُ عن ابي سلمة فاحضرهُ اليهِ وقال لهُ « اتحفظ قول الامام لي من اتهمتهُ فاقتلهُ » قال « نعم » قال « فاني قد اتهمتك » فخاف سليمان وقال « اناشدك الله » قال « لا تناشدني فانت منطوٍ على غش الامام » وامر بضرب عنقه [1]. ناهيك بمن قتلهم من غير الشيعة وفيهم الامراء والقواد. قتل بعضهم بالحيلة والبعض الآخر بالغدر ومنهم الكرماني واولاده وكبار رجاله [2] وغيرهم بشر كثير حتى سئم الناس فعله وملوا سفك الدماء واصبح المسلمون حتى رجاله لايدعى احدهم الى مقابلته الاَّ اوصى وتكفن وتحنط. وثار من ذلك بعض الامراء من شيعة بني العباس وصاح في رجاله « ما على هذا اتبعنا آل محمد ان تسفك الدماء وان يعمل بغير الحق » فتبعهُ على رأيه اكثر من ٣٠,٠٠٠ رجل فوجه اليهم ابو مسلم جنداً قاتلهم وقتلهم

المنصور والدولة العباسية

فبهذا وامثاله مهَّد ابو مسلم الخلافة لبني العباس فساعدهم اولاً على اخراجها من بني امية الى اهل البيت ولم يكتف ببيعة ابي العباس وقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية ولكنهُ حرضهم على قتل من بقي من بني امية بالاغراء او التخويف على ألسنة الشعراء. ويقال انهُ هو الذى اوعز الى سديف الشاعر مولى بني هاشم ان يقول ذلك الشعر في مجلس السفاح وفيهِ سليمان بن هشام بن عبد الملك وكان السفاح قد امنهُ واكرمهُ وامن سائر بني امية — فيقال ان سديفاً دخل يوماً على السفاح وعنده سليمان بن هشام فانشد سديف قولهُ

لايغرنك ما ترى من رجال ان تحت الضلوع داءً دوياً
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها امويا

فتأثر السفاح وامر بسليمان فقتل ودخل شاعر آخر فقال شعراً آخر وكان عند السفاح نحو سبعين من رجال بني امية فقتلهم وبسطوا النطوع على جثثهم فأكلوا الطعام وهم

(١) ابن الاثير ٢٠٨ ج ٥ (٢) ابن الاثير ١٨٣ ج ٥

يسمعون انين بعضهم حتى ماتوا جميعاً [1] وقيل في كيفية قتلهم غيرذلك وان الذي قتلهم عبد الله بن علي عم السفاح وهو مشهور بكرهه لبني امية وشدة نقمته عليهم ولكن لاخلاف في انهم قتلوا غدراً سنة ١٣٢ هـ وهم آمنون كما قتل الامراء المماليك بمصر في اوائل القرن الماضي

والغالب ان ابا مسلم اوعز الى العباسيين بقتلهم لئلا يقفوا في سبيل دولتهم فاشار الى سديف ان يحرضهم على ذلك بشعره . ولم يقل سديف ذلك حباً ببني العباس بل كرهاً لبني امية وانتقاماً لآل علي لانهُ من الشيعة العلوية وهو يظن الخلافة شورى بين الشيعتين . فلما رأى المنصور استقلَّ بها بعدذلك نقم على العباسيين وهجاهم باشعار بلغ خبرها المنصور فكتب الى عامله ان يأخذ سديفاً فيدفنه حياً ففعل [2]

وبعد ان قتل العباسيون من كان في قبضتهم من الامويين عمدوا الى استئصال شافتهم من سائر البلاد . ولم ينج منهم الا قليلون اهمهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ففرَّ الى الغرب واسس دولة بني امية بالاندلس كما سيأتي . وتولى استئصال شأفة الامويين من بني العباس عبد الله بن علي فبالغ في ذلك حتى نبش قبورهم ومثل بجثثهم انتقاماً لما فعلوه قبلاً بالائمة من آل علي وخصوصاً زيد بن زين العابدين . فاستخرج جثة هشام بن عبد الملك من قبره وهو لم يبل فضربه ثمانين سوطاً ثم احرقه [3]

وبعد ان تخلص المنصور من الامويين لم يدخر ابو مسلم وسعاً في تخليص الدولة له من أقربائه آل العباس انفسهم وفي جملتهم عبد الله بن علي المتقدم ذكره وقدطمع بالخلافة فحاربه بامر المنصور وغلبه وقبض على ما في عسكره من الغنائم والاسلحة . فاراد المنصور ان يوجه همه الى بني الحسن منافسيه في الخلافة فاشتغل خاطره بابي مسلم واصبح خائفاً منه على سلطانه بعد ما بلغ اليه من النفوذ والشهرة والدالة . ولم يكن همه الاَّ قتله ليتفرغ للعلويين فاتهمه بانه ينوي اخراج الملك منهم فاستحق القتل عملاً بوصية الامام

وكان المنصور قد خاف ابا مسلم وعزم على قتله من عهد خلافة اخيه ابي العباس ولكن ابا العباس لم يرد الاقدام على ذلك . فلما مات السفاح وخلفه المنصور صمم على قتله ولكنه استخدمه في حرب عمه عبد الله بن علي فضرب عدويه احدهما بالآخر فايهما قتل صاحبه انفرد فيسهل على المنصور قتله . فلما فرغ ابومسلم من حرب عبدالله بن علي احتال المنصور

(١) الفخري ١٣٤ والعقد الفريد ٢٧٩ ج ٣

(٢) العقد الفريد ٣٢ ج ٣ (٣) ابن خلكان ٢٠٥ ج ٣

في استقدامه اليه من خراسان في حديث طويل وادخله عليه دخول الزائر الامين وقد اكمن له اناساً بالسلاح وراء الستر فاخذ سيفه منه وحادثه وتدرج من العتاب الى التوبيخ حتى اذا ازفت الساعة صفق المنصور فخرج الكامنون باسلحتهم وقتلوه سنة ١٣٧ هـ فامر به فلفوه بالبساط ثم دعا بعض رجال خاصته وشاورهم في قتله ولم يقل لهم انه قتله فقال له احدهم « ان كنت قد أخذت من رأسه شعرة فاقتله ثم اقتله » فاشار المنصور الى البساط فلما رأى ابا مسلم فيه وتحقق موته قال « عدّ هذا اليوم اول يوم من خلافتك » [1]

ولما فرغ المنصور من ابي مسلم لبث يتوقع ما يبدو من رجاله الخراسانية لعلمه انه ارتكب بقتله خطراً عظيماً فما عتم ان ثار عليه جماعة منهم يعرفون بالراوندية وكادوا يفتكون به لولم يدافع عنه معن بن زائدة • فقتل الراوندية جميعاً ولكنه أصبح لا يأمن على نفسه من مثل هذه الثورة فبنى مدينة بغداد بشكل حصين يقيه غائلة ذلك عند الحاجة ثم عمد الى تخليص الخلافة من آل علي فحارب محمد بن عبدالله وقتله • ثم رأى من آل العباس من ينازعه عليها منهم عمه عبد الله وكان ابو مسلم قد غلبه ولكنه لم يتمكن من قتله فاحتال المنصور في استقدامه بامان بعثه اليه مع ولديه فجاء فحبسه عنده • ثم علم سرّاً ان ابن عمه عيسى بن موسى ينوي الخروج عن طاعته وكان والياً على الكوفة • فتجاهل وبعث اليه وقد دبر أمراً كتمه عن رجال بطانته فلما جاء عيسى استقبله المنصور بالترحاب والاكرام ثم أخرج من كان في حضرته من الحاشية واستبقاه وحده واقبل عليه وقال « يا ابن العم اني مطلعك على امر لا أجد غيرك من اهله ولا أرى سواك مساعداً لي على حمل ثقله فهل انت في موضع ظني بك وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي » فقال له عيسى « انا عبد أمير المؤمنين ونفسي طوع امره ونهيه » فقال المنصور « ان عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطانته واعتمد على ما بعضه يبيح دمه وفي قتله صلاح ملكنا فخذه اليك واقتله سرّاً » فاطاعه عيسى فسلم اليه عمه فمضى به الى الكوفة • واضمر المنصور ان ابن عمه عيسى اذا قتل عمه عبد الله الزمه القصاص وسلمه الى اعمامه اخوة عبد الله ليقتلوه به فيكون قد استراح من الاثنين معاً • اما عيسى فكأنه شك في نية المنصور والناس يومئذ يتهمون بعضهم بعضاً خوفاً من وصية الامام فاستشار بعض ذوي مشورته فحذروه من عاقبة ذلك فحبس عمه ولم يقتله • ولما طلبه المنصور منه دفعه اليه حياً

---

(١) المسعودي ١٦٧ ج ٢

فقتله في بيت جعل اساسه على الملح[1]

وأمثلة ما اتاه المنصور من الدهاء والفتك في تأسيس دولته كثيرة • وكان يعطي الامان ثم ينكث كما رأيت فعله بعمه عبد الله وكما فعل بابن هبيرة عامل بني أمية على واسط لما بويع السفاح وأرسل أخاه المنصور لمحاربته فجرت السفراء بينهما واتفقا على ان يدخل ابن هبيرة في امان بني العباس فكتب له المنصور اماناً ظل ابن هبيرة اربعين ليلة وهو يشاور فيه العلماء حتى تحقق صحته ورضي به فبعثه الى ابي جعفر فانفذه ابو جعفر الى ابي العباس فامره بامضائه • وكان رأي ابي جعفر في بادىء الامر ان يفي بما اعطاه ولكن ابا مسلم (وكان لا يزال حياً) اشار على السفاح ان يقتله قائلاً « ان الطريق السهل اذا القيت فيه الحجارة فسد•• لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة » فبعد ان جاء ابن هبيرة الى ابي جعفر مستأمناً غدر به وقتله[2] لانه اتهمه ثم اتهم ابا مسلم وقتله بعد ان أمنه كما رأيت • وشاع نكث الامان والغدر عن المنصور وتحدث به الناس فلما قام محمد بن عبد الله العلوي في المدينة خافه المنصور كما تقدم فبعث اليه يعرض عليه الامان ويعده خيراً فاجابه محمد « اي امان تعطيني امان ابن هبيرة ام امان عمك عبد الله ام امان ابي مسلم »[3]

وظل المنصور وابو مسلم قدوة لمن جاء بعدهما بالدهاء والفتك • على انهم لم يكونوا يبطشون او يفتكون الا في من نازعهم على الخلافة فهذا يقتلونه على الشك • اما احكامهم في ما خلا ذلك ففي نهاية العدل والرفق كما سيأتي • اما من كان في نفسه مطمع في الخلافة او ما يتعلق بها فحكمه حكم المجرمين فكل من يطلب الخلافة لنفسه او يسعى فيها لاحد كانت حياته في خطر فاذا دعي للمثول بين يدي الخليفة اغتسل وتحنط استعداداً للموت

وكان المنصور ايضاً قدوة لعبد الرحمن بن معاوية مؤسس دولة بني امية في الاندلس وقد فرّ من العراق فالشام الى المغرب خوفاً من القتل فنصره رجاله وخصوصاً مولى له اسم بدر سعى في تأييد سلطانه مثل سعي ابي مسلم في الدولة العباسية فلما استتب له الامر سلبه كل نعمة وسجنه ثم اقصاه حتى مات وفعل نحو ذلك في رؤساء الاحزاب الذين نصروه وسيأتي الكلام على ذلك

واشتهر فتك العباسيين بالذين ينصرونهم في تأييد دولتهم حتى صار الخلفاء انفسهم يشيرون الى ذلك اذا اعوزهم الاستدلال به • فالامين لما راى طاهر بن الحسين يتفانى

---

(١) المستطرف ٦٣ ج ١ وابن الاثير ٢٥٧ ج ٥

(٢) ابن خلكان ٢٧٩ ج ٢ (٣) ابن الاثير ٢٥٤ ج ٥

في نصرة اخيه المأمون وقد تولى قيادة جند الخراسانيين وغلب على جند الامين وكاد يذهب بدولته كتب الامين اليه : « بسم الله الرحمن الرحيم اعلم انه ما قام لنا منذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه الا السيف فانظر لنفسك او دع »[1] وفي الواقع ان المأمون لما استتب له الامر في الخلافة بسيف طاهر المذكور عمل على قتله بحجة مثل حجة المنصور بقتل ابي مسلم فاهدى له خادماً كان رباه وامره ان يسمه ففعل[2]

سياسة الدولة العباسية في معاملة الرعية

الموالي الفرس

قد رايت ان الدولة العباسية قامت بالفرس وغيرهم من الرعايا وفيهم الموالي واهل الذمة وكانوا ناقمين على دولة بني امية فنصروا اهل البيت انتقاماً منها والجمهور الاهم منهم الفرس

الفرس والعرب قبل الاسلام

الفرس اهل سياسة وسلطان وقد انشأوا الدول وساسوا الناس ووضعوا الاحكام من قديم الزمان • وضخمت دولتهم وقويت شوكتهم حتى حاربوا اليونان والرومان ونبغ فيهم القواد والعلماء والحكماء وترجموا العلم والفلسفة وكان لهم شأن كبير في التاريخ القديم واشتهر فيهم فضلاً عن الامر المالكة والدهاقين والاساورة بيوتات شريفة اشهرها سبعة كان الشرف فيها • وعلى اطلال اصطخر عاصمة الفرس القدماء وغيرها من بقايا مدنهم القديمة نقوش كتابية مثل التي خلفها الفراعنة واليونان والرومان وغيرهم

وكان في مملكة فارس قبائل كثيرة من العرب يقيمون على حدودها بين النهرين في العراق والجزيرة وكانت لهم دولة عربية تحت رعاية الفرس وهم المناذرة في الحيرة • وكثيراً ما كان الفرس يتعلمون لغة العرب وينظمون الشعر العربي حتى ملوكهم فانهم لم يكونوا يستنكفون من ذلك — حكي ان بهرام بن يزدجرد بن سابور نشا بين العرب بالحيرة وتعلم العربية ونظم فيها شعراً[3] وكانوا يستخدمون العرب في دواوينهم للكتابة او الترجمة بينهم وبين من يفد على ملك الفرس من عرب الحجاز او اليمن او نجد وخصوصاً بعد ان دخلت

(١) المسعودي ٢١٣ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٢٣٧ ج ١

(٣) المسعودي ١١٣ ج ١

اليمن في حوزتهم على عهد كسرى انوشروان

واشهر كتاب العرب في دواوين الفرس آل عدي بن زيد من المضرية وكان عديٌّ وابوه وجدُّه من مهرة الكتَّاب على قلة من يحسن الكتابة من العرب في ذلك العهد وكانوا يخدمون الفرس في دواوينهم . فجدُّه حماز بن زيد بن ايوب كان كاتباً عند النعمان في الحيرة وتقرب من الفرس وولد لهُ زيد فأوصى بهِ الى دهقانٍ كان صديقاً لهُ وهو من اهل الدولة فرباه الدهقان وعلّمه الفارسية فنبغ في اللسانين فتقدم الدهقان الى كسرى ان يوليهُ البريد . ولم يكن ينال هذا المنصب الاَّ ابناء المرازبة فتقدم زيد في الدولة حتى صار كسرى يستشيره في مهامه . وولد لزيد ابنهُ عدي وتثقف وتعلم مثل ابناء الاساورة واتقن ألعاب الفرس على الخيل بالصوالجة فقرَّبهُ كسرى وجعله كاتباً في ديوانه بالمدائن وصار من اصحاب السطوة والكلمة النافذة وكسرى يأذن له مع الخاصة ويبعث بهِ بالمهمات الكبرى الى ملك الروم وغيره واذا فسد العرب على الفرس وتمردوا توسط عدي في اصلاحهم واذا مات ملك العرب في الحيرة لا يولي كسرى من يخلفه الاَّ بمشورة عدي . فشق ذلك على ملوك الحيرة حسداً منهُ لانهم يمنية وعدي مضري فوشى به بعضهم الى كسرى حتى قُتل وتولى بعده ابنهُ زيد بن عدي في المكاتبة عن كسرى الى ملوك العرب في امورها وفي خواص امور الملك . وكانت لكسرى وظائف يؤَديها اليهِ العرب كل عام فكان زيد يتولى ذلك وغيره (١)

وجملة القول ان العرب كانوا يخدمون الفرس في ايام دولتهم قبل الاسلام كما خدم الفرس العرب في ايام دولتهم بعد الاسلام . على ان الفرس بلغ من ضخامة سلطانهم وسعة ملكهم قبل الاسلام حتى كانوا يسمون انفسهم الاحرار والاسياد ويعدُّون سائر الناس عبيداً لهم اي انهم اصيبوا بما اصاب العرب بعد ذلك وبما يصاب بهِ غيرهم من الامم التي تتوفق الى السيادة فيغلب عليها الغرور وتترفع عن سواها

فلما ظهر الاسلام وقامت دولة الخلفاء مقام دولة الاكاسرة كان ذلك شديداً على الفرس وخصوصاً بعد ما لاقوه من ضغط بني امية واحتقارهم فكانوا ينتقضون فيحاربهم الامويون ويبالغون في اهانتهم وظلمهم ويضربون مدائنهم بالمجانيق ويقتلون اهاليها حتى افنوا اكثر البيوتات القديمة ووجوه الاساورة الذين كانوا يأوون الى اصطخر (٢) فلا لوم عليهم بعد ذلك اذا نصروا كل قائم على الدولة الاموية . على انهم لم يفوزوا الاَّ بطلبها

(١) الاغاني ٢٠ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٤٩ ج ٣

للعباسيين كما رأيت وكانوا يعدّون ذلك فوزًا لانفسهم تخلصاً من عصبية العرب عليهم وطمعاً في الرجوع الى ما كانوا عليه من السلطة والشوكة

استخدام الموالي الفرس

فلما قبض العباسيون على ازمة الملك جعلوا عاصمة مملكتهم بين شيعتهم في العراق فأقاموا اولاً في الكوفة ثم في الهاشمية حتى بنى المنصور مدينة بغداد على دجلة فجعلوها دار الخلافة . وقربوا الموالي الفرس وخصوصاً اهل خراسان فجعلوهم بطانتهم ورجال دولتهم ولاسيما الذين حاربوا مع ابي مسلم في طلب الخلافة لهم . واشهرهم خالد بن برمك جدّ الوزراء البرامكة فانهُ كان من قواد جند ابي مسلم وشهد معهُ الوقائع وابلى بلاءً حسناً في نصرة اهل البيت وكان ابوه برمك من مجوس بلخ وكان يخدم بيتاً من بيوت النار هناك اسمهُ النوبهار اشتهر هو و بنوه بسدانته وكان برمك عظيم المقدار عند الفرس . فاسلم خالد ودخل في جند ابي مسلم وكان عاقلاً حازماً فلم يجعل للعباسيين محلاً للشك في صداقته كما فعل ابو مسلم . فقدمه ابو العباس وولاه الوزارة ثم تولاها للمنصور وخدمهُ بعد مقتل ابي مسلم في محاربة الاكراد وكانوا قد تغلبوا على فارس [1] وتوالت الوزارة في اعقابه الى يحيي ابنه فجعفر ابن ابنه وهو الذي نكب البرامكة على عهده لسبب سنذكرهُ

وكذلك فعل العباسيون في استخدام الموالي في مهامهم . واول من استخدمهم لذلك المنصور فانهُ استعمل مواليه وغلمانه وصرفهم في مهماته وقدمهم على العرب فاقتدى به الخلفاء بعده حتى سقطت دولة العرب كما سيجيء . ولما حضرته الوفاة اوصى بثلث ماله لمواليه [2] واوصى باكرامهم . ومن اقواله في وصيته لابنه المهدي « وانظر الى مواليك فاحسن اليهم وقربهم واستكثر منهم فانهم مادتك لشدتك ان نزلت بك . . . واوصيك باهل خراسان فانهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا اموالهم ودماءهم في دولتك ومن لاتخرج محبتك من قلوبهم ان تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم عما كان منهم وتخلف من مات منهم في اهله وولده » [3]

ولا غرو اذا اكرم العباسيون اهل خراسان بعد ان آثروهم على اهلهم وابنائهم وقتلوا من خالفهم . ولكن العرب كانوا يستغربون ذلك لاول وهلة فكانوا اذا جاؤوا مجلس الخليفة رأوا الخراسانيين يذهبون ويجيئون ويدخلون على الخليفة كانهم من اهله والعرب يقفون

(١) ابن خلكان ١٠٦ ج ١ (٢) الفخري ٢١٠

(٣) ابن الاثير ٧ ج ٦

ببابه لا يؤذن لهم الا بمشقة — ذكروا ان ابا نخيلة الشاعر العربي وفد على ابي جعفر المنصور ووقف ببابه واستأذن فلم يؤذن له وهو يرى الخراسانية تدخل وتخرج وتهزأ به فيرون شيخاً اعرابياً جلفاً فيعبثون به فسأله صديق له رآه في تلك الحال « كيف ترى ما انت فيه من هذه الدولة » فقال :

اكثر خلق الله بي لا يدري   من اي خلق الله حين يلقى
وحلة تنشر ثم تطوى   وطيلسان يشترى فيغلي
لعبد عبدٍ او لمولى مولى   يا ويح بيت المال ماذا يلقى [1]

وكان المهدي بن المنصور اذا اراد الشورى جمع خاصته للمداولة واول من يتكلم منهم الموالي [2] وقس على ذلك في سائر الاحوال . فاصبحت بطانة الخليفة ورجال دولته وخاصة حكومته من الموالي الفرس وهم نظموا الحكومة ودواوينها ورتبوا احوالها ومنهم الوزراء والقواد والعمال والكتاب والحجاب كانها دولتهم لان الغالب في هذه المناصب ان تنتقل من الرجل الى بعض اولاده مثل منصب الخلافة فاشتهر بعض البيوتات بالوزارة او الولاية كآل برمك وآل وهب وآل قحطبة وآل سهل وآل طاهر وغيرهم

وكانت امور الدولة ترجع الى الوزراء يولون و يعزلون واذا تولاها احدهم ولى الاعمال رجالاً من اصحاب او مريديه . فتغيرت الاحوال على اهل البلاد واطمأنت خواطرهم وتفرغوا للعمل في التجارة او الصناعة اوالزراعة ونسوا ما كانوا فيه من ضغط بني امية واستبدادهم واطلقت حرية العمل وحرية الدين وذهبت عصبية العرب ورتع الناس في بحبوحة الامن

ولما استبد الاتراك في الدولة وضعفت شوكة الفرس بعد المأمون كما سيأتي ظل الموالي من اصحاب النفوذ في دولة الخلفاء يعتمد عليهم الخليفة في اموره الخاصة والعامة من الكتابة الى القيادة ولم يعد التقدم فيهم للفرس بنوع خاص ولكنهم اصبحوا اخلاطاً منهم ومن سواهم وانما تجمعهم كلمة الموالي ويتفانون في خدمة الخليفة او الامير



(١) الاغاني ١٤٨ ج ١٨   (٢) العقد الفريد ٥٣ ج ١

اهل الذمة في الدولة العباسية

لما اخذ الموالي الفرس في تنظيم الحكومة وترتيب دواوينها احسُّوا بافتقارهم الى من يعينهم على ذلك من اهل الذمة في العراق والشام وكانوا اهل معرفة في الحساب والكتابة والخراج فضلاً عن العلوم فاطمعوهم بالرواتب والجوائز وسهلوا لهم اسباب المعيشة وقربوهم واكرموهم · فاطمأنوا لتلك الدولة وتقاطروا الى بغداد وخدموا العباسيين بعقولهم واقلامهم بما آنسوه من تسامحهم واطلاق حرية الدين لهم فاستخدمهم العباسيون في دواوينهم وولوهم خزائنهم وضياعهم

فالجهابذة (الصيارف) اكثرهم من اليهود · والكتاب فيهم جماعة كبيرة من النصارى · وكثيرًا ما كان النصارى يتقلدون ديوان الجيش وربما عظمت منزلة صاحب هذا الديوان وهو نصراني حتى يتسابق اكابر رجال الدولة من المسلمين الى تقبيل يده · وممن تقلد ديوان الجيش من النصارى في الدولة العباسية ملك بن الوليد قلده اياه المعتضد بالله واسرائيل النصراني قلده اياه الناصر لدين الله · وقد ادرك بعضهم رتبة الوزارة فتقلد خلافتها ابو العلاء صاعد بن ثابت في ايام المتقي بالله [1]

وسرى ذلك الاعتدال والتسامح في الدين الى الدولة الفاطمية بمصر وكان لاهل الذمة فيها شأن عظيم فتقلد الوزارة او الكتابة (وهي كالوزارة في مصر) غير واحد منهم وقويت شوكتهم في الدولة فاستوزر العزيز بالله الفاطمي رجلاً نصرانياً اسمه عيسى بن نسطوروس وآخر يهودياً اسمه منشا فعز النصارى واليهود في ايامها [2] ومن نافذي الكلمة في الدولة الفاطمية من اهل الذمة فهد بن ابراهيم النصراني كاتب برجوان صاحب النفوذ الاعظم في ايام الحاكم بامرالله · فكان فهد هذا يوقع عن برجوان ويخاطب بالرئيس وله نفوذ عظيم وارتفع شأن النصارى في ايامه حتى كادت الدولة تكون في ايديهم [3] على ان الكتابيين (اهل الذمة) كانوا في ايام الحاكم هم اهل الدولة وكذلك في ايام الحافظ [4] وكتاب الجيش في اكثر الاحايين من اليهود

ناهيك بمن كان الخلفاء والامراء يستخدمونهم من اطباء اهل الذمة وحكمائهم وتراجمتهم وكتابهم وخصوصاً نصارى الشام فانهم خدموا التمدن الاسلامي في نقل العلوم

---

(١) تاريخ الوزراء ٩٥ والفرج ١٤٩ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٣٢ ج ٩ والسيوطي ١٧ ج ٢ (٣) المقريزي ٤ و٣١ ج ٢ (٤) المقريزي ٤٠٦ ج ١

من اليونانية والفارسية والسريانية وغيرها الى اللغة العربية على ما فصلناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب وبينا ما كان من محاسنة الخلفاء لهم وتقديمهم ورعاية جانبهم واكرامهم وفيهم النصراني واليهودي والمجوسي والسامري والصابي وغيرهم والكل راتعون في بحبوحة السكينة والطمأنينة يتكسبون من خزائن الخلفاء والامراء

وكان الخلفاء في صدر الدولة العباسية يكرمون الاساقفة ويجالسونهم. فالهادي كان يستدعي اليه الاسقف تيموثاوس في اكثر الايام ويحاوره في الدين ويبحث معه ويناظره ويطرح عليه كثيراً من المشكلات وله معه مباحث طويلة ضمنها كتاباً الفه الاسقف المذكور في هذا الموضوع وكذلك كان يفعل معه هرون الرشيد[١] وغيره واغضوا عن بعض ما في عهد عمر بن الخطاب من التضييق على النصارى كمنعهم من احداث الكنائس[٢] او الاحتفال بالاعياد او منعهم من خدمة الدولة وسهلوا لهم الاختلاط بهم واظهروا احترام مذهبهم حتى اصبح النصارى يهدون الخلفاء أيقونات بعض القديسين فيقبلونها منهم

اضطهاد اهل الذمة في العصر العباسي

على ان ذلك لم يمنع تضييق بعض الخلفاء على النصارى بمقتضى عهد عمر وهدم كنائسهم — فان الملوك المستبدين تختلف سياستهم باختلاف اخلاقهم واطوارهم فقد يتراءى لبعضهم التضييق على النصارى لسبب او لغير سبب كما فعل هرون الرشيد والمتوكل من خلفاء بني العباس. فالمتوكل المتوفى سنة ٢٤٧ هـ كان شديد الوطأة على النصارى ولعله أشدّ الخلفاء العباسيين وطأة عليهم لانه امر بهدم الكنائس المحدثة بعد الاسلام ونهى ان يستعان بهم في الاعمال او ان يظهروا الصلبان في شعانينهم وامر ان يجعل على ابوابهم صور شياطين من الخشب وأن يلبسوا الطيالسة العسلية ويشدوا الزنار ويركبوا السروج بالركب الخشب بكرتين في مؤخر السرج وان يرقعوا لباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب قدر كل واحدة اربع اصابع ولون كل واحدة غير لون الاخرى ومن خرج من نسائهم تلبس آزاراً عسلياً ومنعهم عن لبس المناطق وغير ذلك[٣]

ولا يستغرب هذا التضييق من المتوكل فانه نقم مثل هذه النقمة على سائر اهل الدولة وغيرهم وشدد النكير على الشيعة واهلك العلماء والكتاب. وكان شديد التعصب على الشيعة

(١) تاريخ المشارقة (خط) ١٤٣ (٢) المقريزي ٥١١ جزء ٢

(٣) ابن خلدون ٢٧٥ ج ٣ وابن الاثير ٢٠ ج ٧ والمقريزي ٤٩٤ ج ٢

فاضطهدهم وعذبهم ولاقى اهل الذمة منه الشدائد[1] على انه لم يرتكب هذا الشطط بغير سبب دعا اليه فقد حمله عليه انتصار النصارى لاعداء الدولة — وذلك ان اهل حمص المسلمين وثبوا بعاملهم سنة ٢٤١ هـ فاعانهم النصارى عليه فكتب العامل الى المتوكل فامره باخراج النصارى وهدم كنائسهم وكان هذا من اسباب نقمته عليهم[2]

ويقال نحو ذلك في ما صدر في ايام الرشيد من الاوامر بهدم الكنائس في الثغور وأخذ اهل الذمة بمخالفة هيأة المسلمين في لباسهم وركوبهم[3] — فعل الرشيد ذلك على أثر رجوعه من حرب الروم في هرقلة فالظاهر ان نصارى الثغور (الحدود بين مملكة الروم ومملكة الاسلام) ساعدوا ابناء طائفتهم الروم في تجسس احوال المسلمين واستخدموا الكنائس لهذه الغاية فامر الرشيد بالتضييق عليهم انتقاماً منهم وخصص امره هذا باهل الثغور على الحدود وشدد على الخصوص في مخالفتهم هيأة المسلمين في لباسهم دفعاً لتنكرهم وتجسس أحوال المسلمين — والا فالرشيد من احسن خلفاء بني العباس عدلاً ورفقاً باهل الذمة وكان احد عمال أخيه الهادي قد هدم بعض الكنائس بمصر فلما افضت الخلافة اليه امر باعادة بنيانها[4]

وهكذا يقال في اضطهاد النصارى بمصر على عهد الدولة الفاطمية مع ما تقدم من منزلتهم وحرية الدين عندهم . واقدم ما قاسوه من تضييق الحكام في طقوسهم وكنائسهم في ايام الحاكم بامر الله سنة ٣٩٥ هـ وسبب ذلك ما ذكرناه من تقدم النصارى في مصالح الدولة في ايامه حتى صاروا كالوزراء وتعاظموا لاتساع احوالهم وكثرة اموالهم فتزايدت مكايدتهم للمسلمين على عهد عيسى بن نسطوروس وفهد بن ابراهيم فغضب الحاكم بامر الله — وكان اذا غضب لا يملك نفسه فيبلغ غضبهُ الى حد الجنون . فأمر بقتل هذين الرجلين وشدد على النصارى فامرهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار في اوساطهم ومنعهم من عمل الشعانين والتظاهر بما كانت عادتهم فيه وقبض على ما في الكنائس وادخله في الديوان ومنع النصارى من شراء العبيد وهدم كنائسهم واجبرهم على الاسلام وغير ذلك من التشديد والعنف[5] مما لم يقاس النصارى مثله من قبل ولعله اعظم ما اصابهم من الاضطهاد في ابان التمدن الاسلامي . ولا جناح على التمدن بهِ لان مرتكبه اتاه عن حمق او جنون

(١) تاريخ المشارقة (خط) ١٤٦ (٢) ابن الاثير ٢٩ ج ٧
(٣) ابن الاثير ٨٢ ج ٦ (٤) المقريزي ٥١١ ج ٢
(٥) المقريزي ٤٩٥ ج ٢

وقد سوّغ للحاكم المبالغة في اضطهاد النصارى حربٌ كانت بين الروم والمسلمين يومئذٍ فاخرب الروم بعض جوامع المسلمين ومنها جامع كان لهم في القسطنطينية فانتقم الحاكم منهم بالتضييق على اهل مذهبهم في بلاده وكان في جملة ما هدمه من الكنائس كنيسة القيامة بالقدس . فلما تولى الخليفة الظاهر لاعزاز دين الدين بعد الحاكم عقدت المهدنة بينه وبين ملك الروم سنة ٤١٨ هـ واتفقا على اعادة بناء جامع القسطنطينية وان يعاد بناء كنيسة القيامة وان يؤذن لمن اظهر الاسلام في ايام الحاكم ان يعود الى النصرانية اذا شاء فرجع اليها كثيرون [١] .

وربما كان السبب الذي حمل الحاكم على ذلك التضييق طفيفاً فعظمه تعصبه وحمقه فأمر بالهدم والقتل . على انهُ كثيرًا ما كلف رعاياه من المسلمين وغيرهم اموراً مضحكة تشبه الجنون الصريح كاصداره المنشورات بمنعهم من اكل الملوخيا او من البقلة المسماة بالجرجير او منعهم من عمل الفقاع ومنع النساء من التبرج او المسير في الطرق والامر بسب السلف ولعنهم ونقش ذلك على المساجد وابواب الحوانيت وعلى المقابر ونحو ذلك من الاوامر التي تدلُّ على اختلال في عقله . على اننا قلما نراهُ اتى امرًا الاَّ لسبب وان كان ضعيفاً — فالسبب في منعه الناس من اكل الملوخيا مثلاً ان معاوية بن ابي سفيان عدوّ الشيعة كان يحبها والدولة الفاطمية شيعية . ومنعهم من اكل بقلة الجرجير لانها منسوبة الى عائشة ام المؤمنين ومنعهم من اكل المتوكلية لانها تنسب الى المتوكل وهو من أعداء الشيعة . ومنع الناس من شرب الفقاع لان علي بن ابي طالب كان يكرهه [٢] وقس على ذلك سائر ضروب الحماقة والغرابة ومن هذا القبيل اضطهاد النصارى وتخريب كنائسهم . على انه عاد لسبب طفيف او بلا سبب فأمر ببناء تلك الكنائس [٣] وخيَّر النصارى في الرجوع الى دينهم فارتدَّ كثير منهم — وقد تقدم ان ذلك كان في ايام ابنه الظاهر . ومن اعماله الغريبة انه ابتنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ثم قتلهم واخربها والزم الناس باغلاق الاسواق نهاراً وفتحها ليلاً فظلَّ الناس على ذلك دهرًا طويلاً [٤] فمن كانت هذه اعماله لا يستغرب منه اضطهادٌ ولا يعدُّ اضطهادهُ عارًا على الدولة او الامة

على ان افظع ماقاساه النصارى واليهود من الاضطهاد انما كان في دور الانحطاط او التقهقر في الاجيال الاسلامية الوسطى وخصوصاً بعد الحروب الصليبية لانها كانت سبباً

(١) المقريزي ٣٥٥ ج ١ (٢) المقريزي ٣٤١ ج ٢
(٣) ابن الاثير ٨٦ ج ٩ (٤) السيوطي ١٧ ج ٢

كبيرًا في اثارة التعصب بين الامتين . فالنصارى تذكروا تقدم المسلمين عليهم واضطهاد حكامهم لدينهم وزاد حقد المسلمين على رعاياهم النصارى لما كان من نصرتهم الافرنج مرًّا فبالغ امراء المسلمين في الفتك بهم . فنصارى « قارا » مثلاً بين دمشق وحمص كانوا يسرقون المسلمين في اثناء تلك الحرب ويبيعونهم خفية من الافرنج فلما مرَّ بها السلطان الملك الظاهر في اثناء عودته من بعض غزواته سنة ٦٦٤ هـ امر بنهب اهلها وقتل كبارهم واتخذ صبيانهم مماليك فتربوا بين الاتراك في الديار المصرية فصار منهم اجناد وامراء [١] كما فعل العثمانيون بتجنيد الانكشارية بعد ذلك بزمن غير بعيد

وتزايدت الضغائن بعد تلك الحروب بين المسلمين واهل الذمة في بلادهم حتى اصبحت كل من الطائفتين تبذل جهدها في اذى الاخرى ولما كانت الحكومة اسلامية فالنصارى هم المغلوبون . فاذا احترقت حارة للمسلمين اتهموا النصارى واليهود باحراقها فتامر الحكومة باحراقهم او احراق كنائسهم [٢] وهذا التعصب من مقتضيات تلك العصور المظلمة لان الدول النصرانية كانت تعامل المسلمين في بلادهم مثل هذه المعاملة او اشد منها . وكثيرًا ما كانوا يهددون اسرى المسلمين بالقتل او يتنصروا [٣] واذا دخلوا بلدًا اسلاميًا بالحرب عنوة ضربوا نواقيسهم في الجوامع [٤] ولما تغلب نصارى الاندلس على المسلمين أجبروهم على حمل علامة كان يحملها اليهود واهل الدجن ولما غلبوهم في آخر الدولة خيروهم بين النصرانية والموت فتنصروا عن آخرهم [٥]

تعصب العامة على النصارى

قلنا ان الخلفاء والامراء قدموا النصارى في مصالح الدولة واغدقوا عليهم الاموال واكرموهم ورفعوا منزلتهم وانهم فعلوا ذلك لاحتياجهم اليهم في ابان ذلك التمدن لنقل العلوم او الطبابة او الحساب او الكتابة او غيرها مما تحتاج اليه الدولة في تنظيم شؤونها لاشتغال المسلمين يومئذ بالرئاسة . وكان اولو الامر من الجهة الاخرى يقدمون المسلمين في المعاملات الرسمية على سواهم من اهل الذمة كما كان الامويون يقدمون العرب على غير العرب فنشأ التحاسد بين عامة المسلمين وعامة المسيحيين . وذلك طبيعي في كل مملكة يتنازع العمل فيها ملتان او طائفتان ولا يزال ذلك جاريًا على نحو هذا الشكل الى يومنا هذا

---

(١) ابو الفداء ٤ ج ٤ (٢) المقريزي ٨ ج ٢ وابو الفداء ١١٧ ج ٤ ومراج الملوك ١٨٩ (٣) ابن الاثير ٢٩ ج ٧ (٤) ابن الاثير ٦٢ ج ٨
(٥) نفح الطيب ١٢٦٩ ج ٢

نشأ هذا التحاسد اولاً بين العامة ونحوهم من اهل المهن العلمية او الحرف الصناعية الذين يحومون حول الخلفاء والامراء للارتزاق بما يعوزهم من اسباب المدنية او يرضيهم من عوامل الرخاء والترف كالشعر والغناء والكتابة والحساب وغيرها · واما اهل الطبقة العليا (الشرفاء) والاغنياء ورجال الدولة فقلما كانوا يتعصبون او يتباغضون وانما كانوا ينظرون الى الرجال من حيث هم بقطع النظر عن مذاهبهم فالشريف الرضي الذي كتب الى الخليفة القادر بالله :

عطفاً امير المؤمنين فاننا　　في دوحة العلياء لا نتفرق

ما بيننا يوم الفخار تفاوتٌ　　ابداً كلانا في المعالي معرق

الاّ الخلافة ميزتك فانني　　انا عاطلٌ منها وانت مطوّق

رثى ابا اسحق الصابي بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

ارأيت من حملوا على الاعواد　　ارأيت كيف خبا ضياء النادي

فلم يقع ذلك موقع الاستحسان عند العامة فعابه بعضهم لكونه شريفاً يرثي صابئاً فقال لهُ « انما رثيت فضله » (١)

واما العامة ومن جرى مجراهم او استعان بهم على بعض المصالح او المناصب فكانوا يظهرون التعصب على النصارى و يسعون في اذيتهم لدى ولاة الامور فاذا كان صاحب الامر حازماً لا يصغي للوشاية — ذكروا ان رجلاً نصرانياً من اهل بغداد اتهمه بعض المسلمين سنة ٢٨٤ هـ انه شتم النبي فاجتمع اهل بغداد وصاحوا بالقاسم بن عبيدالله وزير المعتضد بالله يومئذ وطالبوه باقامة الحد عليه وكأنه اعتقد براءة الرجل فلم يجب طلبهم (٢) واتصل الامر بالخليفة وكان له شأن كبير · والحكم صاحب الاندلس في اوائل القرن الثالث للهجرة صلب احد عماله لانه ظلم ابناء اهل الذمة (٣)

فلما اقتربت الدولة من الشيخوخة اخذ هذا التعصب يسري من العامة الى الخاصة لرغبة الناس يومئذ في التقرب من رجال الدولة بالتزلف والتملق التماساً للكسب فينتحلون الاسباب المساعدة على ذلك ويتسابقون الى دس الدسائس واختلاق الوشايات · واسهل وسائل التزلف في الدولة الاسلامية التدين لاشتراك الدين والسياسة في مصالحها فكان بعضهم يستعينون في اظهار التدين والغيرة على الاسلام بالطعن في الاديان الاخرى فاذا كان

(١) ابن خلكان ١٣ ج ١ و٢ ج ٢　(٢) ابن الاثير ١٩٢ ج ٧

(٣) ابن الاثير ١٥٧ ج ٦

صاحب الامر ضعيفاً انطلى عليه ذلك واضطهد اهل تلك الاديان · ولذلك كان التعصب على اهل الذمة ولا سيما النصارى يتقدم بتقدم الدولة الاسلامية نحو الشيخوخة · وقد اشتد في الاجيال الاسلامية الوسطى على اثر الحروب الصليبية فأصبح الحكام وارباب المناصب العلمية وغيرها يجاهرون باحتقار غير المسلمين و يبالغون في اضطهادهم و يعاملونهم معاملة الاعداء · وتمكنت العداوة بين الفئتين وكل منهما يحاول اذية الآخر حتى اصبح النصارى يودون التخلص من دولتهم باية وسيلة كانت فلما جاء التتر لفتح بغداد سنة ٦٥٦ هـ كان هوى اهل الذمة معهم · وتعاظم هذا التباغض على الخصوص قبيل النهضة الاخيرة اي منذ قرن و بعض القرن حتى في المعاملات الرسمية ولا سيما في البلاد البعيدة عن المدينة — فقد اطلعنا صديق عالم على صورة رخصة من جانب الشرع الشريف في ديار بكر بدفن رجل مسيحي توفي فيها ننشرها لغرابة عبارتها وهي :

« من جانب الشرع الشريف في ديار بكر

« الى مطران طائفة كفرة السريان ايها المكروه بالنظر والمعتقد ان يعقوب الكافر من طائفتكم المكروهة حيث ان الملعون قد فطس وهلك فلاجل ادخال جثته الكريهة ضمن الارض قد صدر الاسترحام من مرشد محلته وجرى اخذ الخراج وان تكن الارض لا تقبل جثته الخبيثة فلكي لا تكون سبباً لفساد الهواء قد اعطيناه الرخصة بعنوان الشرع الشريف ان تدفن ضمن مدينتكم المخصوصة بموجب مذهبكم الباطل الى زمرة جهنم اقتضى اعطا هذه الرخصة لكي لا يكون مانع من طرف احد في ٢٦ جمادي الاولى سنة ١٢٠٣ » انتهى

فاي مسلم او مسيحي من اهل هذا العصر يطلع على هذا ولا ينكره او يستغربه ولولا ثقتنا بصدق الناقل لا نكرناه نحن ايضاً · وقد هوّن علينا تصديقه ان صديقاً آخر مقيماً في القاهرة اكد لنا وجود رخص كثيرة في بعض البطركخانات بمصر في مثل هذه العبارة · وقد اخذ هذا التعصب في الزوال من بدء هذه النهضة ومتى نضجت نرجو ان يزول تماماً باذن الله

تحاسد النصارى

على انك لو تدبرت ماكان يلحق النصارى من الاذى في ابان التمدن الاسلامي لرأيت سببه في كثير من الاحوال وشاية بعض طوائف النصرانية بالبعض الآخر كالنساطرة واليعاقبة في العراق · وكثيراً ما كان اهل النفوذ من النصارى انفسهم اشد وطأة على اهل دينهم من حكامهم المسلمين كما كان عيسى بن شهلا الطبيب لما تولى الطبابة

ونال منصباً في دار الخلافة فاغتنم تلك الفرصة وبسط يده على المطارنة والاساقفة يأخذ اموالهم لنفسه حتى انه كتب الى مطران نصيبين كتاباً يلتمس منه فيه من آلات البيعة اشياء عظيمة المقدار ويهدده ومن اقواله له « الست تعلم ان امر الملك بيدي ان شئت امرضته وان شئت عافيته » فبعث المطران بالكتاب الى الربيع حاجب الخليفة فانتقم الخليفة منه

واعتبر ما اجراه بختيشوع بن جبرائيل الطبيب مع حنين بن اسحق المترجم الشهير لما رأى من منزلته عند الخليفة المتوكل فحسده عليها وعمل على الكيد به من طريق الدين وذلك انه اصطنع ايقونة (صورة) للسيدة العذراء وفي حجرها السيد المسيح . وأوعز الى بعض خاصته ان يحملها هدية الى الخليفة في وقت عينه له وذهب الى مجلس الخليفة في الميعاد المضروب وكان هو المستقبل للايقونة من يد الخادم والحامل لها وهو الذي وضعها بين يدي المتوكل فاستحسنها المتوكل جدًّا وجعل بختيشوع يقبلها بين يديه مراراً كثيرة فقال له المتوكل « لم تقبلها » فقال له « يا مولانا اذا لم اقبل صورة سيدة العالمين فلمن اقبل » فقال له المتوكل « وكل النصارى يفعلون كذلك » فقال « نعم يا أمير المؤمنين وافضل مني لاني أنا قصرت حيث أنا بين يديك . ومع تفضيلنا معشر النصارى فاني اعرف رجلاً في خدمتك وافضالك وأرزاقك جارية عليه من النصارى يتهاون بها ويبصق عليها وهو زنديق ملحد لا يقرّ بالوحدانية ولا يعرف آخرة يستتر بالنصرانية وهو معطل مكذب بالرسل » فقال له المتوكل « من هذا الذي هذه صفته » فقال له « حنين المترجم » فقال المتوكل « اوجه احضره فان كان الامر على ما وصفت نكلت به وخلدته في المطبق مع ما اتقدم به في امره من التضييق عليه وتجديد العذاب » فقال « انا أحب ان يؤخر مولاي أمير المؤمنين امره الى ان أخرج وأقيم ساعة ثم تأمر باحضاره » فقال « اني أفعل ذلك » وخرج بختيشوع توًّا الى حنين واخبره « ان الخليفة اهديت اليه ايقونة كذا وقد استحسنها وان نحن تركناها عنده ومدحناها بين يديه احتقرنا وقال لنا هذا ربكم وأمه مصوران وقد سألني أمير المؤمنين عن رأيي فيها فقلت له مثلها يكون في الحمامات والكنائس وغيرها مما لا نبالي به فطلب اليّ ان ابصق عليها فبصقت فاذا دعا بك افعل مثل فعلي » فصدقه حنين ولما دعاه الخليفة فعل كما قال له بختيشوع فلما بصق على الايقونة امر الخليفة بحبسه ووجه الى ثيودوسيوس الجاثليق يومئذ فاحضره فلما رأى الايقونة وقع عليها وقبلها ولم يزل يقبلها ويبكي طويلاً ثم أخذها بيده

وقام قائماً فدعا لامير المؤمنين واطنب في دعائه فدعاه الى الجلوس والايقونة في حجره فطلب الجاثليق اليه ان يتركها له ثم سأله الخليفة عما يستحق الذي يبصق عليها فقال « اذا كان مسيحياً عارفاً فاني احرمهُ دخول الكنيسة ومن القربان وأمنع النصارى من ملابسته وكلامه واضيق عليه» فاعطى الخليفة الايقونة للجاثليق مع جائزة وامر بحنين فجلد بالسياط والحبال وامر بنقض منازله وحبسه ولم ينج من ذلك حتى اعتل المتوكل واحتاج الى مشورته فافرج عنه [١]

حرية الدين

فاذا كان هذا فعل المتوكل في هذه الحال وهو كما وصفناه من شدة وطأته على النصارى وغيرهم من اهل الذمة فكيف في غيره من الخلفاء المعتدلين . وقد رأيت من حديث حنين هذا ان الخلفاء كانوا يفرضون على النصارى صدق التدين في النصرانية فضلاً عن اعفائهم من الاسلام الاَّ من أراده باختياره . وكانوا ايضاً يشاركون النصارى في احتفالاتهم بالاعياد الكبرى كالميلاد والشعانين ويخرجون معهم الى اماكن النزهة كانهم أمة واحدة [٢] ولم يكن ذلك قاصراً على العراق والشام فان المصريين كانوا يحتفلون باعياد النصارى السنوية كما يحتفل بها النصارى انفسهم وكان الخليفة يفرق في الناس الهدايا في عيد الميلاد والغطاس ويفرح المصريون جميعهم معاً [٣]

وكانت الحكومة اذا أنشأت معهداً خيرياً كان حظ اهل الذمة منه مثل حظ المسلمين وخصوصاً المستشفيات ودور المرضى فانها كانت تبنى لمعالجة المسلم والذمي فاذا لم يكن فيها ما يكفي الاثنين قدموا المسلم [٤]

على ان المسلمين في ابان تمدنهم اطلقوا حرية الدين لرعاياهم على اختلاف طوائفهم ونحلهم فلم يسمع انهم اكرهوا طائفة من الطوائف على الاسلام تعصباً للدين حتى في ايام بني امية مع ضغطهم على غير العرب في طلب المال فقد رأيت ما كان من خالد القسري وغيره . واما بنو العباس فكانوا اقرب الى الاعتدال وحرية الدين ولذلك تعددت البدع الدينية في ايامهم من المجوس وغيرهم . ناهيك بالفرق الاسلامية وتعدادها . وكان

(١) طبقاء الاطباء ١٩٤ ج ١ (٢) ابن الاثير ١١٣ ج ٨ والفرج ١٥٦ ج ٢
(٣) المقريزي ٤٩٤ ج ١ (٤) طبقات الاطباء ٢٢١ ج ١

اكثر الخلفاء تسامحاً في الدين المأمون فكان هو نفسه شيعياً وكان وزيره يحيى بن اكثم سنياً ووزيره احمد بن ابي دواد معتزلياً[١] يكفيك من تسامحه في الدين انتصاره للمعتزلة في القول بخلق القرآن — واول من قال بذلك رجل يهودي اسمهُ لبيد الاعصم الذي يقال انهُ سحر النبي . فكان لبيد يقول ان التوراة مخلوقة ثم قال بخلق القرآن وعنه اخذ طالوت ابن اخته واخذه ابان بن سمعان عن طالوت واخذه الجعد بن درهم عن ابان في ايام هشام بن عبد الملك الاموي واظهر مقالتهُ في خلق القرآن وانكار ما فيهِ وان فصاحتهُ لا تعجز الناس بل يقدرون على مثلها واحسن منها [٢] فغضب عليه هشام وبعث بهِ الى خالد القسري امير العراقين وامرهُ بقتله فحبسه ولم يقتلهُ فالح عليه فاخرجه يوم الاضحى وبعد ان صلى قال « اريد ان اضحي اليوم بالجعد بن درهم فانهُ يقول ما كلم الله موسى ولا اتخذ ابراهيم خليلاً تعالى الله عما يقول الجعد علوًّا كبيرًا » ثم ذبحهُ [٣] . ولما تولى مروان بن محمد كان يقول بخلق القرآن مثل الجعد [٤] حتى اذا تولى المأمون فنصر المعتزلة — ولعله اخذ الاعتزال من يحيى بن المبارك مؤدبه — وتبعه الواثق بالله فقال مثل قولهِ فعظم ذلك على عامة المسلمين وانكروه وسموا الواثق كافرًا [٥] كما سمُّوا المأمون امير الكافرين [٦] وكان ما كان من المحنة في ذلك ايام المتوكل . وانقسم المسلمون الى حزبين والخلفاء ضد المعتزلة وقد شدّدوا النكير على القائلين بخلق القرآن وتناشدت الشعراء ذلك طعناً فيهم وتكفيرًا لهم كقول ابي خلف المعافري :

لا والذي رفع السما ء بلا عمادٍ للنظر
ما قال خلقٌ في القرا ن بخلقهِ الاَّ كفر
لكن كلام منزلٌ من عند خلاق البشر [٧]

وبالجملة فقد كانت الافكار من حيث الدين مطلقة الحرية في تلك العصور لا يكره الرجل على معتقده او مذهبه فربما اجتمع عدة اخوة في بيت واحد و كل منهم على مذهبٍ . فأولاد ابي الجعد ستة كان منهم اثنان يتشيعان واثنان مرجئان واثنان خارجيان [٨]

فسياسة الدولة العباسية في معاملة الرعايا من المسلمين واهل الذمة انما هي المحاسنة

---

(١) ابن خلكان ٢٢٣ ج ٢ (٢) المقريزي ٣٤٦ ج ٣
(٣) ابن الاثير ١٢٣ ج ٥ و٢٨ ج ٧ (٤) ابن الاثير ٢٠٤ ج ٥
(٥) ابن الاثير ٨ ج ٧ (٦) ابن الاثير ١٣١ ج٦
(٧) نفح الطيب ١٥٨ ج ٣ (٨) المعارف ١٥٦

والعدل والرفق . وقد اتينا بامثلة من عدل الخلفاء الاولين من بني العباس ورفقهم في الجزء الثاني من هذا الكتاب[1] وكانوا يحاسنون الفرس وسائر اهل النفوذ من الموالي على الخصوص ولا سيما بعد ان صارت الحكومة اليهم وقبضوا على جندها ومالها فكان الخلفاء يقدمونهم ويكرمونهم و يطلقون ايديهم في شؤون الدولة — فاذا داخلهم شك في اخلاصهم ولو على سبيل الوشاية فتكوا بهم فتكاً ذريعاً كما اتفق للبرامكة وغيرهم من وزراء العصر العباسي الاول

العصبية العربية في العصر العباسي

سياسة التقسيم

على ان المنصور كان همه منصرفاً الى العرب لانهم اهل عصبية اذا اجتمعوا تغلبوا على الدولة وفعلوا ما ارادوه لما يعلمه من جرأتهم في طلب الحق وتقبيح الظلم جهاراً ولا يحملون ضيماً وهو كما علمت بما ارتكبه في تأسيس دولته من الغدر والفتك مما لا تصبر عليه النفوس الابية . وقد زاده حذراً منهم ما كان يسمعه من اقوالهم الدالة على اباءة الضيم ولو كان فيه ما يسوءه كما اتفق له وهو في بعض حجاته وكان يطوف بالكعبة ليلاً اذ سمع قائلاً يقول « اللهم اشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق واهله من الطمع » فخرج المنصور الى ناحية من المسجد ودعا القائل وسأله عن قوله فطلب ان يؤمنه حتى يقول الحق فأمنه فقال له « ان الذي حال بين الحق واهله هو انت يا امير المؤمنين » فقال المنصور « ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي والحلو والحامض عندي » فقال الرجل « لان الله تعالى استرعاك المسلمين واموالهم فجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وابواباً من الحديد وحجاباً معهم الاسلحة وامرتهم ان لا يدخل عليك الا فلان وفلان ولم تأمر بايصال المظلوم والملهوف ولا الجائع والعاري ولا الضعيف والفقير وما احد الا وله من هذا المال حق الخ »

فهذا وامثاله نبه المنصور لجرأة العرب فجعل يفكر في اذلالهم ويستنبط له الحيل وكان للعرب ديوان خاص لهم فيه الرواتب على انسابهم ومراتبهم وفيهم اليمنية والمضرية . فلما فرغ المنصور من تأييد دولته بمقاتلة العلويين والخوارج وغيرهم وقد بنى بغداد وحصنها وانشأ فيها منازل الجند نظر الى من حوله منهم على الاجمال فاذا هم ثلاث فرق كبرى اليمنية

(١) الجزء الثاني ٧٧

والمضرية والخراسانية فاتفق سنة ١٥١ هـ ان بعض الجند شغبوا عليه وحاربوه على باب الذهب وهو قصره في بغداد فاوجس خيفة من تكرار ذلك لعلمه ان دولته انما قامت بالجند فاذا اجتمعوا عليه اخرجوها من يده . وهو يعلم ايضاً ان لكل من هذه الفرق هوى مع بعض دعاة الخلافة العلويين او غيرهم فليس اهون عليهم من ردها الى دولة جديدة

وكان كبير بني العباس يومئذ قثم بن العباس بن عبيد الله بن عباس وهو شيخهم وله الحرمة والتقدم عندهم فاستشاره المنصور في ذلك قائلاً « اما ترى ما نحن فيه من التياث الجند علينا وقد خفت ان تجتمع كلمة هؤلاء فيخرج هذا الامر من ايدينا فما ترى ؟ » قال « يا امير المؤمنين عندي رأي ان اظهرته لك فسد وان تركته امضيته وصلحت خلافتك وهابك جندك » قال له « أفتمضي في خلافتي شيئاً لا اعلمه ؟ » قال له « ان كنت عندك متهماً فلا تشاورني فان كنت ماموناً عليها فدعني افعل رأيي » فقال له المنصور « فامضه » فانصرف قثم الى منزله فدعا غلاماً له فقال « اذا كان الغد فتقدمني واجلس في دار أمير المؤمنين فاذا رأيتني قد دخلت وتوسطت اصحاب المراتب فانهض وخذ بعنان بغلتي واستحلفني بحق رسول الله وبحق العباس وبحق امير المؤمنين الا ما وقفت لك وسمعت مسألتك واجبتك عنها فاني سأنتهرك عند ذلك واغلظ لك فلا تخف وعاود المسالة فاني سأضربك فعاود وقل لي اي الحيين اشرف اليمن ام مضر فاذا اجبتك فاترك البغلة وانت حر » ففعل الغلام كما امره وفعل قثم به ما قاله الى ان قال « مضر اشرف لان منها رسول الله (صلعم) وفيها كتاب الله وفيها بيت الله ومنها خليفة الله » فامتعضت اليمن من قوله لانه لم يذكر لهم شيئاً وقال بعض قوادهم « ليس الامر كذلك مطلقاً بغير فضيلة لليمن » ثم قال لغلام له قم الى بغلة الشيخ فاكبحها ففعل حتى كاد يعقبها فامتعضت مضر وقالوا « يفعل هذا بشيخنا » فامر بعضهم غلامه فضرب يد ذلك الغلام فقطعها فنفر الحيان ودخل قثم على المنصور . وافترق الجند العربي من ذلك الحين فصارت مضر فرقة واليمن فرقة والخراسانية فرقة وقال قثم للمنصور « قد فرقت بين جندك وجعلتهم احزاباً كل حزب منهم يخاف ان يحدث حدثاً فتضربه بالآخر »(١)

وكان المهدي بن المنصور قدجاء من خراسان فقدم عليه اهل بيته من الشام والكوفة والبصرة وغيرها فهنأوه بمقدمه فاجازهم وكساهم وفعل المنصور بهم مثل ذلك فقال قثم

---

(١) ابن الاثير ٢٨٥ ج ٥

للمنصور « وقد بقي عليك بالتدبير بقية وهي ان تعبر بابنك (المهدي) فتنزله في ذلك الجانب من بغداد وتحول معهُ قطعة من جيشك فيصير ذلك بلداً وهذا بلداً فان فسد عليك اولئك ضربتهم بهؤلاء وان فسد عليك هؤلاء ضربتهم باولئك وان فسد عليك بعض القبائل ضربتهم بالقبائل الاخرى » فقبل رأيهُ واستقام ملكهُ وبنى المهدي بلداً سماه الرصافة — فاستعان المهدي في استبقاء دولته بسياسة التقسيم

وما زال شأن العرب يضعف في الدولة العباسية تدريجاً وحزب الفرس يقوى حتى اصبحت الدولة في ايام الرشيد بين عاملين كبيرين احدهما فارسي والآخر عربي كل منهما يحاول الاستئثار بالسلطة · وكانت بطانة الخليفة ايضاً حزبين احدهما ينتمي الى الفرس والآخر الى العرب مرجعهما الى ابني الرشيد الامين والمأمون لان الاول امه عربية هاشمية (زبيدة) وام الثاني أمة فارسية يقال ان الرشيد اشتراها لتلد لهُ لان امرأته زبيدة أبطأت في الحمل فولدت لهُ عبد الله المأمون ثم حملت زبيدة فولدت محمداً الامين[1] فوقع بين الوالدتين من التحاسد مثل الذي وقع بين سارة وهاجر امرأتي ابراهيم الخليل · وسرى هذا التحاسد في البطانة ومنهُ الى سائر رجال الدولة وهوى بني هاشم وسائر العرب مع الامين وهوى سائر رجال الدولة من الفرس وغيرهم مع المأمون · وكان زعيم الحزب العربي آل الربيع بن يونس

والربيع يتصل نسبهُ بكيسان مولى الحرث مولى عثمان بن عفان فجدّهُ مولى مولى · ودخل الربيع في جملة موالي المنصور فولاه حجابته ثم جعله وزيره وكان المنصور شديد الميل اليه حسن الاعتماد عليه فسأله يوماً عما يتمناه منه فقال « ان تحب ابني الفضل » فقال المنصور « كيف اخترت لهُ المحبة دون كل شيء » فقال « لانك اذا احببتهُ كبر عندك صغير احسانه وصغر عندك كبير اساءته » ومات الربيع في ايام الهادي سنة ١٧٠ ه ولما تولى الرشيد الخلافة واستوزر البرامكة اسقط في يد الفضل بن الربيع لخروج الوزارة من يده فرام التشبه بهم ومعارضتهم ولم يكن لهُ من القدرة مايدرك بهِ اللحاق بهم فكان في نفسه منهم إحن وشحناء فسعى بهم عند الرشيد وكان سعيهُ من جملة اسباب نكبتهم

ذهاب عصبية العرب بذهاب دولة الامين

وكان المأمون فضلاً عن نسبه الفارسي من امه قد ربي في حجر جعفر بن يحيى البرمكي وهو الذي سعى لهُ في ولاية العهد[2] ورباه على حب الفرس والفضل بن الربيع

(١) المسعودي ٢١١ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٩٤ ج ٦

سعى في تأييد بيعة الامين ولما توفي الرشيد بعد مقتل البرامكة كان الفضل بن الربيع هو الذي حمل الامين على نقض بيعة المأمون [١] واختلف الاخوان على البيعة وكان المأمون عند اخواله بخراسان والامين في اهله ببغداد وانتشب القتال بين الفريقين — وهو قتال بين الفرس والعرب لان العرب في معظم المملكة العباسية كانوا من حزب الامين [٢] · وقد نصر الخراسانيون ابن اختهم المأمون بتدبير الفضل بن سهل · وكان الامين يحرض جنده في بغداد بمشورة الفضل بن الربيع · وكان العرب من الجند العباسي قد انهكتهم الحضارة والترف وتبدّدوا بسياسة التقسيم فلم يستطيعوا دفاعاً · فلما ضاق الحال بالامين ولم يبق عنده مال للتجنيد استنجد رعاع اهل بغداد وفيهم العيارون والشطار وكانوا طوائف كبيرة · وامر بعض قواده ان يتتبعوا اصحاب الاموال والودائع والذخائر من اهل الملة وغيرهم فلم يزده ذلك الاّ ضعفاً · وانقضت تلك الحروب بفوز المامون وسيأتي تفصيل ذلك · فاخرج الخراسانيون الخلافة من العرب وسلموها الى المامون كما اخرجوها قبلاً من بني امية وسلموها الى اجداده

فاستفحل امر الفرس في ايام المامون وازداد العرب ضعفاً حتى كثيرًا ما كانوا يتعرضون لهُ في الشوارع يشكون اغضاءهُ عنهم ومن اقوالهم « يا امير المؤمنين انظر الى عرب الشام كما نظرت الى عجم خراسان » [٣]

فلما افضت الخلافة الى المعتصم سنة ٢١٨ هـ وقد جمع ماجمعه من الاتراك والفراغنة كانت الضربة القاضية على العرب في الدولة العباسية لانهُ كتب الى عماله في الاطراف باسقاط من في دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم ففعلوا وهم يستعيذون بالله من ذلك وانحط شأن العرب من ذلك الحين [٤] ومنعوا من الولايات · وآخر من ولي مصر منهم عنبسة بن اسحق صرف عنها سنة ٢٤٢ هـ [٥] فتمكن الفرس من الدولة وزادت رغبتهم في نزعها من العرب على الاطلاق فقام مرداويج في اصفهان سنة ٣٢٢ هـ يريد ان يأخذ بغداد وينقل الدولة الى الفرس و يبطل دولة العرب [٦] فلم يفلح على ان النفوذ تحوّل بالتدريج الى والخدم كما سترى

(١) ابن الاثير ٨٩ ج ٦ (٢) المقريزي ١٧٨ ج ١

(٣) ابن الاثير ١٧٦ ج ٦ (٤) المقريزي ٩٤ و٣١١ و٣١٣ ج ١

وابن خلدون ١٣٠ ج ١ (٥) المقريزي ٢٩٤ ج ٢ (٦) الفخري ٢٥٣

الشعوبية والعرب

وفي ايام المأمون ومن جاء بعده تظاهر الشعوبية بالطعن على العرب وكان المأمون يقربهم ويجعلهم من بطانته ويجيزهم ومنهم سهل بن هارون قيم بيت الحكمة وكان شديد التعصب على العرب وابو عبيدة الراوية الشهير وعلان الشعوبي . والف الشعوبية الكتب في ذكر مثالب العرب والرد على القائلين بتفضيلهم على سواهم من الامم

والشعوبية يقولون بالمساواة بين بني الانسان ولذلك سموهم ايضاً « اهل التسوية » ومن اقوالهم في الرد على العرب ان النبي نفسه ساوى بين المسلمين على اختلاف مللهم بقوله « المسلمون اخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على سواهم » وقوله في خطبة حجة الوداع « ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى » وما جاء في القرآن « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » . والشعوبية ينوبون بدفاعهم عن كل امم الارض في ذلك العهد الا العرب فاذا افتخروا بملوكهم ذكروا الفراعنة والنماردة والعمالقة والاكاسرة والقياصرة وافتخروا بسليمان الحكيم والاسكندر الكبير وبملوك الهند . واذا فاخروهم بالانبياء والمرسلين ذكروا الانبياء من آدم الى ايامهم وانهم جميعاً من غير العرب الا اربعة هم هود وصالح واسماعيل ومحمد . واذا فاخروهم بالعلم والصناعة والفلسفة ذكروا اختراع لعبة الشطرنج ورمانة القبان والاسطرلاب وفخروا بفلسفة اليونان واشعارهم وسائر علومهم وعلوم الهند والفرس وغيرهم . وبلغ من جسارة بعض الشعوبية في بعض ردوده ان قال « فما الذي تفخر به العرب على العجم فانما هي كالذئاب العادية والوحوش النافرة يأكل بعضها بعضاً ويغير بعضها على بعض فرجالها موثقون في حلق الاسر ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الابل »[1] واستشهدوا على ذلك بابيات من اقوال العرب تدل على ضعف غيرتهم على العرض وقالوا « لايفلح العربي ان لم يكن معه نبي ينصره »[2] وعيروهم باستلحاق الادعياء ونظموا الاشعار طعناً فيهم . وممن نظم المطاعن عليهم الحسن بن هانئ وبشار بن برد وغيرهما على ان بشاراً كان تارة مع هؤلاء وتارة مع هؤلاء

وقام المتعصبون للعرب فألفوا الكتب في الرد على الشعوبية . ومن اشهر ما الف في ذلك كتاب « تفضيل العرب » لابن قتيبة وقد رد الشعوبية عليه في مناظرات يطول شرحها . وفي كل حال فان السياسة وطبيعة العمران قضت بذهاب دولة العرب

---

(١) العقد الفريد ٦٩ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٥٧ ج ٧

نكبة الوزراء الفرس

الوزراء الفرس قبل البرامكة

قد رأيت ان الخلفاء العباسيين قربوا الموالي الفرس وولوهم المناصب الكبرى فاتخذوا منهم الوزراء والعمال فاعتزَّ الفرس وتاقت نفوسهم الى الاستبداد بالدولة والرجوع الى ما كانوا فيه على عهد الاكاسرة . وهم يعلمون ان ذلك لايتيسر لهم في الاسلام الا بصبغة دينية تحت راية الخلافة الاسلامية . وربما كان ذلك الامل في جملة ما حملهم على التشيع لاهل البيت في ايام بني امية ونصرتهم في طلب الخلافة

فلما انتقلت البيعة من العلويين الى العباسيين وبويع هؤلاء بالخلافة ثم جعلها المنصور محصورة فيهم دون العلويين وقاتل آل الحسن وقتلهم بعد ان قتل ابا مسلم وغيره من شيعته لم يرَ الفرس بدًّا من الرضوخ لسلطانه خوفاً من بأسه . على انهم ظلوا على مذهب الشيعة وتربصوا يتوقعون فرصة يثبون بها على الدولة او ينشئون لانفسهم دولة شيعية

وكان الخلفاء يلاحظون ذلك ويحاذرون الوقوع فيه فيستخدمون الفرس في أكبر مصالح الدولة على حذر . فاذا رأوا من احدهم ميلاً الى التشيع عزلوه او قتلوه . ولذلك كان الوزراء يكتمون تشيعهم والخلفاء يبثون عليهم العيون في منازلهم كما فعل المهدي بوزيره يعقوب بن داود وأصله من موالي العرب وكان في بادىء أمره كاتباً عند ابراهيم بن عبد الله العلوي الحسني اخي محمد بن عبد الله الذي قام في المدينة وقتله المنصور . وكان يعقوب قد خرج مع محمد هذا على المنصور ثم رجع في جملة الراجعين وكتم ميله واتصل بالمهدي فاستخدمه وأحبه كثيراً ووثق به حتى آخاه وأعلن ذلك في الدواوين فقال سلم الخاسر في ذلك :

قل للامام الذي جاءت خلافتهُ تهدى اليه بحق غير مردودِ
نعم القرين على التقوى اعنت به اخوك في الله يعقوب بن داود

واحرز يعقوب المذكور نفوذا عظيماً حتى غلب على أمور المهدي وسهل له الاسراف والاشتغال عن مصالح الدولة وتفرغ هو للعمل والعرب لايعجبهم ذلك فجعلوا يعرضون به بالاشعار ونحوها والمهدي يسمع اقوالهم ولا يبالي بها — روي ان المهدي حج مرة فمرَّ بمكان عليه كتابة قرأها فاذا هي :

لله درك يا مهديُّ من رجل — لولا اتخاذك يعقوب بن داود

فقال المهدي لمن معه أكتبوا تحته « على رغم انف الكاتب لهـذا وتعساً لجدّه »

فلما لم يجد اعداؤه حيلة في تغيير قلب المهدي عليه تحولوا الى الوشاية من جهة لا بدّ للخليفة ان يتنبه لها فقالوا له « ان يعقوب يميل الى العلوية وانه كان معهم عند قيامهم على ابيه » فاشتغل خاطره وكان يعقوب يكتم ذلك عنه فاراد ان يمتحنه فدعا به يوماً وهو في مجلس فرشه موردة وعليه ثياب موردة وعلى رأسه جارية جميلة ثم أظهر المهـدي انه مسرور منه فاهداه المجلس بما فيه والجارية ايضاً ثم تقدم اليه بمهمة طلب قضاءها — وهي ان رجلاً من العلوية يريد المهدي ان يتخلص منه فاوصى يعقوب أن يقتله فوعده بذلك بعد ان اقسم الايمان وذهب الى منزله واستقدم ذلك العلوي وكلمه فرآه لبيباً وتوسل الرجل اليه ان يحجب دمه فحنّ له يعقوب وعفى عنه وأوصاه بالفرار وساعده بالمال . وكانت الجارية في بعض جوانب البيت تسمع ماجرى فنقلت الحكاية كما جرت . فبعث المهدي حتى قبض على الرجل وخبأه وأتى بيعقوب فاعترف له بما فعله فحبسه بالمطبق عدة سنين ولم يخرج الاّ في السنة السادسة من خلافة الرشيد شفع به يحيي بن خالد البرمكي لانهما من طينة واحدة ومذهب واحد وكان يعقوب قد عجز فخيره الرشيد بالاقامة حيث يشاء فاختار مكة فسيروه اليها وتوفي فيها سنة ١٨٧ هـ وهي السنة التي نكب فيها البرامكة

الوزراء البرامكة

مرتبتهم في الدولة

لما توفي المهدي والهادي وافضت الخلافة الى الرشيد استوزر البرامكة لان خالداً جدهم من قواد ابي مسلم وقد جاهد في نصرة العباسيين جهاداً حسناً فاستوزره ابو العباس واستعمله المنصور في الحروب كما تقدم . وكان خالد كبير العقل واسع الصدر لم يبلغ احد من ولده مبلغه في الجود والرأي والبأس والعلم . واشتهر ابنه يحيي بوفور العقل وسداد الرأي وكان مقرباً من المهدي يعوّل على رأيه . وولد ليحيي سنة ١٤٨ هـ غلامه الفضل قبل ولادة الخيزران للرشيد بسبعة ايام وربي الطفلان معاً فارضعت الخيزران الفضل من لبن ابنها فكان الفضل بن يحيي اخا الرشيد من الرضاعة وفي ذلك يقول سلم الخاسر[1]

---

(١) ابن الاثير ٢٧٧ ج ٥

اصبح الفضل والخليفة هرو ن رضيعي لبان خير النساء

ولما ترعرع هرون عهد المهدي الى يحيى بتربيته فشبّ الرشيد في حجره وكان يدعوه « يا ابت » فلما مات المهدي سنة ١٦٩هـ في جرجان كان اكبر رجال الدولة المقربين يومئذ يحيى بن خالد والربيع بن يونس • وخاف الرشيد اختلال الامر اذا علم الناس بموت ابيه وهم في تلك الحال فاستشار يحيى فاشار عليه برأي كان فيه الصواب حتى رجعوا الى بغداد وقد هاج الناس وفيها الخيزران ام الهادي والرشيد فبعثت الى الربيع ويحيى لتشاورهما فاجابها الربيع ولم يجبها يحيى لما يعلمه من غيرة الهادي عليها • فسرّ الهادي من تصرف يحيى وشكره وأوصاه ان يقوم بامر الرشيد كما كان في ايام ابيه ووبخ الربيع

واول شيء خطر للهادي بعد قبضه على ازمة الخلافة ان يخلع اخاه الرشيد من ولاية العهد ويحول الارث الى ابنه لتبقى الخلافة في نسله كما كان يفعل معظم الخلفاء في مثل هذه الحال • فاعلن الهادي عزمه لبعض خاصته فوافقوه وخلعوا هرون وبايعوا جعفر بن الهادي وتنقصوا من الرشيد في مجلس الجماعة • فامر الهادي ان لا يسار بين يديه بالحربة على جاري العادة في المسيرين يدي ولي العهد فاجتنبه الناس وتركوا السلام عليه ورضي هو بذلك ولكن يحيى لم يرض بل حرضه على التمسك بحقه في ذلك فوشى بعضهم الى الهادي ان يحيى يفسد الرشيد عليه فبعث الهادي الى يحيى فقال له « يا يحيى مالي ولك » قال « ما يكون من العبد الى مولاه الاّ طاعته » فقال « لمَ تدخل بيني وبين اخي وتفسده عليّ » فقال « من انا حتى ادخل بينكما انما صيرني المهدي معه ثم امرتني انت بالقيام بامره فانتهيت الى امرك » فطابت نفس الهادي بهذا القول • فاغتنم يحيى رضاءه وقال « يا امير المؤمنين انك ان حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم ايمانهم وان تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك اوكد للبيعة » قال « صدقت » وصرفهُ

فلما لقي الهادي القواد الذين خلعوا الرشيد حملوه على معاودة الخلع فبعث الى يحيى فحبسه فكتب اليه يحيى وهو في الحبس « ان عندي نصيحة » فاحضرهُ وسألهُ عما عنده فقال يحيى « يا امير المؤمنين ارأيت ان كان الامر الذي لا نبلغه ونسأل الله ان يعدمنا قبلهُ (يعني موت الهادي) أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الرشد او يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم ؟ » قال « ما اظن ذلك » قال « يا امير المؤمنين افنأمن ان يسمو اليها اكابر اهلك مثل فلان و يطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد ابيك • والله ان هذا الامر لو لم يعقده المهدي لاخيك لقد كان ينبغي ان تعقدهُ انت لهُ فكيف بان تحله عنه وقد عقده

المهدي ولكني أرى ان تقرّ الامر على اخيك فاذا بلغ اشده اتيت بالرشيد نخلع نفسه له وبايعه » فقبل الهادي قوله وعمل به [1]

وتوفي الهادي ولم يملك الاّ سنة وافضت الخلافة الى الرشيد ويحيى اول من بشره بها واتاه بالخاتم وهو نائم فعرف الرشيد فضله في ذلك وقال له « يا أبت انت أجلستني في هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك وقد قلدتك الامر» ودفع اليه خاتمه وجعل اصدار الامور وايرادها اليه وكان يعظمه فاذا ذكره قال « ابي » وفي هذه الوزارة يقول الشاعر :

الم ترَ ان الشمس كانت سقيمة　　فلما ولي هرون اشرق نورها

بيمن امين الله هرون ذو الندى　　فهرون واليها ويحيى وزيرها

وخلف يحيى اولاداً احسنهم الفضل في جوده ونزاهته وجعفر في كتابته وفصاحة لسانه ومحمد في بعد همته وموسى في شجاعته وبأسه . وقد تولوا ارفع المناصب وتصرفوا في الدولة وخصوصاً جعفر والفضل . فضلاً عما اشتهروا به من الجود والسخاء وكان ابوهم يحيى جواداً مثلهم فشقّ الناس من اسمهم فعلاً للسخاء فقالوا « تبرمك الرجل » اي جاد وسخا

واراد الرشيد اكرام يحيى فولّى ابنيه الفضل وجعفر اعظم الاعمال فقسم المملكة بينهما فجعل جعفر عاملاً على الغرب كله من الانبار الى افريقية وقلد الفضل الشرق كله من شيروان الى اقصى بلاد الترك : فشخص الفضل الى خراسان سنة ١٧٦ هـ فجعلها مركز عمله وازال سيرة الجور منها وبنى المساجد والحياض والربط واحرق دفاتر البقايا وزاد الجند ووصل الزوار والقواد والكتاب لكنه لم يقم فيها الاّ قليلاً فاستخلف على عمله وشخص الى العراق سنة ١٧٩ هـ فاكرمه الرشيد ثم ولاه الوزارة ورأى بعد قليل ان ينقلها الى جعفر فخاطب اباهما قائلاً « قد احببت ان انقل ديوان الخاتم من الفضل الى جعفر وقد استحييت من مكاتبته في هذا المعنى فاكتب انت اليه » فكتب يحيى الى الفضل « قد امر امير المؤمنين اعلى الله امره ان تحوّل الخاتم من يمينك الى شمالك » فاجابه الفضل « قد سمعت ما امر به امير المؤمنين في اخي وما انتقلت عني نعمةٌ صارت اليه ولا غربت عني رتبة طلعت عليه » [2]

وتمكن جعفر عند الرشيد وغلب على امره وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه سواه حتى اتخذ الرشيد ثوباً له زيقان فكان يلبسهُ هو وجعفر جملة . وتصرف جعفر

(١) ابن الاثير ٣٩ ج ٦　　(٢) الفخري ١٨٦

في المملكة تصرفاً مطلقاً لم يكن يمضي امراً الا امضاه الرشيد ولو كان فيه هبة نصف مملكته او تزويج بعض بناته . وفي حكايته مع عبد الملك بن صالح الهاشمي ما يمثل ذلك الاطلاق احسن تمثيل — كان الرشيد متغيراً على عبد الملك لانه من بني عمه وله طمع بالخلافة فاتفق ان عبد الملك المذكور كان مرة في مجلس شراب بمنزل جعفر فلما اراد الانصراف قال له جعفر « اذكر حوائجك » فشكا اليه ان الرشيد متغير عليه فقال له « قد رضي عنك امير المؤمنين وزال ما عنده منك » فقال « وعليَّ ٤٠٠٠٠٠٠ درهم ديناً » قال « تقضى عنك وانها لحاضرة ولكن كونها من امير المؤمنين اشرف بك وادل على حسن ما عنده لك » قال « وابراهيم ابني احب ان ارفع قدره بصهر من ولد الخلافة » قال « قد زوجه امير المؤمنين العالية ابنته » قال « واوثر التنبيه على موضعه برفع لواء على رأسه » قال « قد ولاه امير المؤمنين مصر » وخرج عبد الملك والحضور يعجبون من اقدام جعفر على ذلك من عند نفسه وخافوا ان يغضب الرشيد من هذه الجسارة فما عتم ان علموا بامضاء الرشيد كل ذلك وهو يقول « احسن احسن » [١]

ناهيك بما كان من اطلاق يده في خزائن الدولة وفي رقاب الناس . ومع ذلك فان الرشيد حالما اوجس منه على سلطانه نكبه ونكب سائر اهلهِ نكبتهم المشهورة واختلف المؤرخون في سببها وهو ما نذكره

نكبة البرامكة

الرشيد والشيعة

كان البرامكة من الشيعة وكان جدهم خالد قد بايع للعلويين قبل العباسيين مثل سائر اهل خراسان وفارس . فلما غلب العباسيون وشاهد فتكهم بابي سلمة ثم بابي مسلم وسواه ممن يريد الخلافة للعلويين رأى من الحكمة وسداد الرأي ان يغضي عن ذلك الامر واخلص الخدمة للسفاح ثم للمنصور . وسار ابنهُ يحيى واولاده على نحو ذلك وهوام لا يزال مع الشيعة العلوية من ايثار آل علي لكنهم كانوا يكتمون ميلهم وخصوصاً في خلافة الرشيد لانه كان شديد الوطأة على العلويين وشيعتهم يتتبع خطواتهم ويقتلهم [٢]

---

(١) ابن خلكان ١٠٦ ج ١ (٢) العقد الفريد ١٤٢ ج ١

وكان يكره الشيعة منذ صباه وهم يخافونه من قبل الخلافة . فلما تولى الخلافة امر باخراج الطالبيين جميعاً من بغداد الى المدينة [1]

واشتهر بذلك حتى اصبح الشعراء يتقربون اليه بهجائهم وكان شعراء العلويين يهجونه لهذا السبب وهم لا يجسرون على الظهور في حياته فلما مات ودفن في طوس قال دعبل ابن علي يعرض بما ارتكبه العباسيون جميعاً بقتل العلويين من قصيدة مدح بها اهل البيت وهجا الرشيد واشار الى اجتماع القبرين في طوس قبر الرشيد وقبر الرضا قال :

وليس حيٌّ من الاحياء نعلمه ... من ذي يمان ومن بكرٍ ومن مضرِ
الاَّ وهم شركاء في دمائهم ... كما تشارك ايسارٌ على جزرِ
قتلٌ وأسرٌ وتحريق ومنهبة ... فعل الغزاة بارض الروم والخزر
ارى أمية معذورين ان قتلوا ... ولا ارى لبني العباس من عذر
إربع بطوسٍ على القبر الزكيّ اذا ... ما كنت تربع من دير الى وطر
قبران في طوس خير الناس كلهم ... وقبر شرّهم هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قرب الزكيّ ولا ... على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرىءٍ رهن بما كسبت ... له يداه فخذ ما شئت او فذر [2]

وكان البرامكة يكرهون تعصب الرشيد على العلوية ويعدونه عمله حراماً [3] ويكظمون . على انهم كانوا يساعدون تلك الشيعة سرًّا بما يبلغ اليه امكانهم وكان كبارهم يجتمعون الى جعفر وجيه البرامكة يومئذ وصاحب الصوت الاعلى عند الرشيد ويذكرون اعمال الرشيد وجعفر يحاذر ان يبلغ ذلك اليه ولكن حساده في بلاط الخليفة واكثرهم من العرب او من ينتمي اليهم كانوا يسعون به الى الرشيد وأشدهم غيظاً منه واقدرهم علي الكيد به زبيدة ام الامين لانه فضل ابن ضرتها المأمون على ابنها . وقد اضطغنت عليه مذ كانوا في الكعبة وقد جاؤها لتعليق كتابي العهد للامين والمأمون فلما حلف الامين اليمين على جاري العادة وهمَّ بالخروج من الكعبة ردَّه جعفر وقال له « فان غدرت باخيك خذلك الله » وطلب اليه ان يحلف على ذلك ثلاثاً فشق طلبه على أمه زبيدة فحقدتها عليه وكانت من جملة من حرض الرشيد على الايقاع به [4] فضلاً عما بينهما من العداوة الجنسية وناهيك بمن كان يحسد البرامكة من أمراء العرب وخصوصاً آل الربيع وآل مزيد الشيباني

(١) ابن الاثير ٤٧ ج ٦ (٢) الاغاني ٥٧ ج ١٨
(٣) الاغاني ٧٦ ج ٢٠ (٤) المسعودي ١٩٥ ج ٢

فان البرامكة اضعفوا نفوذهم في الدولة وأغروا الرشيد بهم [١] غير حسادهم من الفرس حتى عمهم محمد بن خالد فانه كان من جملة حسادهم والساعين في أذاهم [٢]

هؤلاء جميعاً كانوا يوغرون صدر الرشيد على جعفر تارة من حيث تشيعه وطوراً من حيث استبداده بالدولة وآونة من حيث استئثاره هو واهله بالاموال والرشيد يحفظ ذلك ويتدبره وقد غلب عليه ماغرس في نفسه من افضال يحيى عليه وآثار ابنائه في تنظيم دولته واحياء معالمها وان يكن ساءه مايبديه جعفر احياناً من نصرة العلويين او استنصارهم فان جعفر لما ولاه الرشيد المغرب استخلف على مصر رجلاً شيعياً [٣] فكان الرشيد صابراً على ذلك يترقب الفرص

الشيعة العلوية بخراسان

وكان الخراسانيون ومن والاهم من اهل طبرستان والديلم قبل قيام العباسيين من شيعة علي وانما بايعوا للعباسيين مجاراة لابي مسلم او خوفاً منه • فلما رأوا ماحلَّ به من القتل غدراً غضبوا وتعاقدوا على الاخذ بثأره ثم رأوا المنصور فتك بالراوندية اخوانهم وهم من اصحاب ابي مسلم ثم بنى بغداد وتحصن فيها فتربصوا واذا هو قد حارب العلويين وبطش فيهم وفرَّ من بقي من ولد علي الى اطراف المملكة الاسلامية في خراسان والمغرب وأخذوا يبثون دعاتهم وينشرون دعوتهم سراً فكان الخراسانيون من اقوى انصارهم انتقاماً من المنصور لقتله ابي مسلم وعملاً بتعاقدهم عليه

فكان العباسيون انما يخافون على دولتهم من خراسان لانها شيعة العلويين وأهلها أشداء ولهم رهبة في قلوب الناس منذ نقلوا الخلافة من بني أمية الى بني العباس • وكان داعية الشيعة هناك في ايام الرشيد يحيى اخا محمد بن عبد الله الذي حاربه المنصور وقتله • فظهر يحيى هذا في الديلم سنة ١٧٦ هـ وقويت شوكته حتى خافه الرشيد فسرَّح اليه الفضل بن يحيى فاستنزله الفضل من بلاد الديلم بالحسنى على ان يشترط ما احب ويكتب له الرشيد بذلك خطه فكتب له أماناً أمضاه الرشيد وجلة بني هاشم وجاء الفضل ومعه يحيى الى بغداد فوفى له الرشيد بكل ما احب وأجرى له ارزاقاً سنية

ثم خطر له ان يحبسه خوفاً منه ولعل بعض الاعداء الشيعة حرضوه على حبسه لكنه لم

---

(١) ابن الاثير ٥٧ ج ٦ وابن خلكان ١٧٩ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٧١ ج ٦
(٣) السيوطي ١٠ ج ٢

يكن يستطيع ذلك لعهد الامان الذي بيده . فاستشار الفقهاء في الامان فقال بعضهم الامان صحيح لخاجهَّ الرشيد فقال الآخر وهو ابو البختري القاضي هذا امان منتقض من وجه كذا فمزقه الرشيد وصمم على حبس الرجل فدفعه الى جعفر فحبسه وهو يرى انه مظلوم لانه جاء على الامان وقد نكث الرشيد الامان فحدثته نفسه ان يطلقهُ بما لهُ من النفوذ والدالة ولم يكن يظن الرشيد يسأل عنهُ . فبعث الى يحيي المذكور من الحبس نخاطبه فتوسل الرجل اليهِ وقال « اتقِ الله في امري ولا تتعرض ان يكون غداً خصمك محمد (صلم) فوالله ما احدثت حدثاً ولا آويت محدثاً » فرقَّ له جعفر وقال « اذهب حيث شئت من بلاد الله » قال « وكيف اذهب ولا آمن ان أُوخذ » فوجه معهُ من أداهُ الى مأمنهِ [1]

الرشيد وجعفر

وكان حسَّاد جعفر يراقبون حركاته وخصوصاً الفضل بن الربيع لانه كان يرشح نفسه للوزارة بعد ابيه فسبقه اليها اولئك العجم وكانت له عيون على جعفر فاخبروه بما فعله فرفع الخبر الى الرشيد فانكره ولكنه انتهر الفضل وأظهر ان جعفر انما فعلهُ بامره . ثم بعث الى جعفر فدعاه الى الطعام معهُ وجعل يلقمهُ ويحادثهُ ثم سألهُ عن يحيي فقال « هو بحاله في الحبس » فقال « بحياتي ؟ » ففطن جعفر فقال « لاوحياتك » وقص عليه امره وقال « قد علمت انه لا مكروه عنده » فقال الرشيد « نعمَّ ما فعلت ما غدوت ما في نفسي » وقد كظم غيظهُ وعزم على الايقاع به من ذلك الحين . ولما قام جعفر عنه قال في نفسه « قتلني الله ان لم اقتلك » ولكنهُ مكث يترقب الفرص ويدبر الحيل لما يعلمهُ من نفوذ البرامكة بما يبذلونه من الاموال للناس على اختلاف طبقاتهم حتى بني هاشم انفسهم

واراد ان يغالطهُ لئلاَّ ينتبه جعفر لما في نفس الرشيد عليه فاظهر انهُ يريد ان يوليه خراسان فأخذ الخاتم ودفعه الى ابيه يحيي وعقد له على خراسان وسجستان ثم عزله عنها بعد عشرين يوماً [2] فهو اما ولاه اياها تمويهاً او ولاه ثم خافه

وكان في جملة حسَّاد البرامكة علي بن عيسى بن ماهان فسعى بموسى بن يحيي اخي جعفر واتهمهُ في امر خراسان واعلم الرشيد انهُ يكاتبهم ليسير اليهم ويحرضهم على خلع الطاعة فصدق الرشيد الوشاية فحبسه ثم اطلقه ولكنه تغير على البرامكة جميعاً وظهر ذلك

---

(١) ابن خلدون ٨ ج ٤ وابن الاثير ٥٠ و ٧٠ ج ٦

(٢) ابن الاثير ٦١ ج ٦

في بعض معاملاته . فكان يحيى بن خالد مثلاً يدخل على الرشيد بغير اذن فعرّض الرشيد في بعض حديثه استهجانهُ ذلك فكفَّ يحيى عنه . وكان يحيى اذا دخل على الرشيد قام لهُ الغلمان فأوصى الرشيد مسرورًا خادمه ان لا يقوموا لهُ فشعر يحيى بهذا التغير وتناقل الناس خبر ذلك ولبثوا يتوقعون شرًّا يصيب البرامكة وليس من يجرأ على اخبارهم بهِ . على انهم كانوا يعرضون في اثناء الغناء بما يخافونه عليهم — ومن ذلك ما كان يغنيه ابن بكار احيانًا :

ما يريد الناس منا ما تنام الناس عنَّا
انما همُّهم ان يظهروا ما قد دفنَّا

وكان الرشيد يستعظم الاقدام على ذلك الامر ويخاف انصار البرامكة اذا هو فتك بهم فاراد ان يستطلع افكار خاصته في هذا الشأن ليرى وقعه في قلوبهم والمغنون احسن وسيلة لذلك لمخالطتهم الناس في حال سكرهم وطربهم والسكر يبعث صاحبه على الافشاء بما في ضميره والتصريح بما يجول في خاطره . فسأل الرشيد مغنيه اسحق الموصلي مرة « باي شيءٍ يتحدث الناس » فقال يتحدثون بانك تقبض على البرامكه وتولي الفضل بن الربيع الوزارة » فاظهر الرشيد الغضب وصاح به « ما انت وذاك و يلك » فامسك [1]

وكان للرشيد عيون على البرامكة في منازلهم ودواوينهم يحصون عليهم انفاسهم فلا يخلوان تبدر منهم بادرة تلميحًا او تصريحًا والوشاة يعظمونها لهُ

وكان في جملة جواسيس الرشيد خادمان خزريَّان رباهما واهداهما الى جعفر فكانا ينقلان اليه كل مايدور في مجالس جعفر يوميًا . وكان لجعفر مجلس انس يعقد في منزله مرة في الاسبوع يحضره ارباب الدولة واهل الوجاهة من الفرس يلبسون اثوابًا لونها واحد يخلعها عليهم جعفر ويلبس هو مثلهم . ففي احد هذه المجالس دار الكلام على ابي مسلم وبطشه وكيف استطاع وحده ان ينقل الدولة الاسلامية من عائلة الى عائلة . فقال جعفر « لا يستغرب ذلك منه ولا فضل لهُ به لانه لم يدركه الا بقتل ٦٠٠٠٠٠ نفس سفك دماءهم صبرًا وانما الرجل من ينقل الدولة من قوم الى قوم بغير سفك دم »[2] وكان الغلامان الخزريَّان يسمعان قوله فنقلاه الى الرشيد وافهماه انه يعرّض بنقل الدولة من العباسيين الى الفرس او العلويين فازداد خوف الرشيد منه

فلما كانت السنة التي نكبوا فيها (سنة ١٨٧ هـ) كان الرشيد قادمًا من الحج وقد

(١) الاغاني ١١٣ ج ٥ (٢) زينة المجالس (فارسي)

صمم على الفتك بجعفر فاظهر رضاءه عنه وولاه كورة خراسان اراد بذلك ان يطمئنه ليأخذ الخاتم منه بحجة الولاية وخلع عليه وعقد لهُ لواءً وعسكرًا بالنهروان . فضرب الناس مضاربهم هناك ومكثوا يتأهبون للسفر وفيهم نخبة اصحاب جعفر وبقي هو ببغداد يتأهب للحاق بهم

وكان له صديق من الهاشميين غيورٌ عليه اسمه اسماعيل بن يحيى قد علم ما في نفس الرشيد على جعفر واهله فاراد ان يتوسط في اصلاح ما بينهما فجاء جعفر في أثناء تأهبه للخروج الى خراسان وخلا به وحادثه في شؤون شتى حتى تطرق الى الموضوع الذي جاء من أجله فقال له « يا سيدي انت عازمٌ على الخروج الى بلدة كثيرة الخير واسعة الاقطار عظيمة المملكة فلو صيرت بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان احظى لمنزلتك عنده » فلما سمع جعفر قوله غضب كأنَّ ما يجول في نفس الرشيد لم يخطر بباله وقال « والله يا اسماعيل ما اكل الخبز ابن عمك الاَّ بفضلي ولا قامت هذه الدولة الا بنا اما كفى اني تركته لا يهتمُّ بشيءٍ من امر نفسه وولده وحاشيته ورعيته وقد ملأت بيوت امواله مالاً وما زلت للامور الجليلة ادبرها حتى يمدّ عينهُ الى ما اذخرته واخترته لولدي وعقبي بعدي وداخله حسد بني هاشم وبغيهم ودبَّ فيه الطمع ؟ والله لئن سألني شيئاً من ذلك ليكونن وبالاً عليه » كانه يهدده بذهاب خراسان . فلما سمع اسماعيل تهديده ورأى غضبه خرج من عنده واحتجب عنه وعن الرشيد لانه صار متهماً عندهما

فسمع ذلك الحديث احد جواسيس الرشيد ونقله اليه فصمم على الفتك به . ولعله كان ينوي القبض عليه وحبسه فقط فلما بلغه هذا التهديد عزم على قتله واكبر الاقدام على ذلك فاستشار زبيدة امرأته وصرَّح بما يجول في خاطره قائلاً « اني خائف ان تمكن هؤلاء من خراسان ان يخرج الامر من يدي » فحرضته على سرعة الفتك به ويقال انها ذكرت لهُ اموراً ارتكبها جعفر في بيت الرشيد [1] تتعلق بالعباسة اخته . فاغتنم الرشيد بُعد جعفر عن رجاله ومريديه وهم في عسكره بالنهروان وهو في بغداد وبعث خادمه مسروراً ليأتيه براسه فذهب اليه وقتله كما هو مشهور . ووجه الرشيد من احاط بابيه يحيى وسائر اولاده وباخيه الفضل ليلاً فحبسهم وقبض ما وجده لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك وارسل الى سائر البلاد بقبض على اموالهم ووكلائهم ورقيقهم واسبابهم ولم يتعرض لمحمد بن خالد لانه كان من جملة الساعين بهم واسند الوزارة بعدهم الى الفضل بن الربيع

(١) الاتليدي ١١٣

عدوهم . ثم ندم الرشيد على قتل البرامكة وكان اذا ذكرهم بكى [١] وقد اصاب جعفر من الرشيد كما اصاب بزرجهر وزير كسرى ابرويز اذ اتهمه كسرى بالزندقة فقبض عليه وقتله ثم ندم على قتله [٢]

فالرشيد فتك بالبرامكة لانه خافهم على سلطانه عملاً بسياسة العباسيين في تأييد دولتهم اذ اتهم جعفر وشك فيه فقتله . وهي غير سياستهم في معاملة رعاياهم فانها كانت مؤسسة غالباً على ما تقتضيه الشريعة الاسلامية ويستدعيه الحق مع رفق وحلم وبذل ومحاسنة ولاسيما الرشيد فقد كان اذا وعظته بكى واذا استعطفته عفا واذا استجديته سخا حتى جرى خبره مجرى الامثال . اما العلويون فكان لا يخاف الله فيهم [٣] ولا في من يدعو اليهم او ينصرهم

الامين والمأمون

او العرب والفرس

لما قتل البرامكة على هذه الصورة غضب اهل خراسان وتضاعفت نقمتهم على الدولة العباسية وتعاقدوا على الاخذ بثار ابي مسلم والبرامكة وتربصوا يترقبون الفرص . وتوجهت آمالهم الى المأمون لان امه فارسية وقد شبَّ في حجر جعفر البرمكي على الميل الى الشيعة العلوية ــ ولم تكن الشيعة يومئذ مذهباً دينياً كما هي اليوم وانما كانت حزباً سياسياً يراد به جماعة الفرس او غيرهم من انصار العلويين . فتمكن حب الفرس ومذهبهم من نفس المأمون منذ نعومة اظفاره وكان يحيى بن خالد قد اختار الفضل بن سهل السرخسي لخدمة المأمون . والفضل اصله من مجوس خراسان اسلم على يد المأمون [٤] سنة ١٩٠ هـ وتشيع طمعاً بنصرة الفرس في خراسان وكان هماماً فقدمه يحيى في الدولة حتى صار من خاصته ثم جعله قهرماناً له . وتوسم الفضل في المأمون نجابة وتعقلاً فتوقع ان تصير الخلافة اليه فلزمه وخدمه وتقرب منه . وكان المأمون يجله ويقدمه ولم يكن الفضل طامعاً بأقل من الوزارة ــ يحكى ان مؤدب المأمون قبل الخلافة لما رأى جميل رايه بالفضل واكرامه

(١) الاغاني ٧٤ ج ١٧ (٢) المسعودي ١١٩ ج ١
(٣) الفخري ١٧ (٤) ابن خلكان ٤١٣ ج ١ وابن الاثير ٧٩ ج ٦

اياه نقل ذلك للفضل وقال له « لا استبعد ان يحصل لك منه ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم » فاغتاظ الفضل وقال « والله ما صحبته لاكتسب منه مالاً قلّ او جلّ ولكني صحبته ليمضي حكم خاتمي هذا في الشرق والغرب »[١]

وكان الرشيد لما بايع لاولاده بولاية العهد جعل للامين العراق والشام الى آخر المغرب وهو الخليفة بعده وجعل للمأمون خراسان وسائر المشرق[٢] على ان يتولى الخلافة بعد اخيه الامين . وكل ذلك بتدبير جعفر وغيره من احزاب الشيعة وفي جملتهم الفضل بن سهل . واراد الرشيد سنة ١٩٢ ﻫ ان يسير الى خراسان فامر ابنهُ المأمون ان يبقى في بغداد حتى يرجع . وكان الرشيد مريضاً فخاف الفضل ان يموت الرشيد في الطريق فيذهب سعيه هدراً فجاء الى المامون وقال لهُ « لست تدري ما يحدث بالرشيد وخراسان ولايتك ومحمد الامين المقدم عليك وان احسن ما يصنعهُ بك ان يخلعك وهو ابن زبيدة واخواله بنو هاشم وزبيدة واموالها كما تعلم فاطلب الى امير المؤمنين ان تسير معه » فطلب المامون ذلك من ابيهِ فامتنع اولاً ثم اجاب — ولا بدَّ لامتناعه من سبب كان يجول في خاطره وهو يتوقع قرب اجله ويرى لاولاده عليهِ رقباء[٣] يحصون انفاسه ويستطيلون بقاءهُ

فسار المامون مع ابيه والفضل معهما واهتم الفضل في اثناء الطريق بتأييد امر المامون فاخذ له البيعة على كل من في عسكر الرشيد من القواد وغيرهم واقرَّ لهُ الرشيد بجميع ما معهُ من الاموال . ثم نزل المامون مرو قصبة خراسان واشتد المرض على الرشيد وهو في طوس والامين في بغداد وله عيون مع الرشيد اشدُّهم غيرة عليهِ الفضل بن الربيع وزير الرشيد بعد البرامكة . فلما بلغ الامين اشتداد المرض على ابيه بعث الى ابن الربيع وغيره يستحثهم على بيعته . فلما مات الرشيد هناك سنة ١٩٣ ﻫ احتال ابن الربيع على من كان في ذلك العسكر والمامون غائب في مرو وحرضهم على اللحاق بالامين . فاطاعوه رغبة منهم في الرجوع الى اهلهم واولادهم في بغداد واغفلوا العهود التي اخذت عليهم للمامون وحملوا ما كان في عسكر الرشيد الى الامين وتمت البيعة لهُ ثم حسَّن الفضل بن الربيع للامين ان يخلع اخاه المامون من ولاية العهد ففعل

---

(١) الفخري ٢٠٣ (٢) ابن الاثير ٦٩ ج ٦

(٣) ابن الاثير ٨٣ ج ٦

الفضل بن سهل وعلي الرضا

فلما بلغ المامون موت ابيهِ ورجوع رجاله الى اخيهِ بالاموال والاحمال وقد نكثوا عهده خاف على نفسه فجمع خاصته بمرو وشاورهم في الامر واظهر لهم ضعفهُ وانهُ لا يقوى على اخيهِ فنشطوه ووعدوه خيرًا . وقال لهُ الفضل بن سهل « انت نازلٌ في اخوالك وبيعتك في اعناقهم اصبر وانا اضمن لك الخلافة » فاطمان خاطر المامون بهذا الوعد الصريح وقال لهُ « قد صبرت وجعلت الامر اليك فقم بهِ » وسماهُ ذا الرئاستين اي رئاسة السيف ورئاسة القلم

فبذل الفضل جهده في نصرة المامون لانهُ انما يعمل لنفسه ووطنه وامتهِ واستمال الناس وضبط الثغور . وتعاظمت العداوة بين الاخوين وقطعت الدروب بينهما من بغداد الى خراسان وابطل كل منهما اسم اخيهِ من الخطبة وتجردت الجيوش وحدثت معارك هائلة فاز فيها جند المامون وهم الفرس بقيادة طاهر بن الحسين وانتهت الحرب بفتح بغداد وقتل الامين سنة ۱۹۸ هـ وقد حملوا رأسه الى المامون في خراسان . فلما تحقق المامون صدق ماعاهده الفضل عليهِ اصبح آلة بيده لايخالفهُ في شيء . فاستبد الفضل في الدولة وولى اخاه الحسن بن سهل كور الجبال والعراق وفارس والاهواز والحجاز واليمن على ان يكون مقامهُ في بغداد . ثم اغتنم هذه الفرصة لنقل الخلافة الى العلويين . وكان داعيتهم يومئذ في خراسان علي بن موسى الرضا بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المعروف بعلي الرضا فبذل الفضل جهده في تحريض المامون على بيعة علي الرضا بولاية العهد بعده اي ان يخرج الخلافة من بني العباسِ الى العلويين . وربما جعل تلك البيعة شرطًا لمساعدتهِ في استرجاع الخلافة لهُ او انهُ حسن لهُ ذلك ولم يشترطهُ . فاجابهُ المامون الى طلبه اما وفاء لوعده او مجاراة لهُ للمكر بهِ او انهُ فعلهُ عن حسن ظن في العلويين لانهُ رضع حب الشيعة من طفوليته وكان يظهر التشيع [1] فبايع لعلي الرضا سنة ۲۰۱ هـ وجعله الخليفة بعده ولقبه « الرضا من آل محمد » وامر جنده بطرح السواد لباس العباسيين ولبس الخضرة وكتب بذلك الى الآفاق

فلما بلغ ذلك الخبر الى بغداد ضجَّ الهاشميون واتباعهم واعظموا الامر وامتنعوا عن البيعة لعلي المذكور وقالوا لا تخرج الخلافة من ولد العباس وقد تحققوا ان تلك البيعة انما هي دسيسة من الفضل بن سهل فانكروا ولاية اخيه الحسن بن سهل على بغداد . واقرُّوا

---

(۱) المسعودي ۲۲٤ ج ۲

اخيرًا على خلع المامون وبيعة عمه ابراهيم بن المهدي فبايعوه ولقبوه « المبارك » وبعث الهاشميون الى المامون يهددونهُ بالقتل اذا بقي على عزمه

وكان الفضل بن سهل يخفي هذه الاخبار عن المامون لئلاً يخاف فيندم وينكث البيعة فيخلع علياً فيذهب سعيه عبثاً . وكان علي الرضا مطلعاً على ما حدث في بغداد وابت نفسه ان يحدث ذلك بسببه ولا يطلع المامون عليهِ فجاءه بنفسه واخبره بما صار اليهِ حال بغداد وانهم بايعوا ابراهيم بن المهدي . فاستغرب المامون الخبر ولم يصدقه وقال « بل هم ولوه عليهم في اثناء غيابي كذلك اخبرني الفضل » فقال لهُ « ان الفضل قد كذبك » فادرك المامون دسيسة الفضل وانهُ انما نصرهُ لهذا الغرض وشكَّ فيه فحلَّ قتله عندهُ فدسَّ اليهِ اناساً قتلوه في الحمام بسرخس مغافصةً ثم حاكمهم على قتلهِ وقتلهم بهِ[1]

وفكر في بيعة علي الرضا فاعظم ان يرجع عنها وخاف اذا رجع ان يثور عليهِ اهل خراسان و يقتلوه فعمد الى سياسة الفتك فدسَّ اليهِ من اطعمهُ عنباً مسموماً فمات[2] فذهبت الاسباب التي اغضبت اهل بغداد فخلعوا ابراهيم بن المهدي وعادوا الى بيعة المامون . فهرب ابراهيم والفضل بن الربيع وسائر الذين كانوا مع الامين في تلك الثورة وجاء المامون بغداد سنة ٢٠٤ هـ واستقرَّ بها . ودفعاً للشبهة في ما اشتهر بهِ من حب آل ابي طالب اضطهدهم ومنعهم من الدخول عليهِ وامرهم بلبس السواد[3]

فاضطرب امر الشيعة في بغداد مع بقاء النفوذ للفرس وهم يكتمون تشيعهم الى آخر خلافة الواثق فلما تولى المتوكل سنة ٢٣٢ هـ اضطهد الشيعة وشدد النكير عليهم لانه كان قد ربي من حداثته بين جماعة اهل عصبية عربية يكرهون الفرس او الشيعة . منهم علي بن الجهم الشاعر الشامي من بني شامة وعمرو بن فرخ الرخجي وابو السمط من ولد مروان بن ابي حفصة الذي كان يتقرب الى الرشيد بهجو العلويين وهو من موالي بني امية . وكانوا يخوفون المتوكل من الشيعة على الاجمال و يشيرون عليه بابعادهم والاعراض عنهم والاساءة اليهم ثم حسَّنوا لهُ الوقيعة في اسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم في الدين . فأثرت اقوالهم فيه وشبَّ على كره الشيعة وكره الخلفاء الذين كانوا ينصرون الشيعة قبلهُ وهم المأمون والمعتصم والواثق[4] كما اثرت تربية البرامكة في المامون وحببوا اليه الشيعة واهلها

---

(١) ابن الاثير ١٤٣ ج ٦ والفخري ١٩٩ والاغاني ٣١ ج ٩ وابن خلكان ٤١٤ ج ١

(٢) ابن الاثير ١٤٤ ج ٦ والفخري ١٩٩ (٣) ابن الاثير ١٥٦ ج ٦

(٤) ابن الاثير ٢٢ ج ٧

فلما تولى المتوكل امر بهدم قبر الحسين بن علي وهدم ما حوله من المباني ومنع الناس من اتيانه و بالغ في بغضه علياً واهل بيته حتى جعله سخرية ـ ذكروا انه كان في جملة ندمائه مخنث اسمه عبادة كان يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه وهو اصلع تشبهاً بالامام علي و يرقص و يقول « قد اقبل الاصلع البطين خليفة المسلمين » (يعني علياً) والمتوكل يشرب و يضحك [1] وغلبت السنَّة في الدولة من ذلك الحين وقوامها الاتراك كما سيأتي . وبذهاب امر الشيعة من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها و بخلافة المتوكل ينقضي العصر الفارسي الأول

الاسرار في الدولة العباسية

واشتهر بنو العباس على الخصوص بحفظ الاسرار والتكتم في ما ينوونه وكانوا يفرضون ذلك على مواليهم ورجال بطانتهم ولا سيما في ما يحتاجون اليـه لتثبيت دعائم دولتهم كما رايت من تصرف الخلفـاء مع قوادهم ووزرائهم من اول دولتهم وخصوصاً المنصور مع اعمامه وابي مسلم وغيرهم وتصرف الرشيد مع البرامكة والمأمون مع الفضل ابن سهل وعلي الرضا وطاهر بن الحسين • وكانوا يرون كتمان مشروعاتهم شرطاً من شروط نجاحها كما فعل قثم بن العباس في التفريق بين فرق الجند بحيلة لم يشأ ان يطلع المنصور عليها • وكانوا يستعينون على ذلك بالعيون والارصاد وكل منهم يتجسس على صاحبه • فيبث الخليفة العيون على قواده ووزرائه ووزراؤه يقيمون الارصاد عليه • فربما كان خادم الرجل او جاريته عيناً عليه وقد يقيم الخليفة الجواسيس والرقباء على أولاده او اخوته او يقيم ولاة العهد الرقباء على آبائهم كما فعل الامين والمأمون بابيهم الرشيد فقد كان رقيب المأمون على ابيه مسروراً الخادم ورقيب الامين جبرائيل بن بختيشوع الطبيب وكانوا يحصون انفاسه [2] كما تقدم

ولما تولى المأمون الخلافة واتى بغداد كان يتجسس على ابراهيم بن المهدي فالزمه رجلاً ينقل اليه كل ما يسمعه من لفظه جداً او هزلاً [3] وهكذا كان سائر الخلفاء وخصوصاً في اواخر الدولة لان التجسس يكثر اذا مالت الدولة الى السقوط وتدانت من الهرم كما سيجيء

(١) ابو الفداء ٤٠ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٨٣ ج ٦
(٣) الاغاني ٨٢ ج ٢٠

وكان للوزراء عيون على الخلفاء وللخلفاء عيون على العمال هم اصحاب البريد او اصحاب الاخبار غير ما كانوا يبثونه من الخدم والجواري والمغنيات لهذه الاغراض — كانوا يفعلون ذلك خوفاً على سلطانهم فبالغوا في التكتم الى ما يفوق الوصف · فكان للمأمون على كل واحد صاحب خبر وكان يغتفر كل شيء الا القدح في الملك وافشاء السر والتعريض بالحريم [١]

وبمحافظتهم على الاسرار والتكتم في اعمالهم اشكل على الناس كثيرٌ من الحوادث التي جرت في ايامهم ولم يفهموا اسبابها · فنكبة البرامكة مثلاً تهكن المؤرخون في تدوينها رجماً بالغيب وذهبوا في اسبابها كل مذهب · وكم من قتيل لم يعرف قاتله فحسبوه مات من اكلة عنب او تمر او غير ذلك وانما قتل مسموماً بدسيسة بعض الخلفاء او القواد او ولاة العهد الى طبيبه او صاحب داره [٢]

اختلاط الانساب بعد الاسلام

قد رأيت ما كان للعرب من العناية في حفظ انسابهم حتى كانوا يحتقرون من لم يكن مولوداً من ابوين عربيين فاذا كان ابوه غير عربي سموه المذرَّع او كانت امه اعجمية سموه الهجين · واذا كانت امه أمة استعبدوه فاذا انجب اعترفوا بهِ والاَّ ظل عبداً والعرب لا تورث الهجين وهو من قبيل احتقارهم غير العرب كما تقدم

ابناء الأماء

ولما جاء الاسلام وغلب العرب على امم الشرق من فارس والترك وغيرهما وكثرت السبايا في اثناء الفتوح اتخذوا من النساء اظئاراً ودايات ومراضع واقتنوا الجواري للفراش وكانوا في بادىء الرأي يكرهون التزوج بهنَّ ويحتقرون ابناءهن وخصوصاً في الحجاز مركز الجامعة العربية حتى نشأ في المدينة ثلاثة من كرام الرجال امهاتهم من الاماء وهم علي بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وفاقوا اهل المدينة فقهاً وعلماً وورعاً فرغب الناس في السراري [٣]

(١) المسعودي ٢٢٥ ج ٢ وطبقات الاطباء ١٧١ ج ١

(٢) طبقات الاطباء ١٨٢ ج ١ (٣) العقد الفريد ٢٢٩ ج ٣

على ان بني امية ظلوا يحتقرون ابناء الأماء تعصباً للعرب على العجم فبلغ عبد الملك يوماً ان علي بن الحسين تزوج جارية له واعتقها فكتب اليه يؤنبهُ فاجابه عليّ « ان الله رفع بالاسلام الخسيسة واتمّ النقيصة واكرم بهِ من اللؤم فلا عار على مسلم وهذا رسول الله (صلعم) قد تزوج امته وامرأة عبده » فلما تلا عبد الملك جوابه قال « ان علي بن الحسين يشرف من حيث يتضع الناس » على ان العرب اصبحوا بعد الاسلام يرفعون من شأن الهجناء اعتماداً على ان النسب ليس من قبل الام وانما النسب للاباء عملاً بقول الشاعر :

لا تشتمنّ امرءًا من ان تكون لهُ ... امٌّ من الروم او سوداء عجماء
فانما امهات القوم اوعية ... مستودعات وللاحساب آباء

اما بنو امية فظلوا على احتقارهم بني الاماء الى اواخر دولتهم وكانوا لا يستخلفونهم وقالوا لا تصلح لهم العرب . ولذلك لما قام زيد بن علي بن الحسين يطالب بالخلافة في ايام هشام بن عبد الملك عيره هشام بقوله « انت الذي تنازعك نفسك في الخلافة وانت ابن امة » قال « يا امير المؤمنين ان الامهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات وقد كانت ام اسماعيل امة لام اسحق فلم يمنعه ذلك ان بعثه الله نبياً وجعله للعرب اباً فاخرج من صلبه خير البشر محمداً »[1] فالعلويون كانوا اقرب للاختلاط بغير العرب استنكافاً من شدة تعصب بني امية للعرب ولذلك كان الموالي اكثرهم من شيعة العلويين

وكان العرب في صدر الاسلام بهذا الاعتبار طائفتين وفيهمْ من يحقر ابناء الاماء وفيهم من لا يجعل لنسب الام قيمة — ذكروا ان عبد الملك بن مروان سابق ولديهِ سليمان ومسلمة فسبق سليمان فقال عبد الملك :

الم انهكم ان تحملوا هجناءكم ... على خيلكم يوم الرهان فتدركُ
وما يستوي المرآن هذا ابن حرة ... وهذا ابن اخرى ظهرها متشركُ
وتضعف عضداه و يقصر سوطه ... وتقصر رجلاه فلا يتحرك
وادركنه خالاته فنزعنه ... الا ان عرق السوء لا بدَّ يدرك

وهاك ماقالهُ حاتم الطائي :

وما انكحونا طائعين بناتهم ... ولكن خطبناها باسيافنا قسرا
فما زادها فينا السباء مذلة ... ولا كلفت خبزًا ولا طبخت قدرا

---

(١) المسعودي ١٣٠ ج ٢

ولكن خلطناها بخير نسائنا فجاءت بهم بيضاً وجوههم زهرا
وكائن ترى فينا من ابن سبية اذا لقي الابطال يطعنهم شزرا
ويأخذ رايات الطعان بكفه فيوردها بيضاً و يصدرها حمرا
كريم اذا اعتز اللئيم تخاله اذا ما سرى ليل الدجي قمرا بدرا [1]

على ان طبيعة العمران غلبت على ما أراده الامويون من حفظ النسب العربي وقضى الاختلاط بالاعاجم باختلاط الانساب حتى في الخلفاء من بني أمية فبايعوا في أواخر دولتهم لابناء الاماء . وأول من تولى الخلافة من الخلفاء الهجناء يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ ولكن أمه كانت من نسل يزدجرد ابن كسرى سباها قتيبة ببلاد الصغد وارسلها الى الحجاج فقدمها الحجاج الى الوليد بن عبدالملك فاولدها يزيد [2] ويقال ان بني أمية حظروا مبايعة بني الاماء ليس لاستهانة بهم ولكنهم كانوا يرون زوال دولتهم على يد ابن امة فلما تولى يزيد المذكور ظنوه الذي يذهب ملكهم على يده فلم يلبث سبعة اشهر حتى مات ووثب مكانه مروان بن محمد وأمه أمة كردية فذهب ملكهم على يده

الخلفاء الهجناء

اما بنو العباس فقامت دولتهم بالموالي وقد ضعفت في ايامهم العصبية العربية لكثرة الاختلاط فاصبحوا لا يعتدون بالام على الاطلاق وكان أكثر خلفائهم من بني الاماء من ابراهيم الامام فما بعده وفيهم الاماء من الفرس والترك والروم والاكراد والبربر والاحباش والزنج وغيرهم واليك اسماء بعض خلفاء بني العباس من ابناء الاماء :

اسم الخليفة	جنس أمه
ابراهيم الامام	بربرية
المنصور	بربرية
الرشيد	حرشية
ابراهيم بن المهدي	زنجية
المأمون	فارسية
المنتصر بالله	حبشية رومية
المستعين بالله	صقلية

(١) العقد الفريد ٢٣٠ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٢٧٥ ج ٤ و ١٤٧ ج ٥

اسم الخليفة	جنس امه
المعتز	جارية ؟
المهتدي	رومية
المقتدر	تركية
المكتفي	تركية
المستضيء	أرمنية
الناصر	تركية

وقس على ذلك الخلفاء من الدول الاخرى • فان المستنصر بالله الفاطمي أمهُ أمة سودانية وعبد الرحمن الداخل الاموي أمه بربرية • ناهيك بابناء الخلفاء الذين لم يتولوا الخلافة حتى في صدر الاسلام فان محمد بن الحنفية امه جارية سندية سوداء

فاذا كان هذا حال اختلاط النسب في الخلفاء فكيف في سائر طبقات الناس • فالنسب العربي لم يكن خالصاً الاَّ في الجاهلية وصدر الاسلام الى أواسط الدولة الاموية وظل بعد ذلك محفوظاً من حيث الآباء فقط اما من حيث الامهات فانه اختلط اختلاطاً عظيماً • ونحن نعلم الآن ان الولد يرث من أمه كما يرث من ابيه وربما كان من حيث الاخلاق اقرب الى أمه مما الى ابيه • فالعرب بعد القرن الثاني للهجرة قلَّ فيهم الدم العربي الخالص الا في البادية او حيث لم يكثر اختلاطهم بالاعاجم • فضلاً عما أثر فيهم من طبائع الاقاليم التي نزلوها وعادات اهلها

فالعرب الحضر في القرن الثالث للهجرة هم غير العرب في صدر الاسلام فكيف في حضر هذه الايام وقد توالى فيهم الاختلاط والتزاوج ناهيك بمن يتعرب وينتسب الى العرب وخصوصاً بعد ضياع الانساب • حتى أصبحت العصبية العربيــة تنسب الى البلاد فاهل الشام ومصر والعراق والمغرب مثلاً يعدون من العرب وهم بالحقيقة اخلاط من العرب والترك والديلم والجركس والروم والفرس والارمن والكرج وغيرهم ولكن الرجل اذا نزل بعض هــذه البلاد عدَّ في باديء الرأي غريباً • فاذا قطنها وتناسل فيها كان اولاده مولدين فاذا توالت عليهم الاجيال سمُّوا عرباً

العصر التركي الاول

من خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ الى تسلط الديلم سنة ٣٣٤ ﻫ

نريد بهذا العصر المدة التي استبدَّ فيها الاتراك بالدولة العباسية وهم الاجناد تمييزاً لهُ عن العصر العباسي الفارسي الذي استبد فيه الفرس وهم الوزراء وليس بين العصرين حدٌّ فاصل ينتهي اليه الواحد ويبتدئ منه الآخر بل هما تعاصرا مدة كان الاول في اواخره والآخر في اوائله

الاتراك القدماء

الترك امة قديمة جدًّا مؤلفة من قبائل وبطون وافخاذ كانت مواطنهم على جبال الالطاي او جبال الذهب في اواسط اسيا بين الهند والصين وسيبيريا • وهم يذهبون في اصل اجتماعهم مثل مذهب الرومانيين في مؤسس دولتهم (روملس) فيعتقدون ان برتزينا اول قوادهم رضع من ثدي الذئبة فلما شبَّ قادهم في الحروب والغزو بخيامهم وانعامهم لانهم اهل بادية فحاربوا الامم المجاورة لهم وخصوصاً سكان الصين • وخلف برتزينا غير واحد من ابنائه وكانوا قد شاهدوا مدن الصين وعمرانها فاحب بعضهم ان يبني المدن فمنعه بعض امرائه ومن نصائحه في هذا الشأن قولهُ «نحن يا مولاي اقلُّ من عشر اهل الصين عدداً وقوَّتنا انما هي باطلاق حريتنا — اذا راينا في انفسنا قوة على الحرب هجمنا والاَّ رجعنا الى البادية واهل المدن محبوسون داخل الاسوار كأنهم في قفص» فاعجبه راي الرجل وعدل عن التحضر — وتلك كانت حال العرب في صدر الاسلام فان بداوتهم كانت من اهم اسباب تغلبهم

وما زال الاتراك اهل بادية وغزو وخيام يزدادون قوة وعدداً حتى اجتمع منهم نحو ٤٠٠,٠٠٠ رجل حاربوا اهل الصين والفرس والرومان خمسين سنة وظفروا في معظم حروبهم . وقد عقدوا مع الرومان في ايام يوستنيان صلحًا وظلت العلائق حسنة بينهم وبين خلفائهِ وتبودلت السفارات بين الامتين غير مرة . وفي ايام خاقان ديزابول ارسل اليهِ الرومانيون في جبال الذهب وفداً عقدوا معهُ محالفة على محاربة الفرس في زمن كسرى انوشروان فلم يقووا عليهِ . وكانوا قد انتشروا في بلاد تركستان واقام بعضهم في المدن

الاتراك بعد الاسلام

ولما ظهر الاسلام وانتشر العرب في انحاء العالم وطئت حوافر خيولهم بلاد الترك وهم يعبرون عنها بما وراء النهر ففتحوا بخارا وسمرقند وفرغانة واشروسنة وغيرها من تركستان في ايام بني امية . ولما تولى العباسيون كانت تلك المدن خاضعة للمسلمين يؤدون عنها الجزية والخراج وكانوا يحملون في جملة الجزية اولاداً من اهل بادية تركستان يبيعونهم بيع الرقيق وهم في الغالب من السبي او الاسرى على جاري العادة في تلك الاعصر . فضلاً عمن كان يقع منهم في ايدي المسلمين في اثناء الحروب بالاسر او السبي و يعبرون عنهم بالمماليك و يفرقونهم في بلاط الخلفاء ومنازل الامراء . فاخذوا يدينون بالاسلام مثل سواهم من الامم التي خضعت للعرب في ذلك العهد ومنهم العبيد والموالي كما تقدم

وكان الاتراك يومئذ يمتازون عن سائر الشعوب التي دانت للمسلمين بقوة البدن والشجاعة والمهارة في رمي النشاب والصبر على الاسفار الشاقة فوق ظهور الخيل والثبات في ساحة الوغى مع قلة العناية بالعلوم ولا سيما الفلسفة والعلم الطبيعي وقلما اشتغل احد منهم بدرسها في ابان التمدن الاسلامي . واشتهر ذلك عنهم حتى اصبحوا اذا سمعوا بتركي يشتغل بالعلم الطبيعي ذكروه مع الاستغراب كما فعل ابن الاثير لما اشار الى معرفة قتلمش علم النجوم فقال «ومن العجب ان هذا قتلمش كان يعلم علم النجوم وقد اتقنه مع انه تركي و يعلم غيره من علوم القوم» و يعرف الاتراك في تاريخ الاسلام باسماء كثيرة تختلف باختلاف اصولهم وفروعهم . وقبائلهم كثيرة مثل قبائل العرب

الجند التركي في الدولة العباسية

المعتصم والاتراك

اول من استخدم الاتراك في الجندية من الخلفاء المنصور العباسي ولكنهم كانوا شرذمة صغيرة لا شأن لها في الدولة وانما كان الشأن الاكبر يومئذ للخراسانيين (الفرس) والعرب . ولما اشتد التنافس بين العرب والفرس في ايام الرشيد وذهبت سطوة العرب بذهاب دولة الامين وتسلط الفرس انصار المامون واخواله واستبدوا في الدولة كانت الحضارة قد اضرت بالمسلمين واذهبت منهم قوة التغلب والفتح . ففكر المعتصم اخو المامون في ذلك قبل ان تفضي الخلافة اليه وكانت امه تركية وفيه كثير من طبائع الاتراك التي

ذكرناها مع الميل اليهم لانهم اخواله كما كان يميل المامون الى الفرس . وشاهد المعتصم من جرأة الفرس وتطاولهم بعد قتل اخيه الامين حتى اصبح يخافهم على نفسه . ولم يكن له ثقة بالعرب وقد ذهبت عصبيتهم واخلدوا الى الحضارة والترف وانكسرت شوكتهم فرأى ان يتقوى بالاتراك وهم لايزالون الى ذلك العهد اهل بداوة و بطش مع الجرأة على الحرب والصبر على شظف العيش . فجعل يتخير منهم الاشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم في العراق او يبعث في طلبهم من تركستان وغيرها . فاجتمع عنده عدة آلاف وفيهم جمالٌ وصحة فالبسهم اثواب الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وميزهم بالزي عن سائر الجنود [1] . واكثر الاتراك الذين اجتمعوا عندهُ ينسبون الى فرغانة واشروسنة

فلما افضت الخلافة اليهِ كان الاتراك عوناً لهُ وتكاثروا حتى ضاقت بغداد عنهم وصاروا يؤذون العوام في الاسواق فينال الضعفاء والصبيان من ذلك أذى كثير وربما رأوا الواحد بعد الواحد قتيلاً في قارعة الطريق . فاتفق ان المعتصم خرج بموكبهِ يوم عيدٍ فقام اليهِ شيخ فقال لهُ « يا ابا اسحق » فاراد الجند ضربه فمنعهم وقال « ياشيخ مالك » قال « لا جزاك الله عن الجوار خيراً جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الاتراك فاسكنتهم بيننا فايتمت بهم صبياننا وارملت نساءنا وقتلت رجالنا » والمعتصم يسمع ذلك فدخل منزله ولم يُرَ راكباً الى مثل ذلك اليوم فخرج فصلى بالناس العيد ولم يدخل بغداد بل سار يلتمس معسكراً لاجناده حتى اتى سامرّا فاتخذها معسكراً فاعجبته وسماها سرَّ من راى واختط فيها الخطط واقطع اتراكهُ القطائع على حسب القبائل ومجاورتهم في بلادهم وافرد اهل كل صنعة بسوق وكذلك التجار . فبنى الناس وارتفع البنيان وشيدت القصور وكثرت العمارات واستنبطت المياه وتسامع الناس ان دار الملك قد انتقلت الى هناك فقصدوها وجهزوا اليها من انواع الامتعة وسائر ما ينتفع بهِ الناس فكثر العيش واتسع الرزق . وما زالت سامرّا قاعدة الدولة العباسية من سنة ٢٢١ هـ الى ايام المعتمد فعاد الى بغداد سنة ٢٧٩ هـ وهو اول من عاد اليها منذ بنيت سامرّا [2]

وكان المعتصم ينظم المماليك فرقاً عليهم القواد منهم مثل نظام الجند في ذلك الزمن . ولم يكتفِ بجمع المماليك الاتراك بالشراء او المهاداة ولكنه رغَّب امراء الاتراك واولاد ملوكهم بالقدوم اليه والاقامة في ظله . وممن جاء منهم على هذه الصورة جف بن

(١) المسعودي ٢٤٦ ج ٢ (٢) ابن الاثير ١٨١ ج ٧

الْمتكين من اولاد ملوك فرغانة وكانوا قد وصفوه له بالشجاعة والتقدم في الحروب فوجه المعتصم اليه من احضره واحضر غيره من ابناء الامراء فبالغ المعتصم في اكرامهم . ولما بنى سرَّ من رأى (او سامرّا) اقطعهم فيها القطائع وظلت قطائع جف تعرف باسمه هناك عدة قرون (١)

وكان اكثر الاتراك لما جمعهم المعتصم اليه يدينون بالمجوسية او الوثنية على ما كانوا عليه في بلادهم وفيهم جماعة قد دخلوا الاسلام . اما غير المسلمين فلما صاروا من جند الخليفة وتربوا في ظل المسلمين أسلموا وفيهم من اظهر ذلك تزلفاً الى الخلفاء كالافشين وكان مجوسياً واظهر الاسلام طمعاً بالكسب من الغنائم بالحروب (٢)

وكان المعتصم شديد الرغبة في استبقاء اتراكه على فطرتهم ويخاف تحضرهم واختلاطهم بالامم الاخرى فتذهب عصبيتهم وتضعف نجدتهم فابتاع لهم الجواري التركيات فازوجهم منهن ومنعهم ان يتزوجوا او يصاهروا احداً من المولدين الى ان ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم الى بعض واجرى للجواري ارزاقاً قائمة واثبت اسماءهن في الدواوين فلم يكن يقدر احد منهم ان يطلق امرأته او يفارقها (٣)

الجند التركي ومصالح الدولة

فاشتد ساعد الاتراك بذلك وقويت شوكتهم وغلبوا على امور الدولة وخصوصاً بعد ان انقذوا المملكة من بابك الخرمي وفتحوا عمورية ونصروا الاسلام فتحوَّل النفوذ اليهم . وبعد ان كانت امور الدولة في قبضة الوزراء الفرس اصبحت في ايدي القواد الاتراك . وصار النفوذ فوضى بين الوزراء والقواد . واشتهر من الوزراء في اثناء تلك المدة جماعة من كبار الرجال كابن وهب وابن الفرات وعلي بن عيسى وابن مقلة وغيرهم . وكانوا يسابقون الاتراك الى النفوذ وابتزاز الاموال بالمصادرات ونحوها من المظالم كما سيجيء

وكانت الدولة قد تجاوزت طور الشباب وأخذت في التقهقر وانغمس الخلفاء في الترف والقصف وعجزوا عن القيام بشؤون الحكومة فاصبحوا لا يبلغون منصب الخلافة الاَّ بالجند (الاتراك) وهؤلاء لا يعملون عملاً الاَّ بالمال فمن استطاع استخدام الجند ملك ولا عصبية هناك ولا جنسية ولا جامعة دينية ولا وطنية . فاصبح الاتراك محور تلك الحركة وهم اهل شجاعة وحرب كما تقدم فأصبح البطش والفتك اكبر عوامل السيادة

(١) ابن خلكان ٤١ ج ٢ (٢) الجزء الثاني ١٥٤

(٣) اليعقوبي تقويم البلدان ٣٣

وكانت جنود الدولة العباسية في اوائلها العرب من مضر واليمن والفرس — ونريد بالفرس سكان ما بين العراق واطراف خراسان شرقاً الى نهر جيحون (الاندوس) ويدخل في ذلك اهل خوزستان وفارس وكرمان ومكران وسجستان وقوهستان وخراسان وغيرها — وقد قام هؤلاء بنصرة المسلمين انتقاماً من بني أمية او رغبة في الملك ومعظمهم من الجنود الاحرار بلا بيع ولا عتق وانما سموا الموالي اشارة الى انهم ليسوا عرباً على اصطلاح ذلك العصر • واختار الخلفاء جماعة منهم قدموهم في مصالح الدولة فنبغ منهم الوزراء والامراء والعلماء وولاهم الخلفاء الولايات فاستقلوا بها وانشأوا الدول المستقلة تحت رعاية الخلافة العباسية كما سيأتي

فلما تولى المعتصم واقتنى الاتراك بالترغيب او الشراء اصبح الجند العباسي اكثره من المماليك واخلد الخلفاء بعده الى نصرتهم واختصوا بعضهم بالخدمة في بلاطهم وجعلوهم من بطانتهم في جملة الخدم او الحرس وتقدم بعضهم في مناصب الدولة حتى قادوا الجند واستبدوا في الاحكام • فانتقلت سياسة الدولة من ايدي الموالي الفرس واكثرهم من الشيعة الى الجند الاتراك واكثرهم من السنة وتمكن هذا المذهب منهم منذ جاهر الخلفاء العباسيون باضطهاد الشيعة واولهم المتوكل على الله • ورسخ الاتراك في مذهب السنة من ذلك الحين ولا يزالون عليه الى اليوم

اما استبدادهم في بلاط الخلفاء فابتدا في ايام المتوكل لانه لما تولى الخلافة سنة ٢٣٢ ﻫ وكان ما كان من كرهه الشيعة واستبداده فيهم زاد في تقديم الاتراك ورعايتهم فزاد طمعهم في الدولة • ثم اغراهم ابنه المنتصر (اوهم اغروه) على قتله فقتلوه وكان ذلك اول جرأتهم على الخلفاء • وولوا المنتصر بعده ولم تطل مدة حكمه اكثر من بضعة اشهر فمات وضميره يخزه • وتولى بعده المستعين بالله سنة ٢٤٨ ﻫ ثم المعتز بالله سنة ٢٥١ ﻫ وقد استفحل امر الاتراك استفحالاً عظيماً — ومما يحكى عن استبدادهم في الخلفاء انه لما تولى المعتز قعد خواصه واحضروا المنجمين وقالوا لهم « انظروا كم يعيش الخليفة وكم يبقى في الخلافة » وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال « انا اعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته » فقالوا له « فكم تقول انه يعيش وكم يملك » قال « مهما اراد الاتراك » فلم يبق في المجلس الا من ضحك[1]

وقد قتلوا المعتز هذا شر قتلة فانهم جرّوه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه واقاموه في الشمس بالدار فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر

---

(١) الفخري ٢٢٠

وبعضهم يلطمه بيده[١] . والمستكفي سملوا عينيه ثم حبسوه حتى مات في الحبس[٢] وبلغ من فقر القاهر بالله انهم حبسوه وهو ملتف بقطن جبة وفي رجله قبقاب خشب[٣] — فلا غرو اذا اصبح الخلفاء آلة في ايدي الاتراك اذا تنازعوا على السلطة كان الخليفة مع الحزب الغالب[٤] وبعد ان كان القواد يحلفون للخليفة بالطاعة صار الخليفة يحاف لهم[٥]

فلما تقدم الاتراك في الدولة العباسية وعلم اخوانهم في بلادهم بذلك تقاطروا مئات وألوفاً يطلبون الارتزاق بالجندية ورغبوا في الاسلام وجعلوا يدخلون فيه بالالوف وعشرات الالوف . فقد اسلم منهم سنة ٣٥٠ هـ ٢٠٠,٠٠٠ خركاه دفعة واحدة والخركاه الخيمة ولا يقلّ اهل الخيمة الواحدة عن خمسة انفس فعدد الذين اسلموا في هذه الدفعة نحو مليون نفس . واسلم سنة ٤٣٥ هـ ١٠,٠٠٠ خركاه من اهل بلاساغون وكاشغر دفعة واحدة وضحوا عشرين الف رأس غنم[٦]

وكان الجند الاتراك يومئذ اشبه شيء بالفرق التي كانت عند الرومان ويسمونها Prœtorian او هم كالباشبوزق في الدولة العثمانية يستخدمهم من شاء بالمال . فكل من وصلت يده الى السلطة اقتنى الغلمان الاتراك اما بالشراء او بالاجرة . وتألفت منهم الفرق بتوالي الاعوام وكل منها تنسب الى صاحبها كالساجية نسبة الى ابي الساج والصلاحية الى صلاح الدين وقس على ذلك الاسدية والنظامية وامثالهما . وكثيراً ما كانت الحروب تنشب بين هذه الفرق تنازعاً على النفوذ او على الاموال . ولما استولى الديلم على بغداد في ايام بني بويه توالت الحروب بين الترك والديلم وغلمان الخلفاء او الموالي . وما من دولة قامت في ذلك العصر الا استخدمت الاتراك في جندها سواء كانت شيعية او سنية . فكانوا يحملون الى بغداد او غيرها من المدائن الاسلامية تباعاً وقلما يتوالدون فيها ولذلك كانوا يتفاهمون بالتركية وقد يتعلمون العربية ولا يتكلمونها تكبراً

وكان للامراء والقواد عناية كبيرة في تدريب جنودهم الاتراك على الحركات العسكرية فضلاً عن تعليمهم الفرائض الدينية . على انهم كانوا يعلمونهم هذه الفرائض وهم احداث — فاذا جاء التاجر بمملوك للبيع عرضه على الامير او السلطان فاذا اعجبه اشتراه وانزله في الطبقة التي يماثلها من مماليكه وسلمه الى الطواشي برسم الكتابة . فاول ما يبدأ به

---

(١) ابن الاثير ٧٧ ج ٧ (٢) ابن الاثير ١٧٧ ج ٨

(٣) ابن الاثير ١٧٣ ج ٨ (٤) ابن الاثير ٢٦٤ ج ٩

(٥) ابن الاثير ١٧٦ ج ٨ (٦) ابن الاثير ٢١٠ ج ٨ و٢١٦ ج ٩

تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن • وكان في دولة المماليك المصرية لكل طائفة من الغلمان فقيه يحضر اليها كل يوم ويعلمها القرآن والخط والتمرين باداب الشريعة الاسلامية وملازمة الصلوات • فاذا شب المملوك علمه الفقيه شيئاً من الفقه فاذا صار الى سن البلوغ أخذوا في تعليمه فنون الحرب من رمي النشاب ولعب الرمح ونحو ذلك • واذا ركب الاتراك لرمي النشاب او اللعب بالرمح لا يجسر جندي ولا امير ان يحدثهم او يدنو منهم • فاذا اتقن فنون الحرب تنقل في اطوار الخدمة رتبة بعد رتبة حتى يصير من الامراء ولا يصل الى هذه الرتبة الا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وقد ينبغ منهم الفقهاء والادباء والشعراء والحساب [1]

على ان اهل البلاد كانوا يهابون الاتراك ويخافون بطشهم فاذا جاؤا بلداً خافهم اهله اذ كثيراً ما كانوا ينزلون في دور الناس [2] ويتعرضون للحرم والغلمان فاصبح عامة بغداد يكرهونهم كرهاً شديداً

الخدم ونفوذهم في الدولة العباسية

اقدم من سمعنا به من الخدم النابغين في الدولة العباسية مسرور خادم الرشيد ولم يكن له شأن كبير — واول من قرب الخدم واستكثر منهم الامين بن الرشيد فانه لما تولى الخلافة طلب الخصيان وابتاعهم وغالى فيهم فصيرهم لخلوته ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وامره ونهيه وعين منهم جماعة سماهم الجرادية وجماعة من الحبشان سماهم الغرابية • ولم يقرب الامين الخدم لحمايته او سياسة دولته ولكنه فعل ذلك انهماكاً في الترف والقصف • ومن اقوال الشعراء في عصره يصفون انقطاعه عن اللهو بالغلمان ويسمون بعضهم قولهم :

الا يا ايها المثوى بطوس — عزيباً ما تفادى بالنفوس
لقد ابقيت للخصيان هقلاً — يحمل منهم شؤم البسوس
فاما نوفل فالشأن فيه — وفي بدر فيالك من جليس
وما للعصمي شيء لديه — اذا ذكروا بذي سهم خسيس
وماحسن الصغير اخس حالاً — لديه عند مخترق الكؤوس

(١) المقريزي ٢١٣ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٦٤ ج ٩

لهم من عمره شطرٌ وشطرٌ يعاقر فيه شرب الخندريس
وما للغانيات لديه حظٌّ سوى التقطيب والوجه العبوس
اذا كان الرئيس كذا سقيماً فكيف صلاحنا بعد الرئيس
فلو علم المقيم بدار طوس لعزَّ على المقيم بدار طوس [1]

وكان لهوهُ من اعظم اسباب سقوطه

سبب نفوذهم

ولم يكن للخدم شأن في ايام المأمون ولا المعتصم ولا الواثق فلما استبدَّ الاتراك وعلت كلمتهم في ايام المتوكل فما بعدهُ وصاروا يولون الخلفاء و يعزلونهم او يقتلونهم كان في جملة ما استعانوا به على الاستبداد بهم ان يحجروا عليهم قبل الخلافة ويحبسوهم في القصور ليزيدوهم ضعفاً . وكان الخلفاء من الجهة الاخرى يميلون الى حبس اولادهم واقاربهم [2] خوفاً من تواطئهم مع بعض الاتراك على خلعهم او قتلهم . ولا عشير لهم في اثناء الحجر الاَّ الخدم والخصيان فالفوا اخلاقهم وتحققوا بالاختبار ان حياتهم تتوقف بالاكثر على امانة اولئك الخدم لما آنسوه من غيرتهم عليهم وخصوصاً الخصيان اذ لا عصبية فيهم تمنعهم من التفاني في خدمة اسيادهم ولا مطمع لهم بالملك لاولادهم واهلهم . فاصبح ولاة العهد اذا افضت الخلافة اليهم بالغوا في تقريب الخدم بالعطايا والاكرام التماساً لحمايتهم اذا اراد الاتراك الفتك بهم . فعمدوا الى الاستكثار من الخدم وكانوا يقدمونهم و يكرمونهم و يستشيرونهم في امورهم — والملوك يجعلون الكبار كباراً — فازداد الخدم نفوذاً وسطوة حتى اصبح الاتراك يخافونهم وقد ارتقى كثيرون منهم في العصر التركي من الخدمة في المنازل الى قيادة الجند او الامارة على الاقاليم

فرق الخدم وطبقاتهم

ولما تكاثر الخدم في دور الخلفاء جعلوهم طبقات وفرقاً تعرف باسماء خاصة وفيهم الرومي والتركي والحبشي والارمني والسندي والبربري والصقلي في فرق اشبه بفرق الجند ولهم الرواتب و الجواري

والمراد في الاصل بالخدم الغلمان او العبيد او المماليك الذين يقيمون في دور الخلفاء او الامراء للخدمة في ما يحتاجون اليه من مهامّ المنازل . فكانوا يبتاعون الغلمان وفيهم الحائك والسائس والحجام والخباز وغيرهم . ثم صاروا يستكثرون منهم للاستعانة بهم في

---

(١) ابن الاثير ١٢٠ ج ٦ (٢) الفخري ٢٩٧

حماية تلك المنازل ايام الشدّة على قدر ما يستطيعون بذله من المال في ابتياعهم . واثمانهم تتفاوت من مئة دينار الى الف دينار او اقل او اكثر . وربما بلغ عدد الخدم عند بعض الامراء الى خمسمائة غلام او الف او اكثر فغلمان بغا الشرابي احد قواد الاتراك بلغ عددهم ٥٠٠ وزاد عدد غلمان يعقوب بن كلس وزير الفاطميين بمصر على ٤٠٠٠

اما في دور الخلفاء فكان الغلمان فرقاً تعرف باسماء خاصة كفرق الغلمان الاصاغر والغلمان الحجرية والرجال المصافية والركابية وغيرها . والفرق بين فرق الجند التركي وفرق الغلمان ان الاجناد عساكر الدولة ينتظمون في خدمة المملكة ويتقاضون رواتبهم من بيت المال وفيهم المبتاع والمأجور . واما الغلمان فهم مختصون بالامير او الخليفة لخدمته الشخصية او حماية داره وهم ملكهُ وينفق عليهم من مالهِ الخاص . وقد تحوّل فرق الغلمان الى فرق من الجند او يعملون معاً في خدمة الدولة على ما تقتضيه الاحوال . وقد يبتاع الخليفة العبيد ليتقوى بهم على اعدائه مما لاضابط لهُ . وكثيرًا ما تستبد بعض فرق الخدم بالخليفة او الامير حتى تغلب على امره وتفعل ما تشاءهُ فيضطر الخلفاء احياناً الى الفتك بهم غيلة بمساعدة فرق اخرى [1]

وكان في دور الخلفاء صنفٌ من الخدم الخصيان يغلب استخدامهم في دور النساء وكانوا يستكثرون منهم ايضاً واكثرهم من الطواشية السود . وكان اهل بغداد يسخرون بهم ويهزأون باشكالهم ويتعرضون لهم في الطرق وينادونهم بعبارات التهكم كقولهم « ياعقيق صب ماء واطرح دقيق .. ياعاق ياطويل الساق » وهم يشكونهم الى الخلفاء . واصاب الناس في ايام المعتضد شدة بسبب ذلك فان بعض اهل بغداد تعرضوا لبعض الطواشية السود سنة ٢٨٤ هـ فاجتمعوا وكلموا المعتضد بما يلحقهم من ذلك فامر المعتضد بجماعة من العامة ضربوا بالسياط [2] على ان الخصيان كثيرًا ما كانوا يرتقون في الدولة الى مصاف الامراء

القواد والوزراء من الخدم

واول من استكثر من الخدم وقربهم ورفع منزلتهم المقتدر بالله فقد تولى سنة ٢٩٥ هـ وعنده من الخدم والخصيان ١١,٠٠ خادم من الروم والسودان [3] وكثير من المال والجوهر فتمكن من الحكم ٢٥ سنة ردّ فيها رسوم الخلافة الى ما كانت عليهِ . وكان يقدم الخدم ويستعين بهم وقد ولاّهم قيادة الجند وغيرها . وفي ايامه نبغ مؤنس الخادم

(١) ابن الاثير ١٢٦ ج ٨ (٢) المسعودي ٣٤٠ ج ٢

(٣) الفخرى ٢٣٤

فقدمه وكان يستشيره في اموره فتصرف مؤنس في مصالح الدولة كما يشاء وتولى رئاسة الجيش وامارة الامراء وبيوت الاموال واستبد في كل شيء لكنه على الاجمال خدم الخليفة المقتدر خدماً ذات بال · ثم كانت بينهما وحشة تكررت حتى ادت الى حروب انتهت بقتل المقتدر وحملوا رأسه الى مؤنس فلما رأى رأس مولاه بكى ولطم وجهه

فالخلفاء انما لجأوا الى تحكيم الخدم والخصيان استبقاء لحياتهم او احياء لنفوذهم ودفع استبداد جند الاتراك · ولم يكن ذلك خاصاً بالدولة العباسية بل شمل معظم الدول الاسلامية المعاصرة · ولا هو من مخترعات الاسلام لانه كان شائعاً في معظم الدول القديمة فاسطفان المعتق (المولى) استبد في شؤون الدولة الرومانية من قتل وتنصيب وعزل وكذلك سليمان الخصي وغيرهما

اما في الاسلام فاشتهر من الخدم في مناصب الدولة جماعة كبيرة تولوا القيادة او الامارة او بيت المال او غير ذلك من المناصب الكبرى · فبدر غلام المعتضد تولى قيادة الجند ونقش اسمه على التراس والاعلام وابلى في خدمة مولاه بلاء حسناً حتى قتل في سبيل نصرته سنة ٢٨٩ هـ [١] وبجكم اصله من الغلمان وارتقى حتى صار امير الامراء وهي اعلى رتب الدولة العباسية [٢] وجوهر قائد جند الفاطميين الذي فتح لهم مصر وبنى القاهرة في اواسط القرن الرابع للهجرة كان مملوكاً رومياً وبلغ من تعظيمهم امره واكرامه انه لما اقلع من المغرب قادماً الى مصر لفتحها ترجل اولاد الخليفة المعز واهله ومشوا بين يديه [٣] وكان قبله كافور الاخشيدي وهو خصي اسود ارتقى بمصر حتى استقل باحكامها سنة ٣٥٥هـ ويانس الصقلي الخصي اصله خادم مؤنس الخادم وتقدم مع ذلك في اعمال الدولة وعظمت منزلته حتى ولي الولايات وتداخل في السياسة · وبرجوان الاستاذ كان خصياً ابيض ارتقى في الدولة الفاطمية الى رتبة الوزارة ووزر للعزيز بالله والحاكم وتلقب بامين الدولة وهو اول من لقب بذلك في الدولة الفاطمية [٤] وقراقوش الطواشي وزير صلاح الدين الايوبي بلغ ارقى مناصب الحكومة في الدولة الايوبية · وعميد الملك احد كبار القواد الاتراك كان من الخصيان وكذلك شقير الخادم صاحب البريد في مصر والشام ايام بني طولون · ومؤتمن الخلافة في الدولة الفاطمية كان خادماً خصياً وقس على

(١) ابن الاثير ٢٠٥ ج ٧ (٢) ابن الاثير ١٣٣ ج ٨
(٣) المقريزي ٣٧٧ ج ١ (٤) ابن الاثير ٤٩ ج ٩

ذلك تقدم الصقالبة في دولة بني امية بالاندلس وتقدم الخدم والخصيان في دول السلاجقة وبني بويه وسائر دول الاسلام في تلك العصور

تأثير النساء في سياسة الدولة

للمرأة تأثير كبير في اعمال الرجل مهما يكن نوعها وفي اى عصر كان واية امة كانت وان اختلف مقدار ذلك التأثير باختلاف عادات الامم وادابها . اما الدولة اذا كانت ملكية مطلقة فللمرأة شأن كبير في سياستها حتى في الاسلام مع شيوع الطعن في آرائهن وقولهم ان مشاورتهن في الامور مجلبة للعجز ومدعاة الى الفساد . وما من عظيم من عظماء الاسلام الاّ ونهى عن مشورتهن وادخالهن في الامور — قال المنصور في وصيته لابنه المهدى « اياك ان تدخل النساء في امرك » وقال النخعي « من اقتراب الساعة طاعة النساء » وقال ابو بكر « ذلّ من اسند امره الى امرأة » ولعلي أقوال كثيرة في النهي عن مشورة النساء ومع ذلك فقد أثرت المرأة في سياسة الدولة تأثيراً عظيماً

امهات الخلفاء

وتأثير النساء في الدولة من قبيل تأثير الام في الاسلام وقد بينا ذلك في باب الامومة ويعظم أثره على الخصوص في تأثير أمهات الخلفاء على اولادهن ولا سيما في أواسط الدولة عند احتجاب الخلفاء واستسلامهم الى الخدم

على ان العباسيين حتى في صدر الدولة كانوا يصغون الى النساء فاحرزت المرأة نفوذاً كبيراً وخصوصاً أمهات الخلفاء وأول من استبد منهنّ الخيزران ام الهادي والرشيد وهي حرشية وكانت ذات نفوذ وقوة يخافها اولادها ومن خالفها منهم او اعترضها قتلته . وكانت في ايام زوجها المهدي صاحبة الامر والنهي وهو يطاوعها . فلما تولى ابنها الهادي ارادت الاستبداد بالامور دونه وان تسلك به مسلك ابيه فلم يمضِ اربعة اشهر حتى انثال الناس اليها وكانت المواكب تغدو وتروح الى بابها فساءه ذلك وكلمته يوماً في امر فلم يجد الى اجابتها فيه سبيلاً فقالت « لا بدّ من اجابتي اليه فاني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك » فغضب الهادي وقال « ويلي على ابن الفاعلة قد علمت انه صاحبها والله لا اقضيها لك » قالت « اذاً والله لا اسألك حاجة » قال « لا ابالي » وقامت مغضبة فصاح بها « مكانك ... والله انانفي من قرابتي من رسول الله لئن بلغني انه وقف

بابك احد من قوادي او خاصتي لاضربن عنقه ولاقبضنّ مالهُ • ما هذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك امالك مغزلٌ يشغلك او مصحف يذكرك او بيت يصونك ؟ اياك واياك لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي » فانصرفت وهي لا تعقل ولم تنطق عنده بعدها ثم انه قال لاصحابه « ايما خيرٌ انا أم انتم وامي ام امهاتكم » قالوا « لا بل انت وامك خير » قال « فايكم يحب ان يتحدث الرجال بخبر امه فيقال فعلت ام فلان وصنعت » قالوا « لا نحب ذلك » قال فما بالكم تأتون امي فتتحدثون بحديثها » فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها فحقدتها عليه حتى اذا علمت انه يريد خلع اخيه الرشيد والبيعة لابنه جعفر أمرت بعض جواريها بقتله بالغم والجلوس على وجهه[1] فقتلوهُ

فلما كانت ايام الرشيد استبدت الخيزران في الاحكام واحتشدت الاموال فبلغت غلتها في العام ١٦٠ مليون درهم اي نحو نصف خراج المملكة العباسية في ذلك العهد ولما ماتت توسع الرشيد باموالها • وقس على ذلك ثروة سائر امهات الخلفاء[2] أما من حيث النفوذ فقد كان للسيدة أم المقتدر وهي تركية سطوةٌ غريبة على رجال الدولة في خلافة ابنها وكانت تتصرف في الاحكام دونه بالاشتراك مع الحجاب والخدم وكان الوزراء يهابونها ويرتعدون خوفاً من ذكرها[3]

ويقال نحو ذلك في ام المستعين بالله المتوفى سنة ٢٥١ ﻫ وكانت صقلية الاصل فاطلق المستعين يدها في أمور الدولة ويد اثنين من قواد الاتراك اتامش وشاهك الخادم فكانت الاموال التي ترد الى بيت المال من النواحي يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة[4]

على أن تسلط النساء في الدولة العباسية كان على معظمه في أيام المقتدر لتسلط الخدم والحجاب • وقد اشتهر من النساء في ذلك العهد السيدة أم المقتدر والخالة وام موسى الهاشمية القهرمانة فهولاء كنّ يرتشين بالاشتراك مع موسى الخادم ونصر الحاجب والكتاب ونحوهم ويمشين الاموركما يردن ويريد هؤلاء • وكان لام موسى المذكورة دهاءٌ ونفوذٌ حتى تكفلت مرة بالخلافة لاحد العباسيين من اصهارها واخذت تبذل الاموال للقواد وغيرهم فوشى بها بعضهم الى المقتدر فقبض عليها واخذ منها أموالاً عظيمة • وقس على ذلك نفوذ نساء القصور في الدولة العباسية وهو من قبيل نفوذ الموالي في هذه الدولة لان اكثر اولئك النساء من غير العرب

---

(١) ابن الاثير ٤١ ج ٦ (٢) الجزء الثاني من هذا الكتاب ١٣٤

(٣) تاريخ الوزراء ٦٧ (٤) ابن الاثير ٤٧ ج ٧

فساد الاحكام في الدولة العباسية

التنازع على النفوذ

بلغت الدولة العباسية عصرها الذهبي في ايام خلفائها الأولين وخصوصاً الرشيد والمأمون بتدبير الوزراء الفرس ولا سيما البرامكة • فاتسع سلطانها في أيامهم وامتدت سطوتها على معظم العالم المعمور في ذلك العهد فبلغت الهند شرقاً والبحر الاتلانتيكي غرباً وبلاد سيبيريا وبحر قزوين شمالاً وبحر فارس وبلاد النوبة جنوباً • وقد بينا اقسامها وجغرافيتها في الجزء الثاني [1] • فلما نكب البرامكة ثم استبد الجند التركي في الحكومة اصبحت الاحكام فوضى وخصوصاً بعد المتوكل لانهم أقدموا على قتله وكان ذلك فاتحة جرأتهم على الخلفاء بعده من عزل وتولية وقتل وسمل • فعجز الخلفاء عن القيام بشؤون الدولة وهم اصحابها المسؤولون عنها والاحكام تصدر باسمائهم وان كانوا مدفوعين الى اجراءاتهم ببعض أرباب النفوذ في بلاطهم من الوزراء او القواد او الخدم او الموالي أو النساء او غيرهم — او على الاجمال بالوزراء والقواد • فاقدرهم على ارضاء الخليفة او اشدهم دهاءً ومكراً يفضي النفوذ اليه فاذا ملك قياد الحكومة بذل جهده في حشد الاموال اذ لا يأمن ان يستبدل هذا الخليفة بآخر لايرضاه او لعل بعض اعدائه يغلبهُ بدسائسه وسعايته فيعزلهُ فاذا لم يكن لهُ مال عاش ذليلاً مهاناً • على ان القواد كانوا يحاولون الاستئثار بالنفوذ في بلاط الخليفة بالتهديد او بالوشاية ويختلف ذلك باختلاف الاحوال والاشخاص

ويقال بالاجمال ان النفوذ أصبح ضائعاً بين الوزراء والقواد وكلاهما لا يرجون من وراء عنايتهم وجهدهم منفعة لانفسهم غير ما يكتسبونه من المال في اثناء نفوذ كلمتهم • فاصبح الغرض الأول من تمشية الاحكام انما هو حشد المال • فالوزير الذي يتولى أمور الدولة ولايدري ما يكون مصيره بعد عام او عامين من عزلٍ او قتل او حبسٍ لايهمه غير الكسب من اي طريق كان ولا يبالي بما قد يترتب على ذلك فيما بعد عملاً بالقاعدة التي وضعها ابن الفرات كبير وزراء ذلك العصر وهي قولهُ « ان تمشية أمور السلطان على الخطأ خير من وقوفها على الصواب » [2] وانتبه الخلفاء الى مطامعهم فاصبحوا اذا عزلوا وزيراً صادروه واخذوا أمواله وقد فصلنا ذلك بباب المصادرة في الجزء الثاني من

(١) الجزء الثاني ٣٧ (٢) تاريخ الوزراء ١١٩

هذا الكتاب [١] ثم عمت المصادرة سائر رجال الحكومة حتى الرعية واصبحت بتوالي الايام المصدر الرئيسي لتحصيل المال • فالعامل يصادر الرعية والوزير يصادر العمال والخليفة يصادر الوزراء ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم حتى انشأوا للمصادرة ديواناً خاصاً مثل سائر دواوين الحكومة [٢] فكان المال يُتداول بالمصادرة كما يتداول بالمتاجرة

انواع المصادرة ومقاديرها

قال الوزير ابن الفرات « تأملت ما صار الى السطان من مالي فوجدته ١٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبدالله الجوهري (ابن الجصاص) فكان مثل ذلك » فكانهُ لم يخسر شيئاً لانهم كانوا يقبضون بالمصادرة ويدفعون بالمصادرة • واذا صودر احدهم على مال لم يكن في وسعه اداؤه كله معجلاً أجلوه بالباقي وساعدوه على تحصيله او جمعه بردّ جاهه وتغيير زيه وانزاله في دار كبيرة فيها الفرش والآلة الحسنة ليستطيع التمحل في جمع الاموال من الناس [٣]

وتعددت اسباب المصادرة وجهاتها حتى اصبح كل صاحب مال او منصب عرضة لها وهاك قائمة بما قبضه ابن الفرات من المصادرة على أيام الراضي بالله ننشرها بنصها حرفياً انموذجاً لانواع المصادرات ومقاديرها [٤]

دينار	
٧,٣٠٠	من احمد بن محمد البسطامي عن النعف مما بقي عليه من مصادرته لسنة ٣٠٠ هـ
١١,٠٠٠	« علي ابن الحسين الباذيني الكاتب عما تولاه بالموصل
٣٠,٠٠٠	« محمد بن عبد الله الشافعي عما تصرف فيه لعلي بن عيسى
٨٠,٠٠٠	« محمد بن علي بن مقتلة عما تصرف فيه
١٠٠,٠٠٠	« محمد بن الحسين المعروف بابي طاهر
١٣,٠٠٠	« الحسن بن ابي عيسى الناقد عما ذكر انه وديعة لعلي بن عيسى
٤,٠٠٠	« ومنه أيضاً عن نفسه
٢٠,٠٠٠	« ابراهيم بن احمد المادرائي
٣٦,٣٦٠	« عبد الواحد بن عبيدالله بقية مصادرة والده

(١) الجزء الثاني ١٧٠ (٢) تاريخ الوزراء ٣٠٦

(٣) الفرج بعد الشدة ٥١ ج ١ (٤) تاريخ الوزراء ٢٢٤

١٠,٠٠٠	من احمد بن يحيي عن مصلحة وجبت
٦,٠٠٠	« ابراهيم بن احمد الجهبذ عن صلحه
٤,٠٠٠	« محمد بن عبد السلام عما عنده من الوديعة لمحمد بن علي وابراهيم المادرائي
٤٠,٠٠٠	« عبد الوهاب بن احمد بن ما شاء الله عن صلحه
١٠,٠٠٠	« محمد بن عبد الله بن الحرث عن صلحه
٢٥٠,٠٠٠	« محمد بن احمد عما تصرف فيه بالموصل وغيرها
١٥,٠٠٠	« ابراهيم المادرائي عن الباقي عليه
٣,٠٠٠	« ابي عمر بن الصباح عن الباقي على ابن العباس احمد
٧,٠٠٠	« علي بن محمد بن الحواري وقتل
٧,٠٠٠	« هرون بن احمد الهمذاني
٢,٠٠٠	« عبد الله بن زيد بن ابراهيم
١٥,٠٠٠	« « « « صلحاً عن نفسه
٦٠,٠٠٠	« علي بن مأمون الاسكافي وقتل
٧٠,٠٠٠	« يحيي بن عبد الله عما تصرف فيه مع حامد
١,٣٠٠,٠٠٠	« حامد بن عباس وقتل
١٥٠,٠٠٠	« محمد بن حمدون الواسطي
٤٢,٠٠٠	« علي بن عيسى
١٠,٠٠٠	« ابراهيم جبهذ حامد بن عباس
١,٢٠٠,٠٠	« الحسن المادرائي
١,٠٠٠,٠٠٠	ومنه ايضاً
١,٠٠١,٠٠٠	من محمد المادرائي
١٠,٠٠٠	ومنه ايضاً بخط آخر

درهم	
٢٠,٠٠٠	من ابي الفضل محمد بن احمد بن بسطام
٥٠٠,٠٠٠	« علي بن الحسن الباذيني صلحاً عما تصرف فيه بالموصل وقتل
١٠٠,٠٠٠	« ابي عمر بن الصباح عن ضمانة الباقي من مصادرة ابي ياسر

١٠٠,٠٠٠	من عبيد الله بن احمد اليعقوبي
١٠٠,٠٠٠	« الحسن بن ابراهيم الخرائطي صلحاً عما اقتطعهُ من مال الرئيس
١٠٠,٠٠٠	« الحسين بن علي بن نصير
٢,٠٠٠	« علي بن محمد بن احمد السمان عن ورثة قرقر
١٠,٠٠٠	« ابي بكر الجرجاني من ضياع بن عيسى
٢٣٠,٠٠٠	« الحسين بن سعد القطربلي
١,٥٠٠,٠٠٠	« محمد بن احمد ...
٣,٠٠٠,٠٠٠	« ابي الحسن بن بسطام
٥٠,٠٠٠	« احمد ابن محمد بن حامد بن عباس
٢٣٠,٠٠٠	« سليمان بن الحسن بن مخلد

ابتزاز الاموال

فالوزير يتولى الوزارة عاماً او عامين ثم يُعزل او يستقيل ولهُ عدة ملايين من الدنانير فضلاً عن الضياع والمباني وقد اكتسب هذه الثروة بالرشوة ونحوها من اسباب المظالم . وكان الوزير لا يولي عاملاً على ولاية ما لم يقبض منهُ مالاً على سبيل الرشوة يسمونهُ « مرافق الوزراء » . ومن اغرب حوادث التولية بالرشوة ان الخاقاني وزير المقتدر بالله ولَّى في يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة واخذ من كل واحد رشوة [1] واذا لم يكن للعامل او الناظر ما يفي المبلغ المتفق عليه مع الوزير دفع بعضه معجلاً واجل البعض الآخر الى مدة معينة او غير معينة والخلفاء يعلمون ذلك ولا ينكرونه او يرون فيه غرابة او ظلماً

والعامل الذي يتولى عمله بالرشوة وهو لا يزال مديوناً ببعضها يهون عليه ابتزاز اموال الرعية — او هو يطلب الولاية لهذه الغاية . فيأخذ العمال في حشد الاموال اما بالتلاعب في جباية الحكومة فينفقون ديناراً في بعض مصالحها فيقيدونه عليها عشرة دنانير او باستخراج اموال الرعية بالرشوة او بضرب الضرائب الفادحة على الباعة واهل الاسواق في المدن [2] او بسلب الفلاحين في القرى بعض غلاتهم وقد يقاسمونهم اياها فان بعض العمال كان يبعث رجاله الى البيدر فيقسمونهُ كما يشاؤون واذا تكلم الاكار (الفلاح) شتموه وحلقوا لحيته وضربوه [3] وقد لا يرضيهم ذلك فيغتصبون الضياع برمتها

ومن اغرب طرق الاغتصاب ان يغتصب العامل او الوزير او غيرهما من رجال الدولة

(١) الجزء الثاني ١٦٦ (٢) ابن الاثير ١٢٩ و٢٠٣ ج ١٢ (٣) تاريخ الوزراء ٩٢

ضيعة لبعض الناس فيأخذها بغير ثمن ويستغلها لنفسه واذا استحق عليها الخراج اداهُ صاحبها الاول مخافة ان يثبت الملك لمغتصبها اذ يدوّن خراجها باسمه في الديوان فيبطل حق مالكها في ملكها [١] فيضطر المالك الى دفع الخراج اعواماً ربما يتوفق الى من ينصفه ممن يفضي النفوذ اليهم من اهل العدالة او يهتدي الى وساطة او حيلة

ناهيك بما كانوا يغتصبونه من اموال الرعية باقتضاء خراج الارض مضاعفاً اومكرراً على انهم قد يرون لهم نفعاً من ترك خراج بعض الارضين فيتركونه لاصحابها على ان يخدموهم في مصلحة لهم وربما بلغ مقدار الخراج المتروك مالاً كثيراً جداً . فقد كان لرجل يدعى ابا زنبور في وزارة ابن الفرات ضياع مساحتها مئة فرسخ بمئة فرسخ لم يأخذ منه من حقوق بيت المال درهماً [٢] وكثيراً ما كانوا يتركون امثال هذه الضياع بلا خراج لاهل الوساطة او الدالة او النفوذ عند الخليفة او غيره

الجاسوسية وفتوى اللصوصية

ومن وسائل ابتزاز الاموال ان يقسط الوزير او من يقوم مقامه على ارباب الدواوين والقضاة او غيرهم مالاً على وجه القرض على ان يسبب لهم عوضهُ من اهل النواحي [٣] فتقع الخسارة على الرعية . فتضايق اهل الاسواق في المدن والفلاحون في القرى والرساتيق وضاقت ابواب الرزق على الناس واصبحت الحقوق فوضى من استطاع حيلة في اختلاس المال سرًّا او جهراً استخدمها وكثر العيارون والشطار في المدن وتعدد اللصوص في القرى وفيهم جماعة اصلهم من جنود الدولة طمع الوزراء او القواد بارزاقهم فخرجوا يتعرضون للمارة ويسلبونهم اموالهم وامتعتهم واذا عوتبوا او حوكموا احتجوا بذلك . وكان قطاع الطرق يسطون على قوافل التجار ويأخذون اموالها باعتبار انها حق لهم لان اصحابها لم يؤدوا زكاتها لبيت المال وقد منعوها وتجردوا فتركت عليهم فصارت اموالهم بذلك مستهلكة واللصوص في حاجة اليها بسبب فقرهم فاذا اخذوا تلك الاموال وان كره التجار اخذها كان ذلك لهم مباحاً لان عين المال مستهلكة بالزكاة وهم فقراء يستحقون اخذ الزكاة شاء ارباب الاموال او كرهوا [٤] لان الزكاة صدقة تؤخذ من اغنياء المسلمين وتفرق في فقرائهم وكان لها شأن كبير في اول الاسلام ثم اهملت باواسط الدولة العباسية فاتخذ اللصوص ذلك حجة لسلب اموال التجار

(١) الاغاني ٤٧ ج ٢٠ (٢) تاريخ الوزراء ٩٤

(٣) تاريخ الوزراء ٢٦٢ (٤) الفرج بعد الشدة ١٠٦ ج ٢

وزد على ذلك ما نجم عن فساد الاحكام من الضيق المالي وغلاء الاسعار في المدن وما انتشب من الفتن بين الاحزاب ولا سيما السنة والشيعة وراجت الدسائس و تكاثرت السعايات برجال الدولة وانتشرت الجاسوسية في قصور الخلفاء ودواوين الوزراء والكتاب . واصبح لكل منهم جواسيس على الآخرين ينقلون اليه اخبارهم فتسابق اسافل الناس الى السعاية بافاضلهم يرفعون الى الخليفة او الى صاحب النفوذ في دولته كتباً يختلقون بها المطاعن على الابرياء للانتفاع باذاهم . واكثر ما تكون وشايتهم باهل الدولة في حال اعتزالهم او في من يخافونهم اذا القيت مقاليد الاحكام اليهم وقد يجتمع عند الخليفة او الوزير صناديق مملوءة بتلك الكتب فاذا تكاثرت او ذهبت الحاجة اليها احرقوها [١]

فلما فسدت الاحكام في دار الخلافة واستبد الوزراء والقواد في شؤون الدولة رأى العمال في الولايات ان يجتزئوا من ذلك الاستبداد في ولاياتهم فأخذوا يستقلون فتشعبت المملكة العباسية الى ممالك يحكمها الامراء من الفرس والاتراك والاكراد والعرب وغيرهم

تشعب المملكة العباسية

لما اصبحت الدولة العباسية في ما تقدم من فساد الامور والفوضى في سلطتها واحكامها بين الفرس والاتراك او بين الوزراء والاجناد او بين الخدم والنساء وذهبت هيبة الخلفاء بما اصابهم من التضييق والاحتقار هان على عمالهم في اطراف المملكة ان ينفصلوا عنهم باحكامهم الادارية والسياسية وان يستأثروا بجباية اعمالهم وهو الاستقلال . وكان اسبقهم اليه ابعدهم عن مركز الخلافة . واسبق عمال العباسيين الى ذلك ابراهيم بن الاغلب في شمالي افريقيا استقل سنة ١٨٤ هـ ولا يعد استقلاله من نتائج فساد الدولة لانه حدث في عصر الرشيد والدولة العباسية في معظم سطوتها وانما ساعده على ذلك بعده عن مركز الخلافة . واما استقلال العمال بذهاب هيبة الخلفاء او اختلال شؤون الدولة فالاسبق اليه الفرس ثم الاتراك فالاكراد مثل تواليهم في التغلب على الخلفاء . وتدرج كلٌ من هذه الامم من العمالة الى الامارة الى الملك او السلطنة . فاول من استقل من الفرس العمال فأنشأوا الامارات الصغرى ثم الدول الكبرى وكذلك فعل الاتراك والاكراد . فنقدم الكلام عن الفروع الفارسية ثم نذكر الفروع التركية والكردية اما العربية فسيأتي ذكرها في الكلام على العصر العربي الثاني

(١) تاريخ الوزراء ٧٢

الدول الفارسية في ظل العباسيين

الدول الصغرى

لما اعاد الفرس مقاليد الخلافة الى المأمون ازدادوا دالة عليه واستخفافاً بالسلطة العباسية ثم استبد الاتراك في الخلفاء بعد المعتصم واغلّوا ايديهم وكسروا شوكتهم فكان للفرس على الاجمال حظ كبير من ذلك · فلما رأوا ذهاب نفوذهم في دار الخلافة استعاضوا عنه بالاستقلال باماراتهم

على ان الذين استقلوا من القواد او الامراء مازالوا يعترفون للعباسيين بالسلطة الدينية فيطلبون الاستقلال تحت رعايتهم · فتفرعت المملكة العباسية الى امارات مستقلة عملاً بسنة الارتقاء واليك اهم الفروع الفارسية باعتبار تاريخ استقلالها واسماء مؤسسيها :

	الدولة	مقرّها	مدة حكمها	مؤسسها
١	الطاهرية	خراسان	٢٠٥ — ٢٥٩ هـ	طاهر بن الحسين
٢	الصفارية	فارس	٢٥٤ — ٢٩٠	يعقوب بن الليث
٣	السامانية	ماوراء النهر	٢٦١ — ٣٨٩	نصر بن احمد
٤	الساجية	اذربيجان	٢٦٦ — ٣١٨	ابو الساج
٥	الزيارية	جرجان	٣١٦ — ٤٣٤	مرداويج بن زيار

فانظر كيف تفرعت بلاد فارس الى امارات فارسية · فانتعشت الشيعة ونالوا بعض ما كانوا يؤملونهُ من مساعيهم في نصرة العلويين من ان يعيدوا دولة الفرس الضخمة كما كانت قبل الاسلام · ولكن تلك الامارات لم تمكث طويلاً كما ترى في الجدول حتى قامت دولة آل بويه وهي اكبر دولة فارسية شيعية ظهرت في الشرق في عهد ذلك التمدن بظل الدولة العباسية

دولة آل بويه

رجال هذه الدولة وانصارها الديلم من الجيلان وراء خراسان ولكن ملوكها آل بويه من الفرس ويرتفع نسبهم الى ملوك الفرس القدماء وانما سمّوا ديلم لانهم سكنوا بلاد الديلم · وكان العلويون يسعون في نشر دعوتهم هناك من ايام الرشيد وآخر من نجح في ذلك الحسن ابن علي الاطروش من نسل الحسين فدعا الديلم الى مذهبه في اواخر القرن الثالث فاجابوه

وجدُّ آل بويه الاقرب الذي اسس هذه الدولة اسمهُ بويه ولقبهُ ابو شجاع كان لهُ

ثلاثة اولاد علي ويلقب عماد الدولة وحسن ويلقب ركن الدولة واحمد ويلقب معز الدولة وكان بويه رقيق الحال فانتظم اولاده بالجندية لانها كانت يومئذ باباً من ابواب الرزق الواسعة وكان عماد الدولة في خدمة مرداويج مؤسس الدولة الزيارية فارتقى عنده حتى ولاه الكرج ثم اتسعت احواله فكتب الى الخليفة العباسي وهو يومئذ الراضي بالله المتوفي سنة ٣٢٩ﻫ ان يقاطعه على اعمال فارس بمال يحمله الى دار الخلافة على جاري عادتهم مع الدولة العباسية في ذلك العهد فأجابه الراضي وبعث اليه بالخلعة · واخوه حسن ركن الدولة تملك خوارزم وجاء الاخوان واتحدا مع اخيهما الثالث معز الدولة في شيراز وساروا غرباً حتى اتوا بغداد في ايام المستكفي سنة ٣٣٤ ﻫ فرحب بهم وخلع عليهم ولقبهم الالقاب المذكورة وجعل معز الدولة امير الامراء واستبدوا في المملكة واستولوا على الخلافة وعزلوا الخلفاء وولوهم فرفعوا منار الشيعة واحيوا معالمها واضعفوا نفوذ الاتراك والخلافة العباسية لاتزال في بغداد · ولما افضت امارة الامراء الى عضد الدولة لقّب بالملك وهو اول من خوطب بهذا اللقب في الاسلام · وحكم آل بويه من سنة ٣٢٠ — ٤٤٧ ﻫ

الدول التركية في ظل العباسيين

الدول الصغرى

لما قويت شوكة الاتراك في الدولة العباسية وهابهم الخلفاء كما تقدم طمع بعضهم في الولايات كما طمع الفرس فاستقلوا بها فنبت للدولة العباسية فروعٌ تركية خارج بلاد فارس كما نبتت الفروع الفارسية في بلاد الفرس واليك الفروع التركية في العصر العباسي حسب سني نشأتها واسماء مؤسسيها و بلادها :

	اسم الدولة	مقرُّها	مدة تأسيسها	مؤسسها
١	الطولونية	مصر	٢٥٤ — ٢٩٢ ﻫ	احمد بن طولون
٢	الايلكية	تركستان	٣٢٠ — ٥٦٠	عبد الكريم ستق
٣	الاخشيدية	مصر	٣٢٣ — ٣٥٨	محمد الاخشيد
٤	الغزنوية	افغانستان والهند	٣٥١ — ٥٨٢	البتكين

وتدرج الاتراك في الولايات الاسلامية كما تدرج الفرس قبلهم اي من الامارة الى السلطة وهم اول من سموا سلاطين في الاسلام واولهم سلاطين الدولة الغزنوية التي منها السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند وناشر الاسلام فيه

الدولة السلجوقية وفروعها

على ان هذه الامارات نشأت فروعاً للمملكة العباسية اي كان امراؤها او سلاطينها من عمال الدولة العباسية او قوادها او قواد بعض الامارات الاخرى واستقلوا كما نشأت الامارات الفارسية قبلها والأمتان تتنافسان في النفوذ لاختلاف العصبية واختلاف المذهب بين السنة والشيعة

وكانت السنَّة قد تقوّت بظهور الامارات التركية. فلما قامت دولة آل بويه في اواسط القرن الرابع للهجرة بالعراق وفارس وعاصرتها الدولة الفاطمية بمصر عظم امر الشيعة في العالم الاسلامي وتضعضعت السنَّة فتشتت شأن المملكة العباسية . ثم ظهرت الدولة التركية الكبرى في اواسط القرن الخامس وتعرف بالدولة السلجوقية نسبة الى جدها سلجوق فجاءت في حال الحاجة اليها لانها لمت شعث المملكة العباسية ونصرت مذهبها (السنَّة) بعد ان كادت تضمحل بين يدي الشيعة في مصر والشام والعراق وفارس وخراسان . وكانت الدولة الفاطمية قد نشرت سلطتها على المغرب واوشكت ان تستولي على المشرق كله فجاء السلجوقيون من اقاصي الشرق فاستولوا على المملكة العباسية وجمعوا شملها . وبعد ان كانت ولايات مستقلة يملكها امراء من الفرس والاتراك والاكراد والعرب جعلوها مملكة واحدة يحكمونها تحت رعاية الخليفة العباسي

ومؤسس الدولة السلجوقية سلجوق بن يكاك امير تركي كان في خدمة بعض خانات تركستان فعلم باختلال المملكة العباسية فطمع فيها وعلم انهُ لا يبلغ ذلك وهو على غير دين الاسلام فاسلم هو وقبيلته وسائر جنده ورجال عصبيته دفعة واحدة ونهض بجميع هؤلاء من تركستان وساروا غرباً فقطعوا نهر جيحون وتدرجوا في الفتح ونشر السلطة حتى اكتسحوا المملكة العباسية وامتد سلطانهم من افغانستان الى البحر الابيض . واصبح العالم الاسلامي تتنازعه ثلاث دول اسلامية اكبرها دولة السلاجقة في المشرق ثم الدولة الفاطمية في مصر والمغرب والثالثة دولة بني امية في الاندلس . فشأن الدولة السلجوقية غير شؤون الدول التركية الصغرى التي تقدمتها لان هذه امارات نشأت في حجر الدولة العباسية وتفرعت من مملكتها واما الدولة السلجوقية فقد نشأت مستقلة وجاءت من الخارج بقوة وجند وفتحت تلك المملكة . والدولة الايلكية نشأت مستقلة ايضاً لكنها قلما اثرت في المملكة الاسلامية

وللسلاجقة منزلة عظمى في تاريخ الاسلام وفي ايامهم تكاثر نزوح الاتراك الى المملكة

الاسلامية في فارس والعراق والشام للسكنى والارتزاق في ظل ابناء جلدتهم . والسلاجقة اول من انشأ المدارس في المملكة الاسلامية بارقى ما بلغت اليه في عهد ذلك التمدن على يد نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقي في اواسط القرن الخامس . وقد فصلنا ذلك وعللناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب صفحة ٢٠١ ونظام الملك فارسي الاصل من اولاد الدهاقين ولكنهُ انشأ ما انشأهُ من المدارس والتكايا والرباطات والمساجد والمارستانات باسم سلطانهِ ملك شاه

والسلاجقة دولٌ تفرعت من اصل واحد وعرفت باسم واحد ولكنها تمتاز بعضها عن بعض باماكن حكمها واكبر هذه الدول السلاجقة العظام وهم اصل سائر الفروع واقوى منها جميعاً واليك الدول السلجوقية ومقدار حكمها :

١	السلاجقة العظام	حكموا	من سنة ٤٢٩ — ٥٥٢ هـ
٢	سلاجقة كرمان	»	» » ٤٣٣ — ٥٨٣
٣	» سوريا	»	» » ٤٨٧ — ٥١١
٤	» العراق وكردستان	»	» » ٥١١ — ٥٩٠
٥	» بلاد الروم (اسيا الصغرى)	»	» » ٤٧٠ — ٧٠٠

فحكمت الدولة السلجوقيه على الاجمال نحواً من ثلاثة قرون وبلغ اتساع مملكتهم من حدود الصين الى آخر حدود الشام

انتقال المملكة السلجوقية الى الاتابكة

وكان السلاجقة في أيام سلطتهم يولون الاعمال او الولايات قواداً من مماليكهم يسمونهم الاتابكة واحدهم اتابك وهو لفظ تركي معناه « الاب الامير » واستعملوه اولاً بمعنى وزير ثم صار بمعنى الملك . واخذ الاتابكة يستقلون بولاياتهم شيئاً فشيئاً حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم الاَّ الفرع الرومي في اسيا الصغرى فانه ظل في حوزة السلاجقة حتى اتى العثمانيون في آخر القرن السابع — واليك تفرع المملكة السلجوقية الكبرى الى مماليكهم الاتابكة وغيرهم وسني حكم كل دولة منها :

١	الدولة البورية	في دمشق	من سنة	٤٩٧ — ٥٤٩ هـ
٣	» الزنكية	» الجزيرة والشام	»	٥٢١ — ٦٤٨
٣	» البكتيجينية	» اربلاء وغيرها	»	٥٣٩ — ٦٣٠
٤	» الارتقية	» ديار بكر وماردين	»	٤٩٥ — ٧١٢

٥	دولة الشاهات	في ارمينيا	من سنة	٤٩٣ — ٦٠٤
٦	اتابكة اذربيجان	« اذربيجان	«	٥٣١ — ٦٢٢
٧	الدولة السلغرية	« فارس	«	٥٤٣ — ٦٨٦
٨	« الهزارسبية	« لورستان	«	٥٤٣ — ٧٤٠
٩	« الخوارزمية	« خوارزم	«	٤٧٠ — ٦٢٨
١٠	« القطلغية	« كرمان	«	٦١٩ — ٧٠٣

وما زالت هذه الممالك في حوزة الاتابكة وغيرهم من مماليك الدولة السلجوقية وقوادها حتى جاء المغول فاكتسحوها كلها واستولوا عليها

سلاجقة الروم

اما الفرع السلجوقي الذي ظل سائداً دون سائر الفروع فهو سلاجقة اسيا الصغرى وهي بلاد الروم في اصطلاح تلك الايام · على ان مملكتهم هناك تفرعت الى عدة فروع يحكم كل منها عائلة سلجوقية صغيرة وهاك اسماءها مع اسماء العائلات السلجوقية التي كانت تتولاها :

	اسم الامارة	اسم العائلة
١	ميسيا	آل كرامي
٢	بيسيديا	« حميد
٣	فريجيا	« كرميان
٤	ليسيا	« تاكة
٥	ليديا	« سروخان وايدين
٦	كاريا	« منتشا
٧	بفلاغونيا	« قزل احمدلي
٨	ليكونيا	« قرمان [1]

وما زالت هذه الامارات في سلطة الامراء السلاجقة حتى اتى العثمانيون فاستولوا عليها وانشأوا الدولة العثمانية في اوائل القرن الثامن للهجرة

(١) Lane Poole's Moh. Dynasties

الدول الكردية في ظل العباسيين

الدول الصغرى

الاكراد قوم اشداء واكثرهم اهل بادية وخشونة وجفاء يقيمون في الخيام وينقسمون الى قبائل وعشائر وبطون وهم اقل قبولاً للحضارة من الفرس والترك وغيرهما من الامم الشرقية التي دانت للاسلام في أبان التمدن الاسلامي • وقد ظلوا اهل ظعن ورحلة في معظم ذلك التمدن • وكانت الدول تستعين بهم في الحروب البدوية الشبيهة بالغزو كما كانت تستعين بالاعراب ومقامهم على الاكثر في كردستان وأرمينيا وجزيرة العراق كالموصل وديار بكر ولا يزال سوادهم هناك الى الآن

ونظراً لتمسكهم بالبداوة والخشونة لم تستخدمهم الدولة العباسية في اعمالها الاَّ قليلاً فلم ينبغ فيهم احدٌ من رجال الامارة المستقلة او اهل السياسة والتدبير الاَّ بعد دهر طويل من عهد ذلك التمدن • واول من أنشأ دولة كردية مستقلة في الاسلام حسنوية بن حسين البرزكاني زعيم بعض قبائل الاكراد في كردستان في اواسط القرن الرابع للهجرة وامتدت سلطته على معظم تلك المملكة وفيها دينَاور وهمذان ونهاوند وسرماج وغيرها • وقد اعترف خليفة بغداد بسلطانه ولقب ابنه بعده بناصر الدولة • ولم يطل عمرها كثيراً فحكمت من سنة ٣٤٨ — ٤٠٦ هـ ثم استقل من الاكراد ابو علي بن مروان في ديار بكر سنة ٣٨٠ هـ وامتدت سلطته على آمد وآرزان وميافرقين وبايع خلفه للفاطميين حيناً من الزمن وذهبت دولته سنة ٤٨٩ هـ

الدولة الايوبية

على ان الاكراد لم يكن لهم شأن يذكر في الاسلام الاَّ على عهد الدولة الايوبية من سنة ٥٦٤ — ٦٤٨ هـ ومؤسسها السلطان صلاح الدين الايوبي • وهو من أعظم رجال الاسلام تعقلاً وسياسةً وبسالة وتدبيراً انشأ دولته على انقاض الدولة الفاطمية بمصر وبايع فيها للعباسيين وحارب الصليبيين وردهم عن سوريا وانقذ بيت المقدس من ايديهم ومآثره اشهر من ان تذكر • وارتفع شأن الاكراد في ايام دولته وتولوا الامارات والولايات في مصر والشام وكردستان واليمن وخراسان ولما مات اقتسم مملكتهُ اخوتهُ وأولاده وأولاد اخوته ولذلك لم يطل حكمها • فغلبهم على معظمها مماليكهم الاتراك كما غلب الاتابكة ملوكهم السلاجقة قبلهم فكان للمماليك بمصر دولتان تعرفان بالسلاطين المماليك كما سيجي•

(ملاحظة) ومما يحسن التنبيه اليه في هذا المقام ان الاسلام أثرَّ في أمم المشرق تأثيراً خاصاً وساقها الى التمـدن تدريجاً فتسابقت الى انشاء الدول وتأسيس الممالك باعتبار اسبقيتها في الاسلام وقربها من العالم الاسلامي . فاول من اسلم من تلك الامم العرب وأسسوا الدولة الاسلامية العربية فاحتك بهم اولاً الفرس وهم اقرب امم المشرق الى جزيرة العرب فكانوا اسبق الاعاجم الى انشاء الدول . ثم جاء الاتراك من وراء بلاد فارس فلما انتشر الاسلام بينهم أسسوا الدول ونظموا الحكومات ثم ظهر الاكراد وهم اقرب من الاتراك الى العالم الاسلامي يومئذ لكنهم تمدنوا بعدهم لان الاتراك اقرب منهم الى سياسة الدول . وامتد الاسلام في تركستان وماوراءها من بلاد التتر او المغول فنهض هؤلاء واغاروا على بلاد الاسلام للنهب والقتل لكنهم مالبثوا ان احتكوا بالعالم الاسلامي حتى اخلدوا الى النظام وأنشأوا الدول . ويقال نحو ذلك عن تأثير الاسلام في المغرب وخصوصاً قبائل البربر في شمالي افريقيا كما تقدم

الخلافة والسلطة

او الدين والسياسة

لما ظهر الاسلام كان النبي رئيس المسلمين في أمور الدنيا والدين وهو حاكمهم وقاضيهم وصاحب شريعتهم وامامهم وقائدهم . وكان اذا ولى احد اصحابه بعض الاطراف خوله السلطتين السياسية والدينية واوصاه ان يحكم بالعدل وان يعلم الناس القرآن . ولكنه مالبث ان فصل بين المنصبين في من كان يوليهم أمور الرعية فبعث في السنة الثامنة للهجرة ابا زيد الانصاري وعمرو بن العاص ومعهما كتاب منه يدعو الناس الى الاسلام وقال لهما « ان أجاب القوم الى شهادة الحق وأطاعوا الله ورسوله فعمرو الامير وابو زيد على الصلاة وأخذ الاسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن »

على ان ذلك لم يكن قاعدة عامة لان الامير كثيراً ما كان يتولى الخراج والحرب والصلاة معاً كما تولاها يزيد بن المهلب في العراق من قبل سليمان بن عبد الملك [1] ويقال بالاجمال ان مصالح الدولة الاسلامية بعد ان كانت محصورة بالنبي سياسياً ودينياً تفرعت

(١) ابن الاثير ١٠ ج ٥

في ايام الخلفاء الى عشرات من المناصب الا الخلافة فانها ما زالت حتى الآن تشمل الرئاسة في أمور الدين والدنيا

والخلافة في الاصل منصبٌ دينيٌّ تولاه الخلفاء الراشدون لاتمام العمل الذي بدأ به النبي وهو نشر الاسلام والجهاد في سبيله وكانوا يتولون أمور المسلمين السياسية ايضاً لما يقتضيه الجهاد من الحرب وأسبابها كادارة الجند وتنظيمه لحماية البلاد ويدخل في ذلك ولاية الاعمال وجباية الخراج • على انهم كانوا يفعلون ذلك بصبغة دينية اي ان كل ما يعملونه فالى الدين ينتهي الغرض منه فكانوا يجندون الرجال ويفتحون البلاد في سبيل الدين • فلما انتشر الاسلام وتوطدت دعائمه وذهبت الحاجة الى الجهاد جاز للرئاسة الدينية ان تستقل عن السيادة السياسة او تنقسم الرئاسة الى الخلافة والسلطة كما حدث في النصرانية وغيرها

ولكن الارتباط بين الدين والسياسة في الاسلام يختلف عما في النصرانية لان النصرانية انتشرت اولاً في عامة الناس ثم انتقلت الى رجال الدولة • واما الاسلام فانه ظهر اولاً في رجال الدولة وانتقل منهم الى العامة لان اقدم اهل الاسلام الصحابة وهم جند المسلمين وأمراؤهم وقد نشروا الاسلام في الارض وجاهدوا في سبيل نصرته بأنفسهم • فلما تأيد الدين وقامت دولة المسلمين ورغب الامراء في السلطة الدنيوية كان منصب الخلافة من اكبر اسباب تغلبهم لتأثير الدين على اذهان الناس في تلك الايام فقد كانوا لا يجتمعون الا تحت رايته وخصوصاً في الشرق ولا يزالون على ذلك حتى الآن

على ان اهل التقوى من المسلمين كانوا يجعلون حدًّا فاصلاً بين الخلافة والسلطة فلما طلب معاوية السيادة كما يطلبها اهل المطامع بالدهاء والقوة خالفوه وابوا مبايعته فلما قُتل عليٌّ وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية لم يرَ المسلمون بدًّا من مبايعته على الطاعة كما يبايعون الملوك لكنهم استنكفوا من ان يسموه « خليفة » او يعترفوا لهُ بسلطة دينية فسموه « ملكاً » وهو يأبى الاَّ ان يجمع الرئاستين لعلمه ان الرئاسة الدنيوية وحدها لا تفيدهُ شيئاً — ذكروا ان سعد بن ابي وقاص دخل على معاوية بعد ان استقرَّ الامر لهُ وقال « السلام عليك ايها الملك » فضحك معاوية وقال « ما عليك لو قلت يا امير المؤمنين » فقال « تقولها جذلان ضاحكاً ؟ والله ما احب اني وليتها بما وليتها بهِ »

فيظهر من ذلك انهم كانوا ينزهون الخلافة عن السياسة والدهاء ويعتقدون ان بني امية نقلوا الاسلام من الدين الى العصبية والسيف ثم الى الملك البحت

الخلافة لازمة للسلطة المطلقة

وفي اعتقادنا ان الحكم المطلق لا يتأيد ويتسع نطاقه ويطول مكثه الاّ بالدين او ما يقوم مقامه . فما من دولة مطلقة طال حكمها واتسعت مملكتها الاّ وفي سلطتها صبغة دينية تحميها من طمع الطامعين بان تجعل لملوكها مزية على سائر الناس . واذا اريد فصل الدين عن السياسة فلا بدّ من تقييد الحكومة بالشورى وهي افضل الحكومات واطولها عمرًا والاّ فانها تنحلّ سريعاً ويكفي لانحلالها ان يتولى شؤونها ملكٌ قليل التدبير ناقص الاختبار فيغتصب ملكه بعض وزرائهِ او قواده . واذا تدبرت تاريخ الدول الاسلامية رأيت للسلطة الدينية تأثيرًا كبيرًا في طول بقائها واتساع نطاقها — اعتبر ذلك في الدول التي نشأت في أثناء التمدن الاسلامي من الفرس والترك والكرد والجركس كالبويهيين والسلاجقة والايوبيين وغيرهم من الدول الضخمة فان بين ملوكها جماعة من دهاة الرجال وقهارمة السياسة ولم تطل اعمارها رغم استقوائها بالخلافة العباسية . وانظر الى الدول العربية التي جمعت بين الخلافة والسلطة كالعباسيين والفاطميين والامويين في الاندلس معما طرأ عليها من اسباب السقوط فقد صبرت وطال جهادها . واذا نظرت الى الدول الاعجمية رأيت اطولها عمراً وأوسعها ملكاً الدولة التي جمعت بين السلطتين وهي الدولة العثمانية . وبنو امية في الشام لو لم يتخذوا لقب الخلافة ويقبضوا على أزمة الرئاسة الدينية ما استطاعوا الى الحكم سبيلاً فانهم انما حكموا الناس وأيدوا سلطتهم بما في الخلافة من الصبغة الدينية وتوفقوا الى اعوان عرفوا ان العامة لا تحكم بمثل الدين فجعلوا اهمهم تعظيم الخلافة حتى جعلوها فوق النبوة وسموا الخليفة « خليفة الله » وقالوا « خليفة الرجل في اهله افضل من رسوله في حاجته » كما تقدم — والعلماء ينكرون ذلك ولا يصدقونه وأما العامة فكانوا يساقون به الى الطاعة بالارهاب رغم ما كان يعتور صحة خلافة بني امية من الشكوك

فلما افضت الخلافة الى بني العباس وهم من عائلة النبي ومن أولى الناس بخلافته كان المسلمون اطوع لهم مما لبني أمية واعتقدوا ان خلافتهم تبقى ابد الدهر حتى يأتي السيد المسيح [1] وغرس في اذهان الناس بتوالي الازمان ان الخليفة العباسي اذا قتل اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر وجفّ النبات [2]

---

(١) ابن الاثير ١٩٨ ج ٥ (٢) الفخري ١٢٥

وكان الخلفاء لا يأنفون من ذلك التفخيم حتى الرشيد مع تعقله وانتشار العلم في عصره فقد ذكروا انه كان يحتمل ان يمدح بما يمدح به الانبياء فلا ينكر ذلك ولا يردّه حتى قال فيه بعض الشعراء « فكأنه بعد الرسول رسول » (١) فكيف يكون حال الخلفاء في عصر الانحطاط اذ يقوم الوهم مقام الحقيقة ويكثر المتزلفون والمتملقون ويكتفي اولو الامر بالكلام دون الاعمال — واذا شاخت الدولة تمسك اهلها بالعرض وتركوا الجوهر — فلا غرو اذا سموا الخليفة في ايام المتوكل « ظل الله الممدود بينه وبين خلقه » (٢) او قالوا قول ابن هانىء للمعز الفاطمي :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فانت الواحد القهار (٣)

الخلفاء والفقهاء

ويدلُّ ذلك على ما كان للخلافة من المنزلة المقدسة عند عامة الناس والاصل في هذا التقديس انما هو للدين وتعظيم الخلافة فرع منه · ولذلك كان بين الخلفاء الاولين وعلماء الدين الاسلامي كالحفاظ والمحدثين والفقهاء علاقة متبادلة وكل منهم يتقوى بالآخر — ومعنى ذلك ان الخليفة هو صاحب السيادة الدينية والسلطة الدنيوية فهو أمير الناس في السلم وقائدهم في الحرب وامامهم في الصلاة وهو قاضيهم وفقيههم كما كان النبي في اول الاسلام • فلما اتسعت الفتوح ومست الحاجة الى تقسيم الاعمال بمقتضى سنة العمران عمد الخليفة الى انابة من يتولى تلك الاعمال عنه • فالوالي انما هو نائب الخليفة في العمل الذي يتولاه والقاضي نائبه في القضاء وقائد الجند يتولى قيادته بالنيابة عن الخليفة • وقس على ذلك سائر المناصب الادارية والسياسية والقضائية وكذلك في المهن الدينية فالقراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء يتولون اعمالهم بالنيابة عن الخليفة • فكما يحتاج الخليفة الى نصرة العمال والقواد والقضاة في تأييد سلطته الدنيوية فهو يفتقر أيضاً الى نصرة الفقهاء والعلماء لتأييد سيادته الدينية • ولذلك رأيت الخلفاء يقربون اهل العلم ولاسيما في اوائل الاسلام (وهم يومئذ الحفاظ او القراء) وكان اليهم المرجع في حل المشكلات الدينية او القضائية اوالفقهية وهي أساس الاحكام السياسية في الدولة الاسلامية • ونظراً لتهوس العامة بالدين على الاجمال كان للفقهاء تأثير شديد في الدولة فلا يقطعون بامر هام الا باستفتائهم حتى في تنصيب الخلفاء فاذا انكر الفقهاء بيعة احدهم انكرها الناس •

(١) الاغاني ١٨ ج ١٢ (٢) المسعودي ٢٨٠ ج ٢
(٣) ابن الاثير ٢٤٥ ج ٨

ولذلك كان الخلفاء يجلون العلماء ويقربونهم ويعولون على مشوراتهم في عصر الراشدين والدولة على سذاجتها لم يلابسها غشٌّ ولا دهاءٌ فاذا نهوا الخليفة او الامير عن عمل انتهى واخذ بنصيحتهم

فلما طمع بنو امية بالخلافة والتمسوها من طريق الدهاء والبطش كان في جملة ما اهملوه من قواعد الراشدين الاخذ باقوال اهل العلم لانهم لو اطاعوهم ما تيسر لهم الملك • فقاسى العلماء في اوائل دولة الامويين عذاباً شديداً من المقاومة والضغط فاضطر بعضهم للافتاء بما يرضي اهل الدولة وابى البعض الآخر الاَّ الحق فاضطهدوهم وضيقوا عليهم — بدأوا بذلك من ايام عثمان والعمال يومئذ من بني امية وقد اخذوا يمهدون السبيل لسلطانهم بجمع الاموال والاستئثار بالنفوذ • وفي حكاية ابي ذر الغفاري مع معاوية بن ابي سفيان دليل ناطق على ما كان من جرأة اهل العلم على الخلفاء وانكار الامويين ذلك • وقد فصلناها في بعض ما تقدم من هذا الكتاب[1]

فلما استتب الامر لبني أمية حبست الافكار وتقيدت الالسنة ولم يتقدم من العلماء في مناصب الدولة الاَّ المتملقون • وبعد ان كان الخليفة لا يعمل عملاً الاَّ بمشورة فقهاء المدينة اغفل بنو امية المدينة وفقهاءها الاَّ عمر بن عبد العزيز فانه عاد الى مشورتهم • فظل الاحرار من الفقهاء في زوايا الاهمال معظم ايام بني أمية • فلما تسلط العباسيون واظهروا انهم يريدون احياء السنة وتقويم ما اعوج من سبل الدين في عهد الامويين ظهر اهل الافكار المستقلة من الفقهاء والعلماء والزهاد وقربهم الخلفاء واكرموهم فعادوا الى جرأتهم في خطاب من يؤانسون منه اصغاء كما فعل ذلك الرجل بالمنصور وهو يطوف وكما فعل سفيان الثوري لما استدعاه الرشيد الى بغداد ليكرمهُ ويقرّبهُ فكتب اليه سفيان كتاباً قال فيه : « اما بعد فاني كتبت اليك اعلمك اني صرمت حبلك وقطعت ودك وانك قد جعلتني شاهداً عليك باقرارك على نفسك في كتابك انك هجمت على بيت مال المسلمين فانفقته في غير حقه وانفذته في غير حكمه • ولم ترض بما فعلته وانت ناءٍ عني حتى كتبت اليَّ تشهدني على نفسك • فاما انا فاني قد شهدت عليك انا واخواني الذين حضروا كتابك وسنؤدي الشهادة غداً بين يدي الله الحكم العدل • ياهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم . . . هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في ارض الله والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل . . ؟ ام رضي بذلك حملة القرآن واهل العلم (يعني العاملين) ؟

(١) الجزء الثاني صفحة ١٦

ام رضي بفعلك الايتام والارامل ام رضي بذلك خلق من رعيتك . ؟ »[1]

ودخل سفيان المذكور على المهدي مرة ولم يسلم بالامارة فلم يغضب عليه المهدي بل استعطفه[2] وكان اكثر الخلفاء الاولين من بني العباس اذا لقوا فقيهاً او زاهداً طلبوا اليه ان يعظهم فاذا وعظهم بكوا حتى تخضل لحاهم . واشهر المتعظين من الخلفاء المنصور والرشيد والمعتصم والواثق ولهم حكايات مشهورة

فالفقهاء واسطة السيادة الدينية بين الخليفة والعامة مثل توسط الامراء والقواد في تأييد السيادة الدنيوية وقد يغني الفقهاء على الواسطتين جميعاً لان عامة المسلمين ينقادون الى فقهائهم ويستسلمون اليهم كما ينقاد عامة النصارى الى كهنتهم . فالخلفاء العباسيون كانوا يحتاجون الى الفقهاء للاستعانة بهم على اخضاع العامة وامتلاك قلوبهم وكذلك كان يفعل السلاطين والامراء لنفس هذا السبب او لسبب أخرى . والنفع متبادل بين الفئتين لان الفقهاء كانوا يكتسبون بتقربهم من الخلفاء مالاً وجاهاً ولكن ما يكتسبه الخلفاء منهم اعظم وابقى . فرسخ احترام الخلفاء في قلوب العامة وتمسكوا بهم وعظموهم باسم الدين

وكان الخلفاء يذعنون للعامة باسم الدين ايضاً . حتى كثيراً ما كانوا يضطرون الى مسايرة بعض الناس في بعض أعتقاداتهم الدينية ولو كان ذلك الاعتقاد مخالفاً لما في نفوسهم او مناقضاً للواقع كما فعل المهدي اذ جاءه رجل بنعل زعم انها نعل النبي فقبلها المهدي منه واجازه عليها مع اعتقاده كذبه وانما خاف ان كذّبه أن يحمل العامة قوله على الفتور في الدين[3]

ولم يكن للخلفاء بدٌّ من اظهار التقوى والقيام بالفروض الدينية لئلاً يفسد عليهم العامة ويحتقروا سلطانهم ولو كان الخليفة لا يعتقد ذلك . ذكروا ان الوليد بن يزيد الاموي مع اشتهاره بالخلاعة والتهتك كان اذا حضرت الصلاة يطرح ما عليه من الثياب المصبغة والمطيبة ثم يتوضأ فيحسن الوضوء ويؤتى بثياب بيض نظاف من ثياب الخلافة فيصلّي فيها احسن صلاة باحسن قراءة واحسن سكوت وسكون وركوع وسجود فاذا فرغ عاد الى تلك الثياب[4]

---

(١) الدميري ١٨٨ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٢١٠ ج ١

(٣) كتاب الاذكياء ٢٩ (٤) الاغاني ١٤١ ج ٦

الدول الاسلاميه والخلافة

فلهذا السبب كان الامراء الذين يستقلون عن الدولة العباسية بالادارة والسياسة لضعف الخليفة عن حربهم لا يستطيعون الاستقلال عنه بالدين اذ لا يستغنون عن بيعته لتثبيت سلطانهم . فاذا اراد احدهم الاستقلال بولاية او فتح بلد او انشاء امارة لنفسه بعث الى الخليفة في بغداد يبايعه ويطلب منه ان يعطيه تقليداً او عهداً بولاية ذلك البلد او ان يلقبه ويخلع عليه واذا ابى الخليفة ان يجيبه غضب وعدّ ذلك تحقيراً له وقد يجرّد عليه الجند ليكرههُ على تثبيته

فالامارات او الممالك التي استقلت عن الدولة العباسية في فارس وخراسان وتركستان وما بين النهرين والشام ومصر وبلاد المغرب وغيرها قبل قيام الدولة الفاطمية كان اصحابها يخطبون لخليفة بغداد ويبعثون اليهِ بمال معين في العام مع انهم في أمنٍ من سطوته . وانما يريدون ان يرضى العامة عن سلطانهم

وكذلك كان شأن الاجناد الاتراك وامرائهم فقد كانوا مع استبدادهم بخلفاء بغداد قتلاً وخلعاً لا يجسرون على استبقاء منصب الخلافة خالياً يوماً واحداً لاعتقادهم انهُ بدون الخليفة لا تستصلح العامة . حتى الملوك او السلاطين الذين تسلطوا على بغداد وقبضوا على كل شيءٍ فيها واصبح الخليفة آلة في ايديهم مثل آل بويه وآل سلجوق فقد كانوا يحاربون الخليفة ويجردون عليه الجيوش حتى اذا ظفروا بهِ وغلبوه بايعوه واكرموه ورفعوا مقامه وتبركوا بهِ . فعضد الدولة البويهي ملكَ بغداد واستبدَّ بها وهو شيعيٌّ على غير مذهب الخليفة . وكان يغالي في التشيع ويعتقد ان العباسيين غصبوا الخلافة من مستحقيها فلم يكن ثمة باعث ديني يدعوه الى طاعة خليفة بغداد ومع ذلك فانهُ بايعهُ وعظم شأنهُ واعاد من امر الخلافة ما قد نسي وامر بعمارة دار الخلافة والاكثار من الآلات وعمارة ما يتعلق بالخليفة وبطانته واكرمهُ غاية الاكرام (١)

وكان الخلفاء من الجهة الاخرى يعرفون حاجة الامراء المسلمين الى رضاهم فاذا ساءهم احد منهم هددوه بالخروج من بغداد فيضطر الى استرضائهم لان خروجهم يغضب العامة(٢) ويجرئهم على خلع الطاعة لتقديسهم شخص الخليفة وتنزيهه عن الخطأ — ولذلك فلم يكن من سبيل الى نزع سلطته او الاعتراض عليها الاَّ من وجه ديني فكان الذين يقومون على الخلفاء يجعلون سلاحهم الدين فيلبسون الصوف ويدعون الى المعروف او يعلقون في

(١) ابن الاثير ٢٥٧ ج ٨ (٢) ابن الاثير ٢١٣ ج ٩

اعناقهم المصاحف [١] او نحو ذلك مما يحرك عواطف العامة . واذا اراد احد الخلفاء ان يصلح ما بينه و بين العامة اصلحهُ بالتقوى . فلما ضمن الفضل بن سهل الخلافة للمأمون اوصاه باظهار الورع والدين ليستميل القواد [٢] ولما رأى ابو مسلم الخراساني اهل اليمن في مكة قال « اي جند هؤلاء لو لقيهم رجل ظريف اللسان غزير الدمعة » يريد تحريك عواطفهم الدينية بالوعظ والبكاء . فلم يكن للممالك الاسلامية بدٌّ من خليفة تبايعهُ ليثبت ملكها . وقد يستاء بعض الامراء المستقلين من خليفة بغداد فيكظم ولا يخلع بيعته الاَّ اذا رأى خليفة آخر يبايعه فلما قامت الدولة الفاطمية بالمغرب ومصر خلعت كثير من البلاد بيعة خليفة بغداد وبايعت للفاطميين في القاهرة . ولما تغلب السلطان صلاح الدين الايوبي على مصر وذهبت الدولة الفاطمية منها فأول شيءٍ فعلهُ انهُ خطب بجامع القاهرة للخليفة العباسي في بغداد وطلب المنشور منهُ والخلع عليه . وكانت الخلافة العباسية في غاية الانحطاط والضعف وهو في غنى عن بيعتها ولكنهُ علم انهُ اذا لم يبايع خليفةً فلا يرضي الناس

وكذلك فعل السلاطين المماليك الذين ملكوا مصر بعد الدولة الايوبية فانهم بايعوا للعباسيين وكانت الخلع تأتيهم من بغداد الى القاهرة بتثبيت سلطتهم . فلما سطا التتر على بغداد وفتحوها سنة ٦٥٦ هـ وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله توقف شأن الخلافة فاضطربت احوال مصر و بذل سلاطينها جهدهم في ايجاد خليفة يبايعونه [٣] ولو اعوزهم خليفة ولم يجدوه ربما اختلقوا واحداً ليحكموا العامة به [٤] على انهم ما زالوا يبحثون عن بقية الخلفاء العباسيين الذين كانوا في بغداد حتى ظفروا بالهاربين منهم فاستقدموهم الى القاهرة وفرضوا لهم الرواتب واحتفلوا بهم احتفالاً عظيماً وبالغوا في احترامهم واكرامهم [٥] مع علمهم ان اولئك الخلفاء لا يغنون عنهم شيئاً ولكنهم خافوا اختلال دولتهم بدونهم . وظل ملوك الهند وغيرهم من ملوك الاسلام بالاطراف البعيدة يبايعون للخليفة العباسي بالقاهرة ويطلبون التقليد منه او المنشور لاثبات سلطتهم على يد السلاطين المماليك [٦] فما الذي بعث اولئك الملوك على طلب التقليد من خليفة طريدٍ شريدٍ لا ينفع ولا يشفع لولا ما يتوقعونه من أثر ذلك في اذهان العامة ؟ ولا ننكر ان بعضهم كان يطلب بيعة

---

(١) ابن الاثير ٢٠٨ ج ٨ (٢) كتاب الاذكياء ٢٧

(٣) ابو الفداء ٢٢٢ ج ٣ (٤) ابن الاثير ١١٩ ج ٩

(٥) المقريزي ٣٠١ ج ٢ (٦) ابن خلدون ٥٤٣ ج ٣

الخليفة تديناً ولكن الاكثرين كانوا يطلبونها لاستصلاح العامة بها

الخلافة في غير قريش

ومما يستحق النظر والاعتبار ان ملوك المسلمين غير العرب على اختلاف مواطنهم واجناسهم ولغاتهم ودولهم من الفرس والاتراك والاكراد والبربر والجركس وغيرهم مع ما بلغوا اليه من سعة الملك وعزّ السلطان ومع حاجتهم الى السيادة الدينية لتستقيم دولتهم وتجتمع الرعية على طاعتهم لم يخطر لاحد منهم ان يطلب الخلافة لنفسه قبل انتقال الاسلام الى طوره الثاني بعد تضعضعه بفتوح المغول ولا ادعاها احد من العرب غير قريش • واول سلطان غير عربي بويع بالخلافة السلطان سليم العثماني ولا تزال الخلافة في دولته الى الآن

على ان الذين قويت شوكتهم في عهد ذلك التمدن من الامراء المسلمين او القواد غير العرب كانوا اذا طمعوا بالسيادة الدينية او الخلافة انتحلوا لانفسهم نسباً في قريش كما فعل ابو مسلم الخراساني لما رأى من نفسه القوة على انشاء الدولة وربما طمع بالخلافة فانتحل لنفسه نسباً في بني العباس فقال انه ابن سليط بن عبد الله بن عباس[1]

وأما الملوك او السلاطين الأعاجم فلما ضخمت دولهم في اواخر العصر العباسي ورأوا انحطاط الخلافة وتقهقرها تمنوا الاستغناء عنها ولكنهم لم يروا سبيلاً الى ذلك الاَّ ان يستبدلوها بخلافة أخرى • على ان بعضهم طمع بالنفوذ الديني من طريق الانتساب الى الخليفة بالمصاهرة • وأول من فعل ذلك عضد الدولة بن بويه المتوفى سنة ٣٧٢ هـ فانه حمل الطائع لله الخليفة العباسي في ايامه ان يتزوج بابنته وغرضهُ من ذلك ان تلد ابنته ولداً ذكراً فيجعله ولي عهده فتكون الخلافة في ولد لهم فيه نسب[2] ولم يتوفق الى مراده

ولما افضت السلطة الى السلاجقة تقدموا في هذا الطريق خطوة خرى فعمدوا الى التقرب بالمصاهرة ايضاً ولكن على ان يتزوج السلطان طغرلبك السلجوقي ابنة الخليفة وهو يومئذ القائم بامر الله نخطبها اليه ووسط قاضي الري في ذلك فانزعج الخليفة لهذا الطلب ايما انزعاج اذ لم يسبق ان يتزوج بنات الخلفاء الاَّ اكفاؤهم بالنسب • وكانت يد السلطان قوية والخليفة لا شيء في يده فاخذ في استعطافه ليعفيه من الاجابة على طلبه فابى السلطان الاَّ ان يجاب • وحدثت أمور يطول شرحها خيف منها على الدولة فاضطر الخليفة الى القبول — فعقد له عليها سنة ٤٥٤ هـ وهذا ما لم يجر مثله قبله لان آل بويه لم

(١) الفخري ١٢٣ (٢) ابن الاثير ٢٨٣ ج ٨

يطمعوا بذلك ولا تجاسروا على طلبه مع مخالفتهم للخليفة في المذهب [١] اذ يكفي من الخليفة تنازلاً ان يتزوج بنات الملوك لا ان يزوجهم بناته ولم ينل هذا الشرف احد قبل طغرلبك • ومع ذلك فانه لما دخل الى عروسه في السنة التالية قبل الارض بين يديها وهي جالسة على سرير ملبس بالذهب فلم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له وظل اياماً يحضر على هذه الصورة وينصرف • على انه لم يتوفق لاتمام ما أراده لانه توفي في تلك السنة • اما المبايعة بالخلافة لغير العرب فلم تلها دولة اسلامية قبل العثمانيين فلما فتح السلطان سليم مصر وجد فيها آخر الخلفاء العباسيين الذين كان السلاطين المماليك قد استقدموهم فتنازل لهُ عن الخلافة سنة ٩٢٣ هـ

العصر العربي الثاني

الامارات العربية والعنصر العربي

نريد بالعصر العربي الثاني العصر الذي جدَّد فيه العرب سطوتهم واعادوا سلطانهم ونفوذهم في الدولة بعد ان غلب الفرس على امورهم واستبدوا بهم • فقد رأيت ان شوكة العرب ضعفت بذهاب الدولة الاموية وتغلب الفرس في الدولة العباسية حتى غُلب الامين فانكسرت تلك الشوكة وتضعضع شأن العرب ثم جاء المعتصم فقطع اعطيتهم ومنعهم من مصالح الدولة فذلوا ونقموا على العباسيين ولبثوا يترقبون الفرص لاسترجاع سلطانهم واصبحوا ينصرون كل من يخرج على تلك الدولة في العراق او الشام او مصر حتى الاكراد والاعراب والقرامطة فلم ينفعهم ذلك الاَّ قليلاً لتغلب الاتراك في مصالح الحكومة

على ان بعض القبائل العربية تمكنت باسباب مختلفة من انشاء امارات صغيرة في ما بين النهرين والشام تحت رعاية العباسيين وقد ساعدهم على ذلك ما قام من الفتن والحروب بين الخلفاء العباسيين ووزرائهم الفرس وأجنادهم الاتراك في القرن الرابع للهجرة ورأوا الفرس والترك يستقلون بولاياتهم فقلدوهم فاستقلَّ آل حمدان من بني تغلب بالموصل وحلب وغيرهما من سنة ٣١٧ — ٣٩٤ هـ وكانت دولتهم عربية

(١) ابن الاثير ٨ ج ١٠

احيوا بها معالم العرب وآدابهم وعرفت بالدولة الحمدانية اشهر أمرائها سيف الدولة وقد اشتهر بمـا نظمه فيه ابو الطيب المتنبي

ونشأ في حلب في ذلك القرن ايضاً دولة عربية أخرى اسمها المرداسية نسبة الى اسد الدولة صالح بن مرداس من قبيلة بني كلاب من المضرية فحكم في حلب هو واولاده من سنة ٤١٤ ـ ٤٧٢ ﻫ وخلف الحمدانية بالموصل دولة بني عقيل من كعب من المضرية فتولوها من سنة ٣٨٦ — ٤٨٩ ﻫ وظهرت في أثناء ذلك دولة عربية رابعة عرفت بالمزيدية نسبة الى مزيد الشيباني من قبيلة اسد وقد أنشأوا مدينة الحلة في العراق وحكموا من سنة ٤٠٣ — ٥٤٥ ﻫ

وهناك دولتان انشأها رجال من العرب في العصر العباسي الأول وفي بلاد غير عربية فالاولى ان تعدّا من الدول الاعجمية وهما الدولة الدلفية التي انشأها ابو دلف العجلي في كردستان والعلوية التي انشأها الحسن بن زيد في طبرستان واذا اضفنا الى ما تقدم دولة الاغالبة التي استقلت بالمغرب قبل سائر فروع الدولة العباسية ودولة الادارسة الآتي ذكرها بلغ عدد الدول العربية الصغرى في النهضة العربية الثانية ثماني دول هذا بيانها مع اسماء مؤسسيها ومدة حكم كل منها ننشرها بحسب تاريخ تأسيسها :

	الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
١	الادريسية	مراكش	١٧٢ — ٣٧٥ ﻫ	ادريس بن عبد الله
٢	الاغلبية	تونس وغيرها	١٨٤ — ٢٨٩	ابراهيم بن الاغلب
٣	الدلفية	كردستان	٢١٠ — ٢٨٥	ابودلف العجلي
٤	العلوية	طبرستان	٢٥٠ — ٣١٦	الحسن بن زيد
٥	الحمدانية	حلب والموصل	٣١٧ — ٣٩٤	بنو حمدان
٦	المزيدية	الحلة	٤٠٣ — ٥٤٥	مزيد الشيباني
٧	العقيلية	الموصل	٣٨٦ — ٤٨٩	بنو عقيل
٨	المرداسية	حلب	٤١٤ ـ ٤٧٢	صالح بن مرداس

غير الامارات العربية الصغرى التي ظهرت في بلاد اليمن كالزيادية في زبيد واليعفورية في صنعاء وغيرها

على ان هذه الدول قلما اثرت في احياء سطوة العنصر العربي او ارجاع شوكة العرب

لانها كانت تعترف بخلافة العباسيين وتبايع لهم الاّ العلوية والادارسة · ولا حرج عليهم فان الفرس والترك والديلم كانوا قد استبدوا باكثر امارات المملكة العباسية ورسخ في اذهان الناس ان الدولة العباسية باقية الى رجوع المسيح فبات الشرق كله تحت سيطرة العباسيين يخطب لهم ويضرب النقود باسمهم فاتجهت آمال العرب نحو الغرب

وكان الامويون اصحاب العصبية العربية واكبر اعداء الفرس ومن جاورهم من الاعاجم قد انشأوا دولة عربية في الاندلس من سنة ١٣٨ﻫ سيأتي الكلام عليها · فالعرب الذين كانوا يطمعون باحياء العنصر العربي ويكبرون ذهاب دولة العرب في ظل العباسيين كانوا ينزحون الى الغرب فينزلون في الاندلس او يقيمون في افريقيا بظل السيادة العربية بعيدين عن سلطة الدولة العباسية

واكثر العرب نفورًا من تلك الدولة واشدهم بغضًا لها شيعة العلويين لا سيما بعد ان قضي على آمالهم في الشرق بما توخاه العباسيون من التفرد بالخلافة هناك · وكان بعض اصحاب هذه الدعوة قد فروا من وجه العباسيين نحو الغرب في اوائل دولتهم فانشأوا هناك دولة علوية عرفت بالدولة الادريسية نسبة الى ادريس بن عبد الله حكمت من سنة ١٧٢ — ٣٧٥ ﻫ ولم يطمع امراؤها بلقب الخلافة

وبقي في الشرق جماعة من العلويين كانوا لا يزالون يؤملون الفوز بشيعتهم الموالي الفرس فلما رأوا العباسيين غلبوهم على ما في ايديهم بعد فتنة الامين والمأمون واستبداد رجال الاتراك في الدولة ومقاومتهم العنصرين الفارسي والعربي جميعًا يئسوا من نصرة الموالي فنزح بعضهم الى المغرب تدريجًا وظل البعض الآخر في المشرق يترصدون ضعفًا يبدو لهم من الدولة العباسية فيغتنمون الفرصة للوثوب عليها لا يبالون بمن يستنصرون او على من يعوّلون · فكانوا يقومون تارة بالفرس او الخراسانيين وطورًا بالاكراد او الديلم او غيرهم من الامم الناقمة على الاتراك او الفئات المظلومة من فساد الاحكام واستبداد الخدم ولم يفز احد منهم بانشاء دولة غير الحسن بن علي في طبرستان صاحب الدولة العلوية التي ذكرناها ولم يطل عمرها · وكثيرًا ما كانت تلك الفئات المظلومة تنتحل الدعوة العلوية للوثوب على الدولة كما فعل صاحب الزنج في العراق فانهُ اقلق راحة الدولة العباسية واجنادها وعمالها بضعة عشر عامًا بما جمعه من اباق العبيد والزنوج الذين كانوا يكسحون السباخ في ضواحي البصرة والكوفة واستنهض سائر السودان فتركوا اسيادهم وقاموا معه

تحارب الدولة في وقائع كثيرة قتل فيها نحو ٢٥٠٠٠٠٠ [1] وكانوا يفعلون ذلك باسم الدعوة العلوية وزعيمهم دعيّ اسمه علي بن محمد زعم انه من نسل الحسين وانتهت تلك الثورة بقتل الداعي وتبديد رجاله

على ان الشيعة العلوية لم يكن لها شأن يذكر الاَّ بعد ظهور الدولة البويهية الشيعية في الشرق واستيلائها على بغداد واستبدادها في الخلافة . وكان الشيعة قد أنشأوا خلافة علوية في بلاد المغرب فاشتد ازرهم بذلك وحملوا على المشرق يلتمسون افتتاح المملكة العباسية فجاؤُا مصر وفتحوها في اواسط القرن الرابع للهجرة واقاموا فيها وكانت دولتهم ضخمة عرفت بالدولة الفاطمية هي اكبر دول الشيعة وسيأْتي ذكرها

وجاءت الدولة الفاطمية مزاحمة للدولة العباسية وقدقام بنصرتها العرب والبربر وهؤُلاء ينتحلون لانفسهم نسباً في العرب . وكانت الآمال عالقة باحياء العنصر العربي على يدها كما كان في صدر الاسلام فبايعها معظم العالم العربي يومئذ حتى في العراق وما بين النهرين فان اهل الكوفة والموصل بايعوها مدة مع قربهم من بغداد عاصمة العلويين [2] على انهم لم يستطيعوا احياء ذلك العنصر لذهاب دولة آل بويه من المشرق وظهور الدولة السلجوقية التركية هناك وانتصارها للعباسيين وانتحالها مذهبها ودفاعها عنها فظلت الموازنة محفوظة بين الشرق والغرب الاول سني والثاني شيعي

فلما تغلب الاكراد على الدولة الفاطمية واستخرجوا مصر من حوزتها على يد صلاح الدين الايوبي اعادوا البيعة العباسية اليها سنة ٥٦٧ ﻫ وكان العنصر العربي قد ضعف بمصر قبل انقضاء تلك الدولة بمن استبد في الاحكام من الاتراك والارمن وغيرهم كما سيجيء فعاد العنصر العربي الى الضياع الاَّ امارات صغيرة ظهرت في جزيرة العرب ولا يزال بعضها باقياً الى الآن

فالعصر العربي الثاني عبارة عن احياء العنصر العربي في المغرب بعد انحلاله في المشرق واكبر العوامل في احيائه الدولتان الاموية بالاندلس والفاطمية بمصر . وكان قيامهما نهضة عربية لم يطل مكثها ولا كان لها تاثير يذكر . ولم يقم للعرب قائمة في الدولة الاسلامية من ذلك الحين — الاَّ ما ابدته بعض القبائل من النهوض في بلاد العرب او غيرها بدعوة سياسية او دينية كقيام الوهابية في نجد والدراويش في السودان . ولما عزم محمد علي باشا مؤَسس العائلة الخديوية على انشاء دولة اسلامية كبرى في اوائل القرن التاسع عشر اراد

(١) الفخري ٢٢٧ (٢) ابن الاثير ٩٢ ج ٩

ان يستعين على انشائها بعصبية اسلامية واقوى العصبيات بمصر يومئذ الترك والعرب والعصبية التركية للدولة العثمانية فاختار عصبية العرب فحامت الآمال حوله وخصوصاً بعد حربه الوهابية واجتماعه بشريف مكة وغيره من رؤساء القبائل فاحيا العنصر العربي ونشط العصبية العربية بما انشأه من المدارس والمطابع او نشره من الكتب · فكان للعرب نهضة قلما افادته في غرضه السياسي لما حال دون مطامعه من اغراض دول الافرنج في المملكة الاسلامية ولكنها افادت اهل الشرق من العرب فائدة ادبية علمية بتمهيد السبيل للنهضة التي نحن فيها اما ما تتناقله الجرائد من اخبار اليمن ونجد وتمرد بعض رؤساء القبائل فلا نتوقع له نتيجة تذكر لاسباب عمرانية سياسية لا محل لها هنا

فالنهضة العربية في العصر العربي الثاني الذي نحن في صدده قلما اثرت في احياء العنصر العربي · وقد تقلبت على كل من الدولتين الاموية في الاندلس والفاطمية بمصر احوال مختلفة في سياستها وشؤون حكومتها لا باس من الاتيان على خلاصتها وان كانتا بالحقيقة مقلدتين للدولة العباسية في اكثر احوالها

سياسة بني امية في الاندلس

من سنة ١٣٨ — ٤٢٢ ﻫ

اقتدت هذه الدولة في سياستها بالدولة العباسية مثل سائر الدول التي عاصرتها او نشأت بعدها · فمؤسسها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان كان شديداً مثل جده عبد الملك نجا من مذبحة اهلهِ في مجلس السفاح سنة ١٣٢ ﻫ وهرب من العراق يطلب بلاد المغرب بمساعدة مولى لهُ اسمهُ بدر لم يدخر وسعاً في انقاذه وحمايته في اثناء ذلك الفرار والمسافة طويلة واهل البلاد ناقمون على الامويين · فلما وصل به الى المغرب سعى له في جمع الاحزاب فقطع بوغاز جبل طارق الى الاندلس وفيها من موالي بني امية نحو خمسماية رجل فاخبرهم بقدوم مولاه وحرَّضهم على نصرته لاستبقاء هذه الدولة هناك فنصروه وجمعوا كلمة المضرية واليمنية — وجمعها صعب في ذلك العهد · فبعد حروب كثيرة مهدوا له الدولة واستقدموه اليهم فدخل الاندلس وتولى امورها سنة ١٣٨ ﻫ ولذلك سموه الداخل

حكمها اولاً باسم الدولة العباسية وخطب بها للمنصور نحو سنة ولم يجسر في بادىء

الرأي على انشاء خلافة اخرى مع وجود الخلافة العباسية لان النبي واحد وخليفته واحد·
وكان لعبد الرحمن ابن عم يقال له عبد الملك بن عمير بن مروان شديد العصبية للامويين واسع الامل في ارجاع خلافتهم وكانوا يسمونه شهاب آل مروان لشجاعته وسرعة فتكه وقد حارب في نصرة ابن عمه حروباً ثبتت له بها الدولة فحرضه على قطع الخطبة العباسية ولما آنس منه تردداً صاح فيه « اقطعها والاَّ قتلت نفسي » فقطعها ولكنه لم يجسر ان يسمي نفسه خليفة فكانوا يسمون امويي الاندلس في اوائل دولتهم الامراء ثم سموهم الخلفاء

واتفق في اثناء ذلك ان المنصور العباسي اهان مالك بن انس امام المدينة لما علمته من افتائه بخلع المنصور لانه كان قد بايع للعلويين فاغتنم الامويون نقمة مالك عليه وقربوه منهم واكرموه فانتفع كل منهما بصاحبه · فالامويون رأوا فيه اماماً كبيراً ينصر دعوتهم او يؤيدها من حيث الدين ويطعن في خلافة بني العباس · ورأى مالك في الامويين ملجأً كبيراً وتعزية لما ذاقه من شدة بني العباس · فشاع مذهب مالك في الاندلس من ذلك الحين وكانوا قبلاً على مذهب الاوزاعي مثل اهل الشام · وقد نقلوا الفتوى الى رأي مالك في ايام الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل [1]

وكان عبد الرحمن هذا يقلد سياسة المنصور العباسي في تأييد دولته وكانا متشابهين من عدة اوجه : منها ان والدة كل منهما بربرية وكان عبد الرحمن مثل المنصور من حيث الشدة والعزم وضبط الامور · واتفقا بان كلاً منهما قتل ابن اخيه فقتل المنصور ابن اخيه السفاح وقتل عبد الرحمن ابن اخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية [2] وقد اقتدى عبد الرحمن بالمنصور في سياسة الفتك والغدر لتأييد سلطانه بقتل الذين ساعدوه على تاييده فسخط على بدر مولاه لفرط دلاله عليه ولم يرعَ حق خدمته وصدق مناصحته فاخذ ماله وسلبه نعمته ونفاه سنة ١٥٦ هـ الى مكان بقي فيه الى ان هلك كما قتل المنصور ابا مسلم الخراساني بعد بلائه في انشاء دولته [3] · وقتل عبد الرحمن ايضاً ابا الصباح بن يحيي رئيس العرب اليمانية وكان قد ساعده على القيام وله فضل عليه [4] ففعل به مثل فعل بني العباس بابي سلمة وابن كثير وغيرهما · وقام اليمانية رجال ابي الصباح يطلبون بثاره فاوقع عبد الرحمن بهم واكثر القتل فيهم واستوحش من العرب قاطبة وعلم انهم يصحبونه على غلٍّ وحقد فانحرف عنهم الى اتخاذ المماليك ليتقوى بهم على اعدائه فبعث الى كبراء مملكته يبتاع

(١) نفح الطيب ٧٩٩ ج ٨ (٢) نفح الطيب ٧١٥ ج ٢

(٣) ابن الاثير ٥ ج ٦ (٤) نفح الطيب ٧٠٦ ج ٢

مواليهم فاقتنى موالي الناس من كل ناحية واعتضد بالبربر فوجه اليهم في بر العدوة على شواطىء افريقيا واستوفدهم فجاءه منهم كثيرون فاكرم وفادتهم وأحسن اليهم وقربهم فرغبوا في خدمته فاستكثر منهم ومن العبيد حتى بلغ جنده من هؤلاء نحو ٤٠,٠٠٠ رجل غلب بهم على اهل الاندلس من العرب فاستقامت مملكته وتوطدت دعائمها كما تأيدت الدولة العباسية بالخراسانيين

الصقالبة

ثم عمد الامويون بعده الى استخدام الخصيان الصقالبة وهم غلمان كان النخاسون يحملونهم من شمالي أوربا يتجرون ببيعهم في انحاء العالم وكان الاتجار بهم رائجاً . والسبب في رواجه ان قبائل السلاف (الروسيين) نزلوا في اوائل ادوارهم شمالي البحر الاسود ونهر الطونة ثم اخذوا ينزحون غرباً جنوبياً نحو اواسط اوربا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف (او السكلاف) والسرب والبوهيم والدلمات وغيرهم . فاضطروا وهم نازحون ان يحاربوا الشعوب الذين في طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم فتكاثر الاسرى من الجانبين . وكان من عادات اهل تلك الاعصر ان يبيعوا اسراهم بيع الرقيق فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الاسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا الى افريقية ومنها الى الشام ومصر فلما وقعت هذه البلاد في أيدي المسلمين راجت تلك التجارة . فكان التجار من الافرنج وغيرهم يبتاعون الاسرى من السلاف والجرمان من جهات المانيا عند ضفاف الرين والالب وغيرها الى ضفاف الدانوب وشواطيء البحر الاسود — ولا يزال اهل جورجيا والجركس الى اليوم يبيعون اولادهم بيع السلع — فاذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الارقاء امامهم سوق الاغنام وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال وفيهم الذكور والاناث الى ان يحطوا رحالهم في فرنسا ومنها ينقلونهم الى اسبانيا (الاندلس) فكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة او الحرب والاناث للتسرّي . وغلب على أولئك الارقاء انتسابهم الى قبيلة السلاف وكانت تلفظ عندهم « سكلاف » فعربها العرب « صقلب » ومنها « صقلبي وصقالبة » واصبح هذا اللفظ عندهم يستعمل للرقيق الابيض على الاجمال

على ان عبد الرحمن الداخل قلما رغب في الصقالبة واول من استكثر منهم حفيده الحكم بن هشام (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) فانه استكثر من اقتناء المماليك وارتبط الخيول ببابه وتشبه بالجبابرة . وهو اول من جند الاجناد المرتزقين بالاندلس فجعل المماليك من

المرتزقة فبلغت عدتهم ٥,٠٠٠ مملوك وكانوا يسمونهم الخرس لعجمة السنتهم ثم تدرج الامويون باستخدام الصقالبة حتى تكاثروا في ايام عبد الرحمن الناصر (٣٠٠—٣٥٠هـ) وجعلهم بطانته وجنده كما فعل المعتصم العباسي بالاتراك قبله . واستقل بنو أمية بمملكتهم هذه في أوربا عن سائر ممالك الاسلام في اسيا وافريقيا ولم يكونوا يطمعون في التغلب على الممالك الاخرى فقطعوا علائقهم معها ومنعوا اهل دولتهم من الحج الى الحرمين[1] مخافة ان يقع احد منهم في ايدي العباسيين فلم يحج سائر ايامهم احد من اهل دولتهم وما ابيح لهم الحج الا بعد فراغ شأن الاموية ورجوع مملكة الاندلس الى ملوك الطوائف غير العرب

ملوك الطوائف بالاندلس

وبلغت الاندلس ابان مجدها في ايام عبد الرحمن الناصر المتوفى سنة ٣٥٠ هـ وكان عاقلاً كريماً توفرت الثروة في خلافته وكانت ايامه مثل ايام هرون الرشيد في بغداد من حيث الرغد والرخاء . وخلفه ابنه الحكم وكان محباً للعلم والعلماء مثل المأمون بن الرشيد وبلغت مملكة الاندلس في ايام هذين الخليفتين الى أوج مجدها سطوة وابهة وثروة واخذ شأن الخلافة بعدها بالانحطاط فاستبد اهل الدولة وجندها في الاحكام وهم موالي الامويين من البربر والصقالبة كما استبد الفرس والاتراك في الدولة العباسية

وكان العرب في مقدمة رجال الدولة واهل العصبية ولهم المقام الرفيع والكلمة النافذة لان الامويين اهل عصبية للعرب كما تقدم فلما استبد الصقالبة والبربر في المناصب والاعمال اخذت شوكة العرب بالضعف تدريجاً حتى غلب ابن ابي عامر وزير الحكم بن الناصر على أمور الدولة في ايام هشام بن الحكم في أواخر القرن الرابع للهجرة ومكر باهل الدولة وضرب بين رجالها وقتل بعضاً ببعض ومنع الوزراء من الوصول الى الخليفة وهو عربي الاصل من اليمنية فاصبح يخاف الجند على نفسه فعمل على تفريق جموعهم فبدأ بالصقالبة الخدم بالقصر فنكبهم بدسيسة واخرجهم من القصر ثم فتك بالجند الصقالبة وأخر رجال العرب واسقطهم عن مراتبهم واستقدم اليه رجالاً من برابرة افريقية وزناتة وقدمهم واستعان بهم . فانكسرت شوكة العرب فى الاندلس من ذلك الحين.

وما زالت الدولة هناك آخذة في الانحلال حتى اقتسمها الولاة البربر وغيرهم باسرع مما حدث في الدولة العباسية لضعف اعتقاد المسلمين بصحة خلافة بنى أمية ولان العباسيين

(١) ابن خلدون ٢٣٨ ج ١

ارسخ قدماً في الخلافة لقرابتهم من النبي • فانقسمت مملكة الاندلس في أوائل القرن الخامس للهجرة الى امارات تولاها اصحاب الاطراف والرؤساء وفيهم العرب والبربر والموالي فتغلب كل انسان على ما في يده فصاروا دولاً صغيرة متفرقة ولذلك سموا ملوك الطوائف وهاك اشهرهم مع اسماء اماراتهم

اسم الدولة	اسم المملكة	مدة الحكم
بنو حمود	مالقة والجزيرة	٤٠٧ — ٤٤٩ هـ
« عباد	اشبيلية	٤١٤ — ٤٨٤
« زيري	غرناطة	٤٠٣ — ٤٨٣
« جهور	قرطبة	٤٢٢ — ٤٦١
« ذوالنون	طليطلة	٤٢٧ — ٤٧٨
« عامر	بلنسية	٤١٢ — ٤٧٨
« هود وتوجب	سرقوسة	٤١٠ — ٥٣٦

ولم تطل سيادة هذه الدول كما رأيت فغلبت عليهم دولة المرابطين ثم الموحدين وظل الانقسام متتابعاً بين تلك الممالك والخصام متوالياً والافرنج يغتنمون ضعفهم وانقسامهم ويسترجعون مملكتهم امارة بعد امارة وبلداً بعد بلد حتى غلبوا على المسلمين واخرجوهم من الاندلس • وآخر مدينة افتتحها الافرنج من تلك المملكة غرناطة وكانت في حوزة بني نصر نسبة الى يوسف بن نصر من سنة ٦٢٩ هـ توالى عليها منهم بضعة وعشرون ملكاً آخرهم ابو عبدالله محمد بن علي فاستخرجها الافرنج من يده سنة ٨٩٧هـ وفرَّ ابو عبدالله وكان ذلك آخر عهد المسلمين بالاندلس



الدولة الفاطمية

من سنة ٢٩٧ ـــ ٥٦٧هـ

الشيعة في المغرب

قد علمت حال الشيعة في ايام بني أمية بالشام وما قاسوه من القتل والصلب ثم ماكان من حالهم في الدولة العباسية وخصوصاً في ايام المنصور والرشيد والمتوكل من الاضطهاد والقتل فحملهم ذلك على الفرار الى اطراف المملكة الاسلامية فهاموا على وجوههم شرقاً وغرباً كما تقدم. وكان في من جاء منهم نحو الغرب ادريس بن عبدالله بن الحسن المثنى اخو محمد بن عبد الله الذي بايعه المنصور ثم نكث بيعته . فاتى ادريس مصر وهي يومئذ في حوزة العباسيين فاستخفى في مكان أتاه اليه بعض الشيعة سرًّا ومنهم صاحب البريد فحمله الى المغرب في ايام الرشيد فتلقاه الشيعة هناك وبايعوه فانشأ دولة في مراكش عرفت بالدولة الادريسية من سنة ١٧٢ ـــ ٣٧٥ هـ على ان هولاء لم يسموا انفسهم خلفاء.

اما ظهور الشيعة وتغلبهم وارتفاع شأنهم حقيقة فالفضل فيهِ للدولة الفاطمية نسبة الى فاطمة بنت النبي لان اصحابها ينتسبون اليها وتسمى ايضاً الدولة العبيدية نسبة الى مؤسسها عبيد الله المهدي . وكان شأن الشيعة قد بدأ بالظهور في المشرق على يد بني بويه في اواسط القرن الرابع للهجرة

ولما تغلب البويهيون على بغداد كانت الدولة الفاطمية قد اشتد ساعدها في المغرب وهمّت بفتح مصر . وكان آل بويه يغالون في التشيع و يعتقدون ان العباسيين قد غصبوا الخلافة من مستحقيها فاشار بعضهم على معز الدولة البويهي ان ينقل الخلافة الى العبيديين او لغيرهم من العلويين فاعترض عليهِ بعض خاصته قائلاً « ليس هذا برأي فانك اليوم مع خليفة تعتقد انت واصحابك انهُ ليس من اهل الخلافة لو امرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمهُ ومتى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد انت واصحابك صحة خلافته فلو امرهم بقتلك لقتلوك » فرجع معز الدولة عن عزمه [1]

على ان الشيعة اعتزت في الشرق بهذه الدولة واحيا البويهيون كثيرًا من الاحتفالات

---

(١) ابن الاثير ١٧٧ ج ٨

الدينية الشيعية ومنها عاشوراء تذكار مقتل الحسين [١] وحملوا الخليفة على ان يخطب لعضد الدولة في بغداد اي ان يذكر اسمهُ في الخطبة فخطب لهُ وهو اول من خطب لهُ فيها. فوقع التحاسد بين الاتراك والديلم هناك ونشأت الفتن بين السنة والشيعة من ذلك الحين والترك يمثلون السنة والديلم او الفرس يمثلون الشيعة . فحمل الاتراك اهل بغداد على الاحتفال ببعض الاعياد عكس احتفال الشيعة [٢] نكاية بهم

الشيعة في مصر

على ان ظهور الشيعة في الشرق هوّن على الدولة العبيدية فتح مصر والانتقال اليها وكانت قصبتها قبلاً المهدية بافريقيـة وخلفاؤها ينتسبون الى الحسين بن علي وللمؤرخين في انتسابهم اليهِ اقوال متناقضة فالذين يتعصبون للعباسيين ينكرون ذلك عليهم. ويغلب في اعتقادنا صحة انتسابهم اليهِ وان السبب في وقوع الشبهة طعن العباسيين فيهِ تصغيرًا لشأنهم [٣]

والمصريون كانوا يحبون عليًا من صدر الاسلام وكانوا من حزبه يوم مقتل عثمان ولكن قلما كان لهم شأن في الشيعة العلوية لان العلويين استنصروا اولاً اهل العراق وفارس كما تقدم فلمـا قامت الدولة العباسـية وتأثرهم المنصور بالقتل والحبس وقتل محمد بن عبد الله الحسني وبعض اهله من بني حسن وفرّ سائر العلويين من وجه الدولة العباسـية كان في جملتهم علي بن محمد بن عبد الله فجاء مصر بأمر دعوته [٤] بعض رجال الشيعة لكنه مالبث ان حمل الى المنصور واختفى

وكان حال الشيعة العلوية بمصر يتقلب بين الشدة والرخاء بتقلب احوال الخلفاء في بغداد فان تولى خليفة يكره العلويين ضيق على الشيعة واضطهدهم والعكس بالعكس . فلمـا تولى المتوكل واضطهد الشيعة العلوية كتب الى عامله بمصر باخراج آل ابي طالب الى العراق فاخرجهم سنة ٢٣٦ هـ ولما قدموا العراق ارسلوهم الى المدينة واستتر من بقي في مصر على رأي العلوية . لان عمال المتوكل كانوا يبالغون في اظهار الكره للشيعة تزلفًا من الخليفة — يحكى ان رجلاً من الجند اقترف ذنبًا اوجب جلده فامر يزيد بن عبد الله عامل مصر يومئذٍ بجلده فأقسم الرجل عليهِ بحق الحسن والحسين الا عفا عنهُ فزادهُ ثلاثين ضربة . ورفع صاحب البريد الى المتوكل ذلك الخبر فورد كتابهُ الى العامل ان

---

(١) ابن الاثير ٢١٦ ج ٨ (٢) ابن الاثير ٦٥ ج ٩

(٣) المقريزي ٣٤٩ ج ١ (٤) المقريزي ٣٣٨ ج ٢

يضرب الجندي المذكور مئة سوط فضربهُ · وتتبع يزيد المشار اليهِ آثار العلويين فعلم برجل منهم لهُ دعاة وانصار فقبض عليهِ وارسلهُ الى العراق مع اهله وضرب الذين بايعوه

ولما تولى المنتصر بن المتوكل سنة ٢٤٧ هـ كتب الى عامله بمصر ان لا يضمن علويٌ ضيعة ولا يركب فرساً ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من اطراف مصر وان يمنعوهم من اتخاذ العبيد الاَّ العبد الواحد · واذا كان بينهم وبين احد الناس خصومة قُبل قول خصمه فيهِ بغير ان يطالب ببينة · فقاسى العلويون عذاباً شديداً بسبب ذلك

ولما استقلَّ احمد بن طولون بامارة مصر سنة ٢٥٤ هـ اضطهد الشيعة لانهُ تركي ولانهُ على رأي الخليفة العباسي فاقتصَّ آثار العلويين وحاربهم مراراً · حتى اذا ضعف امر بني طولون بمصر واختلت احوال الدولة العباسية في بغداد وتغلب آل بويه عليها في القرن الرابع للهجرة اخذ حزب الشيعة ينتعش ويتقوى فلما جاءهم جند المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٦ هـ بقيادة جوهر الصقلي كانت الاذهان متأهبة لقبول تلك الدعوة ففتح جوهر مصر على اهون سبيل وخطب فيها للعلويين واقام شعارهم وازال شعار العباسيين وبنى مدينة القاهرة وانتقل اليها مولاه المعز لدين الله وتوالى من دولة الفاطميين بمصر عشرة خلفاء وجملة خلفائهم منذ انشأوا دولتهم في افريقيا الى انقضائها بمصر ١٤ خليفة حكموا من سنة ٢٩٧ — ٥٦٧ هـ وانتقلت مصر منهم الى الاكراد الايوبيين

سياسة الدولة الفاطمية

ان الفاطميين من جملة الدول الاسلامية التي قلدت الدولة العباسية في نظام حكومتها وسائر شؤونها الاَّ ما يتعلق منها بالدين فانهم ايدوا كل ما يوافق مذهب الشيعة من ايثار العلويين وتقديمهم والعمل باقوال ائمتهم · فالف يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي كتاباً يتضمن الفقه على ما سمعه من المعز لدين الله وابنه العزيز بالله وبوَّبه على ابواب الفقه فبلغ حجمه نحو نصف حجم صحيح البخاري وهو يشتمل على فقه الطائفة الاسماعيلية · وقد بذلت الدولة الفاطمية جهدها في نشر هذا الفقه بين المسلمين حتى كان الوزير المشار اليه يجلس بنفسه لقراءة هذا الكتاب على الطلبة وبين يديهِ خواص الناس وعوامهم وسائر الفقهاء والقضاة والادباء · وجعله مرجع القضاء في الفتوى وافتى الناس به ودرسوه في الجامع العتيق (جامع عمرو) وعمل الخلفاء على ترغيب الناس

في حفظه بالبذل والعطاء فاجرى العزيز بالله على ٣٥ رجلاً من الفقهاء يحضرون مجلس الوزير و يلازمونه ارزاقاً تكفيهم فضلاً عما كان يصلهم من مال العزيز بالله في الصلات السنوية وامرهم ببناء دار الى جانب الجامع الازهر وكان يخلع عليهم في عيد الفطر و يحملهم على البغال ترغيباً لهم في نشر فقه الشيعة وتعاليهم واجلسوا اناساً في قصر الخلافة لقراءة علوم اهل البيت على الناس لان بانتشار ذلك المذهب تتايد تلك الدولة لارتباط السياسة بالدين كما قدمنا . وتعقبوا من يطالع غير ذلك الكتاب وشددوا في عقابه فاتفق انهم عثروا على رجل وجدوا عنده كتاب الموطأ لمالك فضربوه وطافوا به في المدينة . وكان يعقوب الوزير المذكور يهودياً واسلم وخدم الدولة الفاطمية خدماً جزيلة في تأييد دعوتهم كما رأيت فلا عجب اذا عاده العزيز في مرضه وقال له « وددت لو انك تباع فابتاعك بملكي »[1]

وتمشى سائر الخلفاء الفاطميين على هذه الخطة في نشر مذهب الشيعة فانشأ العزيز والحاكم دور الكتب للمطالعة والنسخ[2] لنشر كتبهم ولما تولى الخليفة الظاهر سنة ٤١١هـ أخرج من كان في مصر من الفقهاء المالكية وغيرهم . وشددوا الاوامر على الناس ان يحفظوا كتاب دعائم الاسلام ومختصر الوزير وجعلوا لمن حفظ ذلك مالاً[3] ومن مقتضيات فقه الدولة الفاطمية في المواريث توريث ذوي الارحام فالبنت عندهم اذا انفردت استحقت المال باجمعه[4] تأييداً لحقهم في وراثة الخلافة لانهم ينتسبون الى فاطمة بنت النبي وهي منفردة بالارث .

ادوار الدولة الفاطمية

مرت الدولة الفاطمية في ثلاثة ادوار تشبه الادوار التي مرت بها الدولة العباسية فقد رأيت ان نفوذ الكلمة في الدولة العباسية كان في اوائلها مشتركاً بين العرب والفرس ثم صار الى الفرس ثم الى الاتراك . والفاطميون عرب قامت دولتهم بالعرب والبربر فكان النفوذ في اولها مشتركاً بين هذين العنصرين ثم صار الى البربر ثم الى الاتراك

والبربر قوم أشداء مساكنهم في شمالي افريقيا وقد نصروا الشيعة العلوية في المغرب كما نصرها الفرس في المشرق، وهم قبائل شتى مثل قبائل العرب الرحل وقد قاسى المسلمون في اخضاعهم عذاباً شديداً لانهم ارتدوا عن الاسلام اثنتي عشرة مرة وثبوا فيها كلها

(١) ابن الاثير ٣٢ ج ٩ (٢) الجزء الثالث من هذا الكتاب ٢٠٨

(٣) المقريزي ٣٥٥ ج ١ (٤) المقريزي ١١١ ج ١

على المسلمين ولم يثبت اسلامهم الاَّ في ايام موسى بن نصير في اواخر القرن الأَول • ولما نقم الناس على بني أمية لتعصبهم على غير العرب كان البربر في جملة الذين خرجوا عليهم وتطالوا للفتك بهم • وقد سرهم ذهاب دولة الامويين ولكن ساءهم انتقالها الى الاندلس على مقربة منهم لانهم كانوا يكرهونهم للعصبية فنصروا العلويين نكاية فيهم • — الاَّ من اصطنعهم الاندلسيون بالمال — وللبربر فضل كبير في نشر الاسلام باواسط افريقية مثل فضل الاتراك في نشره بأواسط آسيا الى الهند والصين • لان البربر لما ثبت الاسلام فيهم نهضوا لفتح ما وراء بلادهم في افريقية الغربية فنشروا الاسلام هناك

فلما كانت الدولة الفاطمية في المغرب كان البربر من انصارها ولا سيما قبائل كتامة وصنهاجة وهوارة فاخذوا بساعد الفاطميين منذ قيامهم على ايام عبيد الله المهدي اول خلفائهم في اواخر القرن الثالث للهجرة • فلما تأيدت دولته سنة ٢٩٧ هـ اتخذ بطانته منهم وجعلهم من اهل الدولة وظلوا كذلك في خلافة ابنه القائم بامر الله (سنة ٣٢٢ هـ) ثم المنصور بنصر الله (سنة ٣٣٤ هـ) ثم المعز لدين الله (سنة ٣٤١ هـ) وساعدوهم في تملك المغرب كله واخراجه من البيعة العباسية • وفي ايام المعز لدين الله فتح الفاطميون مصر وبنوا القاهرة ونقلوا دولتهم اليها

فلما افضت الخلافة الى العزيز بالله بن المعز سنة ٣٦٥ هـ اراد التشبه بالعباسيين فاصطنع الاتراك والديلم واستكثر منهم وقدمهم وجعلهم خاصته كانه خاف على حياته من البربر • فقامت المنافسة بين البربر والاتراك وعظم التحاسد حتى توفي العزيز بالله وخلفه الحاكم بامر الله سنة ٣٨٦ هـ وكان يعتقد فضل البربر فقدمهم وقربهم فاشترطوا ان يتولى امورهم ابن عمار الكتامي (من البربر)فولاه الوساطة وهي كالوزارة عندهم • فاستبد في امور الدولة وقدم البربر واعطاهم وولاهم وحط من قدر الغلمان الاتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز • فاجتمعوا الى كبير منهم اسمهُ برجوان وكان صقلبياً وقد تاقت نفسه الى الولاية فاغراهم بابن عمار حتى وضعوا منهُ فاعتزل الوساطة وتولاها برجوان فقدم الاتراك والديلم واستخدمهم في القصر • ثم بدا للحاكم ان يقتل ابن عمار فقتله وقتل كثيراً من رجال دولة ابيهِ وجدهِ فتضعضع البربر وقوي الاتراك

ولما مات الحاكم وخلفهُ ابنهُ الظاهر لاعزاز دين الله سنة ٤١١ هـ اكثر من اللهو والقصف ومال الى الاتراك والمشارقة فانحط جانب البربر وما زال قدرهم يتناقص حتى كاد يتلاشى • فلما ملك المستنصر سنة ٤٢٧ هـ بعد الظاهر وكانت امهُ امة سوداء

استكثرت في جنود ابنها من العبيد ابناء جلدتها حتى بلغوا الف عبد اسود وكان هو يستكثر من الاتراك فاصبح الجند طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان الى الاستئثار بالنفوذ فآل التنافس الى حرب تعبت بها مصر واضطر الخليفة الى استنصار الشام فاتاه امير الجيوش بدر الجمالي من سوريا وهو ارمني الاصل فقتل اهل الدولة واقام بمصر جنداً من الارمن وصار من حينئذٍ معظم الجيش منهم وذهب نفوذ البربر وصاروا من جملة الرعية ولم يبق لهم شأن في الدولة بعد ان كانوا وجوهها واكابر اهلها [1]

وكان السلاجقة في اثناء ذلك قد غلبوا على العراق وفارس وذهبت دولة آل بويه وضعف امر الشيعة هناك وولّى السلاجقة مماليكهم وقوادهم (الاتابكة) على الولايات واستقل كل منهم بولايته كما تقدم ومنهم نور الدين زنكي في الشام . وكان في جملة قواد نور الدين جماعة من شجعان الاكراد منهم نجم الدين ايوب واخوه اسد الدين شركويه وقد بلغا عنده منزلة رفيعة وكانت خلافة مصر قد افضت سنة ٥٥٥ هـ الى العاضد بن يوسف وكان ضعيف الراي وقد غلب وزراؤه على دولته وتنافسوا على الاستئثار بالنفوذ وطال تنافسهم حتى أخربوا البلاد والخليفة لا يستطيع عملاً

وكان في جملة المنافسين وزير اسمه شاور قد غُلب على امره فذهب الى نور الدين زنكي واستنجده على رجل آخر كان ينافسه في الوزارة فاغتنم نور الدين تلك الفرصة للقبض على مصر وانجده باسد الدين شركويه في جند من المماليك فردّ الوزارة الى شاور وصار هذا يدفع ثلث خراج مصر الى نور الدين

وكانت الحروب الصليبية في تلك الاثناء قد احتدمت فزاد تداخل نورالدين في شؤون مصر ونائبه فيها شركويه ومعه ابن اخيه يوسف بن نجم الدين وهو صلاح الدين الايوبي الشهير . ومات شركويه بمصر سنة ٥٦٤ هـ فخلفه صلاح الدين في منصب النيابة

وكان صلاح الدين من اهل المطامع الكبرى فلما قبض على ازمة النيابة وهي كالوزارة ورأى ضعف الخليفة اراد مصر لنفسه وليس لاميره نورالدين . فلما مات العاضد خطب صلاح الدين بالقاهرة للخليفة العباسي ونقل حكومة مصر من الشيعة الى السنة وقبض على ازمة الاحكام . واستفحل امر الصليبيين في تلك الايام فأتى اعمالاً لا يزال التاريخ يردّد صداها الى اليوم اهمها استرجاع بيت المقدس ومد سلطته على الشام وغيرها . وانشأ الدولة الايوبية وهي كردية الجنس سنية المذهب فعادت مصر الى ظل الدولة العباسية من حيث البيعة فقط

---

(١) المقريزي ١٢ ج ٢

وعمد صلاح الدين ومن خلفه من اهله الى الاستكثار من المماليك الاتراك والجراكسة للجندية على جاري العادة في تلك الاعصر حتى اذا كثروا استبدوا في شؤون الحكومة وطمعوا بالسلطة . فلما ضعف امر الدولة الايوبية قبضوا هم على ازمة الحكومة وانشأوا بمصر دولتين عرفتا بدولتي السلاطين المماليك وهما المماليك البحرية والمماليك البرجية حكمت الاولى من سنة ٦٤٨ — ٧٩٢ ﻫ والثانية من سنة ٧٨٤ — ٩٢٣ وكانتا تبايعان للخليفة العباسي وهو مقيم في بغداد . فلما جاء التتر وفتحوا بغداد سنة ٦٥٦ ﻫ وقتلوا الخليفة العباسي (المستعصم) فرّ من بقي من بني العباس والتجأوا الى سلاطين مصر على عهد الملك الظاهر بيبرس وظلوا فيها والبيعة لهم حتى جاء السلطان سليم الفاتح العثماني وفتحها سنة ٩٢٣ ﻫ والخليفة العباسي عامئذ المتوكل على الله آخر خلفائهم فبايع للسلطان سليم وسلّم اليه الآثار النبوية فانتقلت الخلافة من العباسيين الى العثمانيين من ذلك الحين ولا تزال فيهم الى الآن



العصر المغولي أو التتري

انحلال المملكة الاسلامية

من قيام جنكزخان سنة ٦٠٣ هـ — الى وفاة تيمورلنك سنة ٨٠٧ هـ

قد رأيت في ما تقدم ان الدولة العباسية لما فسدت احكامها وضعف شأن خلفائها واستبد بها جندها وخدمها ضعفت علاقة اطراف مملكتها بدار الخلافة فتفرَّعت الى فروع بعضها فارسي و بعضها تركي او كردي والبعض الآخر عربي وكلها تابع للخليفة العباسي في بغداد حتى نشأت الدولة الفاطمية في المغرب وخلافتها علوية ففتحت مصر ونازعت الدولة العباسية على الشام وغيرها ثم اصابها ما اصاب تلك فمالت الى الشيخوخة مثلها ولكنها انقرضت قبلها على يد صلاح الدين الايوبي وعادت مصر الى مبايعة العباسيين

على ان الخلافة العباسية كانت يومئذ قد بلغت منتهى الضعف واستبد السلاجقة بمملكتها في الشام والعراق وفارس وما وراء النهر حيناً ثم اقتسمها مماليكهم الاتابكة كما تقدم

فانقضى القرن السادس للهجرة والمملكة الاسلامية قد تولاَّها الضعف والانقسام ولا سيما في المشرق بمن تنازع على سلطتها من الاتراك قواد السلاجقة ومماليكهم واهمهم الخوارزمية في خراسان وتركستان والخلافة العباسية قد تناهت في الضعف و بلغت الهرم حتى اشرفت على الانحلال وانما استبقاها اصحاب الاطراف ليستعينوا بها على تأ ييد سلطتهم بالبيعة . واصبحت مملكتها الواسعة يتنازعها ثلاث امم كأنهم اقتسموها فيما بينهم وهم الاتراك السلاجقة وقوادهم في المشرق والاكراد الايوبية في مصروالشام والبربر في المغرب والاندلس (الموحدون) وقد ذهبت دولة العرب ذهاباً تامًّا الاَّ امارات صغيرة بقيت في اليمن ونحوها . وهذه الدول على اختلاف اجناسها واطوارها مجمعة على مبايعة الخليفة العباسي في بغداد على ضعفه وانحلال دولته ولكنها تختص على الاستئثار بالسلطة في العالم الاسلامي

فلما رأى اعداء الدولة الاسلامية المحيطون بها ضعفها وانقسامها عمدوا الى الانتقام منها فأغاروا عليها من الشمال والغرب والشرق وكل منهم يريد اغتيالها . فهاجمها الكرج والارمن واللان من الشمال هجوم الغزاة للسلب والنهب حتى كثيرًا ما كانوا يدخلونها

بعشرات الالوف فيكتسحون اذربيجان وما جاورها يقتلون و ينهبون و يعودون بالامرى والسبايا والغنائم وكانت سبايا المسلمين تزيد احياناً على عدة آلاف غير القتلى [1] — كما كان العرب يفعلون بهم في اوائل دولتهم . على انهم لم يستطيعوا فتحاً ولا رسخت لهم قدم في مملكة الاسلام

وهجم عليها من الغرب امم الافرنج الصليبيين هجوم الفتح وقد تكاتفوا لاكتساح المملكة الاسلامية بحجة الدين لان القبر المقدس فيها ففتحوا فلسطين و بعض سوريا وملكوا بيت المقدس حيناً ولو اجتمعت كلمتهم لافتتحوا ما وراء ذلك ولكنهم انقسموا على انفسهم وجاءهم صلاح الدين الايوبي ببسالتهِ ودهائهِ وتدبيره فغلبهم على ما في ايديهم واخرجهم من بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ ولم تقم لهم قائمة من ذلك الحين

اما من الشرق فجاءها التتر او المغول بقبائلهم و بطونهم وهم في خشونة البداوة وقوة الابدان وقد توفقوا الى رجل شديد البطش هو جنكزخان القائد الشهير فحمل بهم من اواسط آسيا على العالم المتمدن في اوائل القرن السابع للهجرة وليس للمسلمين يومئذٍ رجل مثل صلاح الدين فدوخ جنكزخان مملكة الاسلام من اقصى اطرافها الشرقية الى حدود العراق غير ما افتتحه من بلاد الهند والصين حتى بلغت مساحة مملكته ٤٠٠٠٠٠٠ ميل مربع

المغول

المغول او المُغل قبيلة من التتر كانت تقيم حوالي بحيرة يقال في جنوبي سيبيريا وتاريخهم القديم سقيم لانهم لم يظهروا الى بظهور جنكزخان في اوائل القرن السابع للهجرة وكانوا قبلهُ مثل سائر القبائل الرحل يعيشون بالغزو والنهب والصيد والقنص في تلك البلاد البعيدة عن التمدن وقد كفوا الناس خيرهم وشرَّهم ولا شأن لهم بين الامم حتى في ايام جنكزخان لانهم كانوا لا يزيدون على ٤٠٠٠٠ خيمة فاذا حسبنا في الخيمة عشرة انفس لم يزد عددهم على ٤٠٠٠٠٠ نفس فحمل جنكزخان بهذا العدد القليل من بدو المغول على ما يحيط ببلادهم من الممالك العامرة واكتسحوها في بضعة عشر عاماً كما خرج بدو العرب من جزيرة العرب في اول الاسلام وافتتحوا مملكتي الروم وفارس بنحو تلك المدة . وفي الحالين كان النصر للبداوة على الحضارة لان المسلمين كانوا في ايام جنكز قد تحضروا وانغمسوا في الترف وانقسموا على انفسهم كما كان الروم والفرس عند ظهور الاسلام — والتاريخ يعيد نفسهُ

(١) ابن الاثير ١٢٨ ج ١١

﴿ جنكزخان ﴾ كان والد جنكزخان اميرًا على ١٣ قبيلة من المغول تحت رعاية الخان الاكبر ملك التتر بعهود متبادلة بينهما · ولد جنكزخان سنة ٥٤٨ ﻫ فسموه تموجين وهو اسمه الذي كان يعرف به في نشأته الاولى · وبعد اربع عشرة سنة توفي ابوه فاستخف رؤساء القبائل بتموجين وتمردوا عليه واصبح كل منهم يطلب السيادة لنفسه · وكان تموجين شديد البطش من حداثته فجمع رجاله وحارب الثائرين وتغلب عليهم · وهذه اول وقائعه فهابه الناس · على انه لم يستغن عن استنجاد الخان الاعظم فانجده واكرمه وثبته في امارة ابيه وازوجه ابنته

وكان تموجين قد شبَّ على ظهور الخيل وتعلم رمي النشاب وضرب السيف واتقن الفروسية بسائر فروعها · وكان قوي البدن شجاعًا صبورًا على التعب والجوع والعطش والبرد والالم وعوَّد رجاله على ذلك فاجتمعت كلمتهم على نصرته وانقادوا لامره

ولما علت منزلة تموجين عند الخان هاجت عوامل الحسد في اعضاء اسرته وغيرهم من رجال الدولة وكان تموجين قد اغرى الخان باولئك الامراء فضيق الخان عليهم فاوغرت صدورهم فثاروا عليه وشقوا عصا الطاعة وحاربوه وغلبوه فاستنجد تموجين فانجده واعاده الى كرسيه ومثل باعدائه حتى ألقى سبعين رجلاً منهم في الماء الغالي وهم احياء

فلما ظفر تموجين واظهر القسوة والشدة خافه حموه وحسده فادرك تموجين ذلك فسعى في اصلاح ما بينهما بالحسنى فلم ينجح فعزم على محاربته فتحاربا فانتصر تموجين فخافه الامراء وحسدوه وحاربوه وكان الفوز له · فتولى عرش المغول

وحارب تموجين بعد ذلك حروبًا فاز فيها فازداد امراؤه تعلقًا به فاحتفلوا بتهنئته احتفالاً اعظم من ذاك في سهل على ضفاف سلنكا فاجتمع الامراء والخانات فوقف فيهم وكان قوي العارضة فابدع · ثم جلس على لبادة سوداء فرشوها له هناك واصبحت تلك اللبادة اثرًا مقدسًا عندهم من ذلك الحين · ثم وقف بعض الحضور وكان من اهل التقوى والنفوذ فقال « مهما بلغ من قوتك فانها من الله وهو سيأخذ بيدك ويشد ازرك فاذا فرطت في سلطانك صرت اسود مثل هذه اللبادة ونبذك رجالك نبذ النواة » وفي هذا القول من حرية البداوة والجرأة مثل ما يروونه عن جراءة العرب على خلفائهم وامرائهم في صدر الاسلام · ثم تقدم سبعة امراء انهضوه باحترام وساروا بين يديه حتى اقعدوه على عرشه ونادوا باسمه ملكاً على المغول · وكان في جملة الحضور شيخ يعتقدون فيه الكرامة والقداسة فتقدم وليس عليه كساء وقال « يا اخوتي قد رأيت في منامي كأن

رب السماء على عرشه الناري تحدق به الارواح وقد اخذ بمحاكمة اهل الارض فحكم ان يكون العالم كله لمولانا تموجين وان يسمى جنكزخان اي الملك العام » ثم التفت الى تموجين وقال « لبيك ايها الملك فانك تدعى منذ الآن جنكزخان بامر الاله » ولم يعد يعرف بعد ذلك الاَّ بهذا الاسم

فلما تهيأ له تأسيس دولته وتدريب جنده عمد الى فتح العالم فسار اولاً نحو الشرق الى مملكة الصين وكان لامبراطور الصين جزية على المغول يؤدونها كل سنة فلما استفحل امر جنكزخان ابى الدفع ومعنى ذلك الاباء اشهار الحرب . فحمل جنكزخان بجيشه على الصين واخترق سورها العظيم وامعن فيها قتلاً ونهباً والصينيون يومئذ اسبق الامم في الاختراعات الحربية فاستخدموا النار اليونانية التي استعان بها اليونان على دفع العرب وقذفوا على المغول كرات فيها البارود قبل ان يعرفه اهل الغرب بازمان . على ان ذلك لم يكن ليرد غارات تلك القبائل فما زال جنكزخان زاحفاً حتى احتل باكين عاصمة الصين وسائر بلادها الشمالية . فازداد ذلك الفاتح رغبة وقوة فتحول بجنده الجرار نحو الغرب اي غربي بلاده وهي مملكة الاسلام

وكانت المملكة الاسلامية بما وصفناه من الضعف والاختلال وقد انقسمت الى عدة ممالك كردية وتركية وفارسية واقربها من بلاد المغول المملكة الخوارزمية من السلاجقة الاتراك وسلطانها يومئذ علاء الدين خوارزمشاه وكانت سلطة علاء الدين قد امتدت في أواخر أيامها على معظم العراق العجمي وسجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وفارس وعلى ما وراء النهر وقسم من افغانستان وبعض الهند . وكانت قصبة تلك الدولة مدينة خوارزم ومنها سمي سلطانها « خوارزمشاه » فحمل جنكزخان نحو الغرب وجنده يزيد على ٧٠٠,٠٠٠ مقاتل واكتسح تركستان وما وراءها وأوغل فيها قتلاً ونهباً مما تقشعر له الابدان

ومما حمله على ارتكاب تلك الفظائع انه لما وصل بجنده الى تركستان سير جماعة من التجار الاتراك ومعهم الذهب الى سمرقند وبخارا من بلاد ما وراء النهر (تركستان) ليشتروا له ثياباً للكسوة فوصلوا الى مدينة من بلاد الترك اسمها اترار وهي آخر مملكة خوارزمشاه مما يلي بلاد جنكزخان . وكان لخوارزمشاه هناك نائب فلما جاءته هذه الطائفة من التتر ارسل الى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم ويذكر ما معهم من الاموال فبعث خوارزمشاه يأمر بقتلهم وأخذ ما معهم وانفاذه اليه . فقتلهم وسير ما معهم وكان

شيئاً كثيراً ففرقه خوارزمشاه في تجار بخارا وسمرقند وأخذ ثمنه منهم • وعُذره في هذه المعاملة ان المغول كانوا قد غزوا كاشغار وبلاساغون وغيرهما من تركستان وصاروا يحاربون عساكره فلذلك منع الميرة عنهم

فلما قتل نائب خوارزمشاه اصحاب جنكزخان حمي غضبهُ وجمع من الرجال فوق ماكان عنده وحمل على مملكة الاسلام وكتب الى علاء الدين خوارزمشاه يقول «تقتلون اصحابي وتأخذون اموالهم تهيأوا للحرب فاني قادم اليكم بجمع لاقبل لكم به » فلما قرأ خوارزمشاه الرسالة قتل الرسول وامر بحلق لحى الجماعة واعادهم الى جنكزخان يخبرونه بما فعل بالرسول ويقولون له ان خوارزمشاه يقول لك «انا سائر اليك ولو انك في آخر الدنيا حتى انتقم وافعل بك كما فعلت باصحابك » فاستخف خوارزمشاه بالمغول كما استخف هرقل بالعرب اذ جاءتهُ كتبهم في اول الاسلام

وقد فعل جنكزخان كما قال تماماً فزحف بجيشه على المملكة الاسلامية فدوخوها من بلاد تركستان فما وراءها غرباً وهم ينتقلون من مدينة الى أخرى يفتكون وينهبون ويحرقون ويهدمون لا يخلفون وراءهم الاَّ الاطلال البالية بما لم يسبق له مثيل في تاريخ الانسان • وهنا يفترق بدو المغول عن بدو العرب فان هؤلاء ابقوا على البلاد التي فتحوها وأمنوا اهلها وجعلوهم في ذمتهم واقتبسوا تمدنهم وبنوا عليه تمدناً من عند انفسهم • وأما المغول فلم يكن همهم غير القتل والنهب كالوحوش الكاسرة وليس هنا محل الافاضة في سيرة هذا الرجل [١] وانما يقال بالاجمال انهُ تمكن في حياته من انشاء مملكة لم يتوفق لمثلها احد من الفاتحين قبله ولا بعدهُ لا الاسكندر المكدوني ولا يوليوس قيصر الروماني ولا نادرشاه الفارسي ولا نابوليون بونابرت الفرنساوي — انشأ مملكة تمتد من البحر المحيط الى البحر الاسود ودخل في سلطانه ملايين من الصينيين والتكوت والافغان والهنود والفرس والاتراك وغيرهم

انشأ جنكزخان هذه المملكة الواسعة وهو لا يعرف الكتابة ولا القراءة وكذلك معظم رجاله فاستعان في وضع الشرائع والنظام بمن دخل في سلطانه من المسلمين ورعاياهم كما استعان العرب في انشاء دولتهم اول الاسلام بالفرس والروم وغيرهم • توفي جنكزخان سنة ٦٢٤ هـ وهو في السادسة والسبعين من عمره وقد تولى الملك ٢٢ سنة

وبعد وفاته اقتسم اولاده مملكته على عادة المغول في هذه الحالة باعتبار ان البلاد ملك

(١) راجع الهلال السادس من السنة الثالثة عشرة

فيورثها لاعقابه فيقتسمونها كما يقتسمون سائر امواله فانقسمت مملكة المغول بعـده الى اربعة فروع تفرقت في اولاده الاربعة ثم تفرع كل منها الى غير فرع مما يطول شرحهُ فنكتفي بذكر ما يهمنا منها :

ان اولاد جنكزخان الذين افضت الحكومة اليهم اربعة اقطاي وطلوي وجوجي وجقطاي فانقسمت المملكة فيما بينهم على ما يأتي ويعرف ملوكها بالخاقانات وهم

١	دولة	اقطاي	في زنقاريا وغيرها	من سنة	٦٠٣ — ١٠٤٣ هـ
٢	«	طلوي	« بلاد المغول	«	٦٥٤ — ٧٥٠
٣	«	جوجي	« قبجاق وغيرها	«	٦٢١ — ٩٠٧
٤	«	جقطاي	« ما وراء النهر	«	٦٢٤ — ٧٦٠

فالدولة الاولى (اقطاي) كانت لها السيادة العظمى واول ملوكها جنكزخان نفسه ولايهمنا تاريخها في هذا المقام. واما الدولة الثانية فيهمنا من فروعها فرع له شأن في تاريخ الاسلام نعني به فرع « هولاكو » وهو ابن طلوي بن جنكزخان تولى بعض المقاطعات في مملكة ابيه واستقل بها وملك فارس سنة ٦٥٤ هـ وعرفت دولته فيها بدولة ايلخان او مغول الفرس وكان في بلاد فارس بقايا من مملكة خوارزمشاه فضمها اليه وأقدم على ما لم يقدم عليه احدٌ من اسلافه — وذلك أنهُ لما استقر له الملك في فارس حمل على بغداد

هولاكو وسقوط بغداد

والسبب في ذلك ان المنافسات بين السنة والشيعة ببغداد تكررت في اواخر الدولة فلا تمضي سنة لايقع فيها بين الطائفتين قتال تتوسط الحكومة في اصلاحه وبما ان الحكومة سنية فالضغط كان يقع غالباً على الشيعة وكانوا يقيمون معاً في الكرخ ببغداد وهم صابرون على ما يكابدونهُ من الاضطهاد والحكومة مع ذلك توليهم مصالحها وتعهد اليهم بتدبير شؤونها. وكان الخليفة في ايام هولاكو المستعصم بالله تولى الخلافة سنة ٦٤٠هـ وكان ضعيف الرأي ووزيره رجل من الشيعة اسمهُ مؤيد الدين بن العلقمي ذو دهاء ومكر . فاتفق وقوع فتنة بين السنة والشيعة على جاري العادة وكان للخليفة ولدٌ اسمهُ ابو بكر شديد العصبية على الشيعة فاستعان بقائد الجند (الدوادار) وامر العسكر ان يفتكوا بالشيعة فهجموا على الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي ولم يعد يستطيع صبرًا فكتب الى هولاكو سرًّا واطمعهُ في ملك بغداد وارسل اليهِ اخاه ليحرضهُ على القدوم فزحف هولاكو على بغداد بجيش عظيم . فلما علم الخليفة المستعصم بقدومهم بعث الدوادار في من

بقي ببغداد من الجند وهم لايزيدون على ٢٠٠٠٠ مقاتل فالتقى الجيشان على مرحلتين من بغداد فانهزم عسكر الخليفة وتشتت

اما هولاكو فاقبل حتى نزل الجانب الشرقي من بغداد وارسل قائداً من قواده نزل الجانب الغربي قبالة دار الخلافة والمستعصم لا يعلم بما دبره ابن العلقمي فانفذه لمخابرة هولاكو بشأن الصلح فكمل مكيدته وعاد وقال للخليفة « ان هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد ان يزوج ابنته من ابنك ابي بكر » وحسن له الخروج الى هولاكو فخرج اليه في جمع من اكابر اصحابه فانزلهم في خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والاماثل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد فلما اجتمعوا امر هولاكو بقتلهم فقتلوا ثم بذلوا السيف في بغداد وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف الاّ الاطفال فاخذوهم في جملة الاسرى والسبي ودام القتل والنهب في دار السلام اربعين يوماً ثم نودي بالامان ودخلت بغداد في سلطة هولاكو سنة ٦٥٦ هـ وذهبت الخلافة العباسية من العراق على يد الشيعة العلوية كما كان يخاف ذهابها المنصور والمهدي والرشيد وقد نكبوا وزراءهم وقوادهم خوفاً من ذلك . على ان الخلافة العباسية لم تنقرض تماماً بل انتقل من بقي من العباسيين حياً بعد مذبحة هولاكو الى مصر واقاموا في ظل السلاطين المماليك كما تقدم

اما هولاكو فلما ملك عاصمة العالم الاسلامي في ذلك العهد طمع بفتح ما وراءها فحمل على الشام وكانت في حوزة السلاطين المماليك بعد الدولة الايوبية فردوه عنها فاقتنع بما دخل في حوزته وقد امتدت مملكته من الهند الى الشام واورثها لاولاده فانقضت دولته ولم يتم عليها القرن (٦٥٤ — ٧٥٠ هـ) وانقسمت الى ولايات صغيرة ما زالت في اضطراب وتضعضع حتى اخضعها تيمورلنك

تيمورلنك

ينسب هذا القائد العظيم الى دولة جنكيزخان وليس هو من نسله ولكنه من عائلته وكان جده وزيراً عند جقطاي بن جنكيزخان . ولد تيمور سنة ٧٣٦ هـ ولما ترعرع تولى بعض الاعمال في دولة اقطاي بما وراء النهر ثم ترقى الى رتبة الوزارة فطمع بالملك فغلب على ملكه محمود وحمل على العالم كما حمل جنكيزخان قبله ففتح بلاد فارس بعد حروب كثيرة سفكت فيها دماء غزيرة ولم تمض سبع سنوات حتى دوخ خراسان وجرجان ومازندران وسجستان وافغانستان وفارس واذربيجان وكردستان ثم جاء العراق فاستخرج

بغداد من الجيلارية وكانوا قد تملكوها بعد هولاكو ثم حوّل أعنة خيوله شرقاً نحو الهند فغزا قشمير ودهلي وتحوّل غرباً لفتح اسيا الصغرى وكانت في حوزة العثمانيين وسلطانهم يومئذ بايزيد فبلغ تيمورلنك في فتوحه الى انقرة وحارب بايزيد وأسره سنة ٨٠٤ ﻫ واكتسح سائر بلاد المشرق الى آخر حدود الشام وبايعه سلاطين مصر على الطاعة فتحول لمحاربة الصين فمات في الطريق سنة ٨٠٧ ﻫ قبل ان ينظم حكومته فذهبت فتوحه هدراً فعادت البلاد التي فتحها الى ملوكها الاولين وعادت الاحوال الى ما كانت عليه قبله • على ان الدولة التيمورية طال حكمها في ماوراء النهر الى سنة ٩٠٦ ﻫ وبوفاة تيمورلنك ينقضي العصر المغولي وبانقضائه ينقضي الدور الاول من تاريخ الاسلام

الدور الثاني

من ظهور الدولة العثمانية ولا يزال

قد رأيت ان المغول لم ينشئوا دولة ثابتة في بلاد الاسلام ولم يكن لهم شأن في التمدن الاسلامي وانما علاقتهم بهذا التمدن أنهم جاؤوه والدولة الاسلامية في آخر دورها الاول وفي منتهى التضعضع والضعف بمن حمل عليها من الافرنج والكرج والارمن واللان فزادوها ضعفاً وذهبوا ببقية الخلافة العباسية في بغداد وعادوا عنها وهي تكاد تكون في حال الاحتضار وقد تبدد شملها وليس فيها دولة حية تجمع شتاتها على أن ذلك كان مقدوراً للدولة العثمانية في العصر التركي الثاني ولدولة شاهات الفرس في العصر الفارسي الثاني ويتألف منهما الدور الثاني من تاريخ الاسلام

فعاد التتر عن المملكة الاسلامية في اوائل القرن التاسع للهجرة ومصر في حوزة السلاطين المماليك يتنازعون على السلطة ويتخاصمون على الكسب • والشام بعضها في ايدي أولئك المماليك وبعضها في ايدي بعض اعقاب الايوبيين حتى يكاد يكون كل بلد مستقلاً بنفسه • والعراق وبلاد فارس وما بين النهرين يتنازع عليها الايلخانية والجيلارية والمظفرية والقراقيونلية والتيمورية وغيرهم • وما وراء النهر وافغانستان في سلطة المغول التيمورية • واسيا الصغرى يتنازعها العثمانيون وبقايا السلاجقة • وسائر بلاد المشرق يختصم عليها بقايا التتر او بقايا الاتابكة • وشمالي افريقيا كان منقسماً بين المرينية والحفصية • والاندلس لم يبق منها في سلطة المسلمين الا الدولة النصرية في غرناطة • وجزيرة

العرب تحكمها امارات صغيرة تحارب وتتغازى . وهذه الدول مع ضعفها واختلال أحوالها تجمعها خلافة اضعف منها هي بقية الخلافة العباسية في الديار المصرية

تلك كانت حال العالم الاسلامي من الاضطراب والتضعضع عند تغلب الدولة العثمانية فجاءت في ابان الحاجة اليها فافتتحت القسطنطينية وقد يئس المسلمون من فتحها بعد ان حاولوه مراراً . وحارب العثمانيون اعظم ملوك أوربا وطاردوهم الى بلاد المجر وحاصروا فيناً عاصمة النمسا وأخذوا الجزية من الارشيدوق فردينان واكتسحوا البحر الابيض الى شواطيء اسبانيا فارتعدت أوربا خوفاً منهم . وفتحوا المشرق الى العراق ثم ساروا جنوباً غرباً حتى فتحوا الشام ومصر وفيها بقية الدولة العباسية فتنازل العباسيون لهم عن الخلافة كما تقدم . فامتدت مملكتهم في ايام السلطان سليمان (سنة ٩٢٦ ـ ٩٧٤ هـ) من بودا بست على ضفاف الطونة الى اصوان على ضفاف النيل ومن الفرات بالعراق الى بوغاز جبل طارق فاجتمع العالم الاسلامي الغربي تحت جناح الدولة العثمانية ولا يزال . وكان اجتماع الخلافة والسلطة فيها سبباً لطول بقائها اكثر مما تقدمها من الدول الاسلامية حتى العباسيين مع طول مدة ملكهم لان سلطتهم اصبحت بعد القرن الثالث من انشاء دولتهم اسماً بلا رسم

ونهض الصفويون من الجهة الاخرى في بلاد فارس وبين النهرين فأنشأوا دولة شيعية كبرى جمعت تلك البلاد الشيعية في حوزتها ثم انتقلت الى الدولة القاجارية الباقية الى الآن كما جمعت الدولة العثمانية البلاد السنية . فالعالم الاسلامي الآن في دوره الثاني تحكمه دولتان اسلاميتان كبيرتان الدولة العثمانية في الشمال والغرب وهي سنية والشاهات القاجارية في الشرق وهي شيعية وليس من شأننا النظر في سياستهما في هذا الكتاب

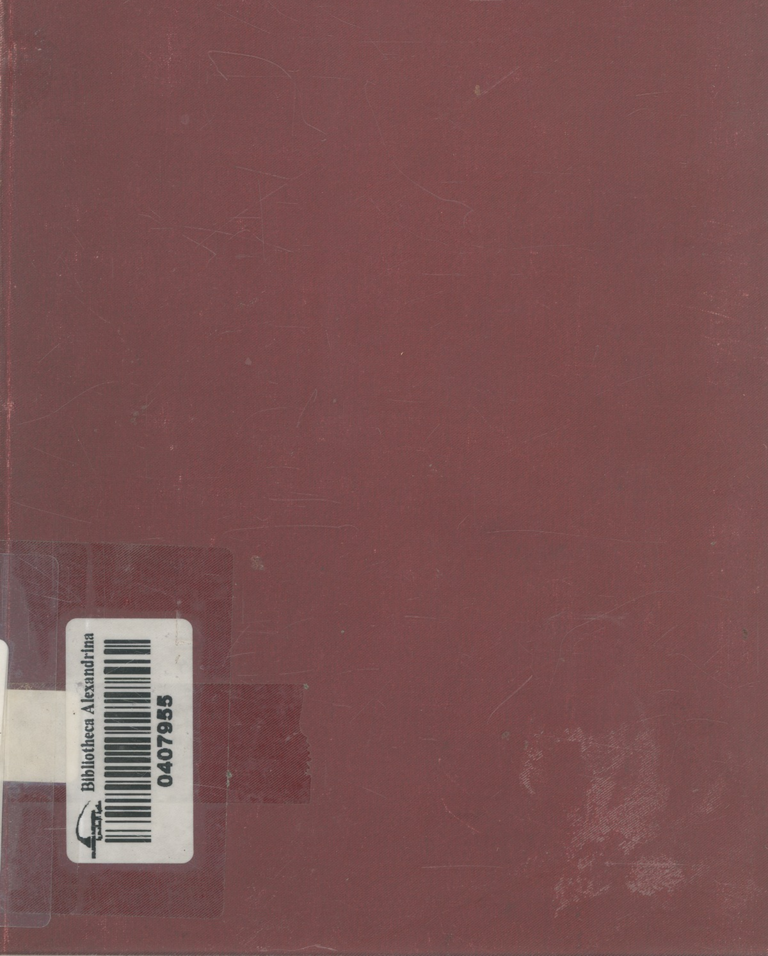
« تم الجزء الرابع »



الفهرست

(تم الفهرست)




Bibliotheca Alexandrina
04079555